

مُعْتَدِلُ الْحَسَنِي

تأمِّلات

فِي

الْبَيْنَ وَالْجِيَاةِ

طبعة جديدة ومحققة

٣٣



العنوان: تأملات في الدين والحياة.
المؤلف: الشيخ/ محمد الغزالى .
إشراف عام: داليا محمد إبراهيم .
تاريخ النشر: الطبعة الرابعة يناير 2005م .
رقم الإيداع: 2002 / 15324
الترقيم الدولي: ISBN 977-14-1948-X

الإدارة العامة للنشر: 21 ش أحمد عرابي - الممهندسين - الجيزة
ت: 3466434-3472864 (02) فاكس: 3462576 (02) ص.ب: 21 إمبابة
البريد الإلكتروني للإدارة العامة للنشر: publishing@nahdetmisr.com

المطبع: 80 المنطقة الصناعية الرابعة - مدينة السادس من أكتوبر
ت: 8330287 - 8330289 (02) - فاكس: 8330296 (02)
البريد الإلكتروني للمطبع: press@nahdetmisr.com

مركز التوزيع الرئيسي: 18 ش كامل صدقى - الفجالة -
القاهرة - ص. ب : 96 الفجالة - القاهرة.
ت : 5909827 (02) - 5908895 (02) - فاكس: 5903395 (02)

مركز خدمة العملاء: الرقم المجاني: 08002226222
البريد الإلكتروني لإدارة البيع: sales @nahdetmisr.com

مركز التوزيع بالإسكندرية: 408 طريق الحرية (رشدى)
ت: 5230569 (03)
مركز التوزيع بالمنصورة: 47 شارع عبد السلام عارف
ت: 2259675 (050)

موقع الشركة على الانترنت: www.nahdetmisr.com
موقع البيع على الانترنت: www.enahda.com



احصل على أي من إصدارات شركة نهضة مصر (كتاب / C D)
وتقع بأفضل الخدمات عبر موقع البيع
www.enahda.com

جميع الحقوق محفوظة © لشركة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع

لا يجوز طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية
أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي صريح من الناشر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

لم أكن أتخيل في طفولتي ولا يفاععني أنني سأكون يوماً ما داعية إلى الدين . وما حسبت ولا حسب القريبون مني أنني أصلح للعمل في هذا الميدان الذي تواضع الناس على ترشيح أقوام معينين له ، يمتازون بطراز خاص من الخلق والسلوك ، ويضفي المجتمع عليهم تقاليد دقيقة تحكم في بيئاتهم وهيئاتهم . . . وسائل مناحي حياتهم .

إنني لا أطيق التزmet ، ولو تكلفت ما أحسنته ! وأحب أن أسترسل مع سجيتي في أخذ الأمور وتركها ، وقلما أكتثر للتقاليد الموضوعة . . . والمفروض أن الازمة الأولى في رجال الدين - كما يسمون - أنهم أهل توقي وسكون .

وأنا أجنح إلى المرح عن رغبة عميقـة ، وأتلمس الجوانب الضاحكة في كل شيء ، وأود لو استطعت أن أعيش هاشـاً باشاً . . . والمفروض أن الناس يتوقعون من أمثالنا تواصل الأحزان ، وإطلاق الكـابة ، وحتى يكون تذكيره بالأـخرـة ، وإنذاره العصـاة بالـنـار ، متفقاً مع مخـاـيل الجـدـ والعـبـوسـ التي لا تفارق وجهـهـ أبداً !!

ثم إنـيـ شـعـبـيـ فيـ تـصـرـفـيـ ، لوـ كـنـتـ مـلـكـاـ لأـبـيـتـ إـلاـ الـانتـظـامـ فـيـ سـلـكـ الأـخـوةـ المـطـلـقـةـ معـ الجـمـاهـيرـ الدـنـيـاـ ، أـخـدـمـهـمـ وـيـخـدـمـونـنـيـ عـلـىـ سـوـاءـ !

وقد فكر أحد الفراشين أن يزوجنى ابنته ، يحسبنى غير متزوج ! وضحكـتـ مـسـرـورـاـ ، لأنـ الرـجـلـ لمـ يـلـمـحـ فـيـ نـفـسـيـ أـثـارـةـ منـ كـبـرـيـاءـ تـصـدـهـ عـنـىـ أوـ تـصـدـنـىـ عـنـهـ ، بـرـغـمـ مـاـ يـفـرـضـهـ النـاسـ بـيـنـنـاـ مـنـ تـفـاوـتـ شـاسـعـ فـيـ الطـبـقـاتـ !!

ولـمـاـ أـمـضـىـ فـيـ شـرـحـ نـفـسـىـ ؟ـ وـمـاـذـاـ يـعـنـىـ الـقـرـاءـ مـنـ ذـلـكـ ؟ـ الـذـىـ يـهـمـ أـنـ مـؤـهـلـاتـ «ـرـجـلـ الدـيـنـ»ـ الـذـىـ يـمـشـىـ روـيـداـ ، وـيـنـحـصـرـ فـيـ حدـودـ حـكـمـةـ مـنـ الـمـرـاسـمـ ، وـيـشـرـفـ مـنـ قـمـتـهـ عـلـىـ النـاسـ ، وـيـرـسـلـ يـدـهـ لـتـقـبـلـهـ الـعـامـةـ .ـ إـلـىـ آـخـرـ كـلـ ذـلـكـ كـانـ وـمـاـزـالـ بـعـيـداـ عـنـهـ .

وـقـدـ تـكـوـنـ الـأـيـامـ غـيـرـتـ مـنـىـ ، وـالـتـجـارـبـ الـقـاسـيـةـ عـلـمـتـنـىـ ، فـجـعـلـتـنـىـ -ـ وـأـنـاـ الضـحـوكـ الـمـبـهـجـ -ـ أـغـوـصـ فـيـ بـحـارـ مـنـ الـأـكـدارـ ، أـوـ أـتـحـرـىـ مـوـضـعـ قـدـمـىـ وـأـنـاـ أـسـيـرـ بـيـنـ

الناس ، كأنما أحاذر شرائكاً منصوبة ، أو أصعر خدي - علم الله - لا عن كبر ، بل إحجاماً عن قبول الدنيا ، ورفضاً لهضم الحقوق !

وما اضطررت إليه من عمل ينافي طبعي فإن مرد طبيعة الأحوال التي أحيا فيها ، وليس - ألبته - من طبيعة الرسالة التي أؤديها بعد ما صرت إلى ما خطه القدر لى ، أى رجلاً من الدعاة إلى الله ! وهمة وصل بين الأرض والسماء !

وقد استبان لى بعد ما درست الدين - عن بصر وعلى مكث - أن الخصال التي تردني في وهم الناس - عنه ، هي أصدق المرشحات لحمل تعاليمه والوصول بالبشرية إلى أهدافه !

وعلمت بعد اختبار صحيح للرجال الملتصقين بالدين من رسميين وشعبيين ، وللرجال المبتعدين عن الدين من ملحدين ومتهمين - صدق ما قاله النبي صلوات الله عليه وسلم : «رَبُّ كَاسِيَةٍ فِي الدُّنْيَا عَارِيَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» .

إن العصاة الضارعين أدنى إلى الله من الزهاد المدللين ، وإن الرجل الذي يشبه الطفل في مسالكه أقرب إلى فطرة الله من أولئك الذين أحاطوا أشخاصهم بهالات من التصنع الدقيق لما يفعلون ويتركون .

ولا ريب أنه - بعيداً عن دائرة الدين - يوجد قطعان من الناس نزلوا إلى درك سحيق من الفساد ، كبارهم وحوش ، وصغارهم ذباب ... ووظيفة الأنبياء الأولين - ومن خلفهم في القيام على رسالتهم - بذل الجهد في تقويم هؤلاء ، وإسداء النصح لهم ، والحيلولة بينهم وبين موارد الشر ، التي يتهاونون إليها بغرائزهم .

وهذا أجلُّ عمل يمنحه إنسان إنساناً ، وما يستطيعه في هذه الحياة إلا الأقلون ، بل إن الطاقة الروحية الدافقة التي تسكب من نقائها على القلوب الملوثة فتغسلها من أدرانها ، وترفعها عن حضيضها - ليست متاحة لمن ابتغاها من الناس ، ولكن القدر يصطفى لذلك موهب وكفایات فريدة ﴿وَمِنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهُدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾^(١) .

وأين الديانون الذين يريدون للحياة صوابها إذا فقدت صوابها ؟
إنهم قليلون جداً .

(١) الأعراف: الآية ١٨١ .

والناس يحتسبون في حملة الوحي الداعين إلى الله : أن غرائز الحياة ماتت في دمائهم ، وأن تجردهم لما عرفوا به يتقاداهم ذلك !

وهذا خطأ ، فإن الواجب في حق هؤلاء أن يكون ما عند الله أرجح في نفوسهم من غرائز الحياة كلها ، ومعنى ذلك أن حظهم من الدنيا قد يكون أكبر في حقيقته من حظوظ غيرهم ، ولكنكهما كبر يتضاءل أمام ما في نفس الرجل المؤمن من حب للخير ، وتصحية في سبيله ! والتقى حقاً هو الرجل الذي أوتي من علو الهمة ، وطول الباع ما يمكنه من تملك الدنيا . . . ثم هو قد أوتي إلى جانب ذلك من صدق اليقين ، واحترام الحق ، والنزوع إلى الكمال ما يجعله يزدرى ذلك كله في ساعة فداء وتصحية ! وقد اختلطت بفتات شتى تنسب إلى الدين فراعنى أن هذا الصنف - كما قلت - عزيز المناج .

هناك جمهور ضخم من العامة سليم الصدر ، صريح الهدف ، يشترك مع الملايين في نقاه صحيفته ، واستقامة سريرته . وهناك نفر من المرشدين مشوا في آثار النبوة ، وصدقوا الله جهادهم ، ومحضوه عملهم . . .

بيد أنه كما ظهر قدماً أنبياء كذبة يوجد متاجرون بالدعوة إلى الله ، مصابون في عقولهم أو ضمائرهم بلوثات عكرت رونق الدين ، وأفسدت شئون الحياة .

وقد يسبق الوهم إلى أنني أقصد فقط طوائف المحترفين المعروفيين . . . ولئن كان هؤلاء من نعانيهم . . . إنهم ليسوا الخطر كله . . . فلنذكر في معرض الزراعة عشرات من الرجال المدنيين أخفقوا في أعمالهم ، وانهزموا في ساحتها . . . ثم كما يتحول اللص العاجز إلى واحد من رجال الشرطة ، يتحول أولئك المهزومون إلى مبشرين بالدين ، ويذحمون «الجمعيات» الدينية ليحرسوا الإيمان ! وكان أولى بهم - لو عقلوا - أن يخدموا الدين بإتقان الأعمال التي توفرت عليها ، وتحصصوا فيها . . . لا أن يخدموه بالخطب والمظاهرات ، فإن بلاء الدين بدأ يوم تحول طقوساً وتلاوات ، وانقطع عن ملاحقة العمران ، والهيمنة على البواعث والغايات في أعمال الإنسان .

في هذا الكتاب صور وخواطر ، وبحوث ولفتات ، لا يجمعها في نسق متوافق إلا هذا العنوان العام «تأملات في الدين والحياة» ، وقد كتبت أكثرها منذ أعوام . وربما كانت في وضعها الجديد قد تجردت من الملابسات التي أوحيت بها ، إلا أن ذلك



لا يغص من قيمتها ، فقد عالجت أموراً لا تزال تستحق المزيد من النقد والنظر ! وخير ما فيها أنها عرضت الدين على الناس نابضاً بالحياة والحركة ، ونشدت لاحياء ضوابط الإيمان والتقوى .

وعهد الناس بالدين أنه طريق إلى البلى ، وبالدنيا أنها لاتنضج وتشتهى إلا بعيدة عن وحيه وهداه ..

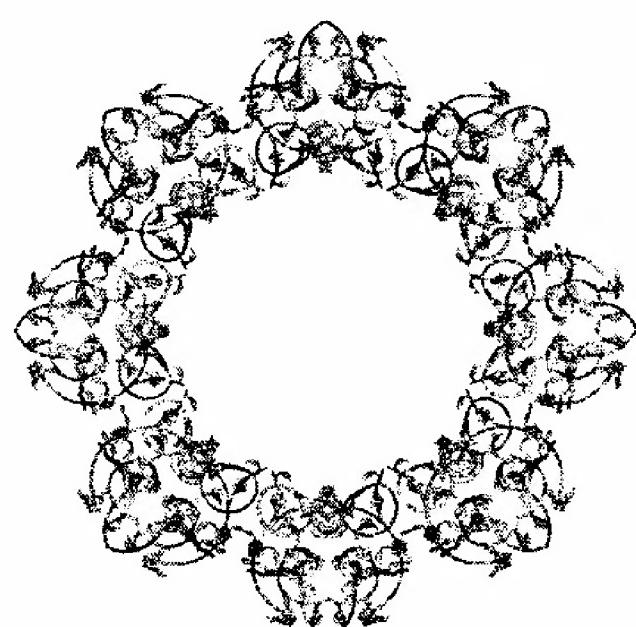
من هذه التأملات ألفت عدة كتب قرأها الناس بحوثاً مستقلة بعد ما طالعوها
مقالات مبعثرة .

وقد يلحظ القراء تشابه فيما سيجدونه هنا من فكر طوال أو قصار ، وبين ما ظهر
لغيرى من رسائل ومؤلفات .

ربما كان اتحاد الطريق والوجهة سر هذا التلاقي ، وذلك ما أرجحه ! وأيا ما كان الأمر ،
فإن هذه الأفكار من الناحية الفنية والتاريخية قد نشرت قبل أن يبدو غيرها في ميدان
الأدب بأمد طويل ، عندما كنت أحرر مجلة الإخوان المسلمين ...

على أن الإسلام ، من حيث هو دين ، ليس وصف معالمه حكراً لأحد ، والمثبتة
التي يرجيها المؤمنون ، لا يعرف من سوف يظفر بها ، السابقون أم اللاحقون؟

محمد الفزالي



سياسة الحرية والكافح

• ثمن واحد... لبضائع مختلفة:

إن الشجاعة قد تكلف صاحبها فقدان حياته ، فهل الجبن يقى صاحبه شر المهالك ؟
كلا . فالذين يموتون فى ميادين الحياة وهم يوئون الأدبار أضعاف الذين يموتون وهم
يقتلون الأخطار ... ؟

وللمجد ثمنه الغالى الذى يتطوع الإنسان بدفعه ، ولكن الهوان لا يعفى صاحبه
من ضريبة يدفعها وهو كاره حقير . ومن ثم فالآمة التى تضن ببنيها فى ساحة الجهاد
تفقد هم أيام السلم ، والتى لا تقدم للحرية أبطالاً يقتلون وهم سادة كرام ، تقدم
لل العبودية رجالاً يشنقون وهم سفلة لئام .

وهكذا من لم يسهر نفسه للتعليم أيامًا ، أسره الجهل أعواماً ، ولو حسبنا ما فقده
الشرق تحت وطأة الجهل والفقر والمرض لوجدناه أضعف ما فقده الغرب وهو يبحث عن
العلم والغنى والصحة !!

وما دام الشيء وضده يكلfan الكثير فلماذا نرضى بالحقير ولا نطعم فى الخطير؟

ألا ما أجمل قول الشاعر :

إذا ما كنت فى أمر مروم ! فلا تقنع بما دون النجوم !
فطعم الموت فى أمر حقير كطعم الموت فى أمر عظيم
والذين يحسبون البذل فى سبيل الله مغرماً يستحق الرثاء ، والموت فى سبيل الله
تضحيه تستحق العزاء ، هم قوم ليسوا من الدين فى شيء ، ولا من الدنيا فى شيء .
وحق على هؤلاء أن يدفنوا وهم أحياء ، وأن يرقدوا فى مهاد الذل لا ليستريحوا ، ولكن
لتستجاب فيهم دعوة خالد بن الوليد :
«لا نامت أعين الجبناء» .

إن اللصوص عندما يقومون بعماراتهم الجريئة للسلب والنهب لا يأخذون من الموت
أمانًا ، ولا ينالون من الحظ ضماناً ، بل يقدمون وهم يعرفون أن القتل والعقاب لهم



بالمرصاد ، ومع ذلك لا يهابون ، فكيف الحال إذا تشجع اللصوص ، ونحاف أصحاب الحقوق المهددة ، وساورتهم الهواجس على أموالهم وأولادهم ؟

كيف الحال إذا أقبلت الدول الضاربة الغاصبة ، وأدبرت الدول المضروبة المغصوبة !؟

كيف الحال إذا ضحى أصحاب العداون وكص أصحاب الإيمان !؟

إن القرآن يخاطب المؤمنين في صراحة مبينا لهم أن المغامرة قسمة عادلة بين المؤمنين والكافرين جميعاً في ميادين الكفاح والبقاء .

فأيما أمرى نكص على عقبيه مهزوماً فقد سقط من عين الله !!

يقول القرآن لأصحاب الحق : ﴿إِن يَمْسَكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهِ﴾ (١)

ويقول : ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَائِلُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلُمُونَ كَمَا تَأْلُمُونَ﴾ (٢)

فهل يفر من الألم والجرح والتعب والكدر في سبيل الله إلا مجرم دنيء .

﴿وَمَن يُولَهُمْ يَوْمَئِذٍ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِتَّةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (٣)

عندما تمشت مصر مع قواعد الشرف والنجدة والأخوة وقررت أن تحمل السلاح لإنقاذ الأرض المقدسة من إخوان القردة الذين يريدون انتهاكها ، تذاكر الناس أن البرلمان قرر بضعة ملايين من الجنسيات ، وأن جيش مصر سيواجه في فلسطين أقواماً أولى بأس شديد !!

قلت ليس في شيء من هذا ما يتواظم الناس فعله ؛ فإن مصر وحدتها تنفق ٦٠ مليوناً من الجنسيات على الدخان ، تلك الحماقة التي تحرق بين الأصابع والشفاه ، على غير فائدة . فهل كلفنا ميدان الشرف نصف ما كلفنا ميدان الترف ؟! كلا ..

ذاك في المال ، أما في الرجال فكم ستقديم من الشهداء الأبرار فداء لعقيدتنا وكرامتنا ؟ إن ضحايا هذا الجهاد النبيل - إن صحت تسميتهم ضحايا - لن يبلغوا أبداً نصف ما قدمته هذه البلاد لأوبئة الحمى أو الكولييرا في عام واحد . وشitan بين موت وموت !!

(٣) الأنفال : الآية ١٦ .

(٤) النساء : الآية ١٤٠ .

(١)آل عمران : الآية ١٤٠ .

فلنحمل موايثق الكرامة بعزة وشمم .. ولنأخذ سبيلنا الغذة في طليعة الأم ، ولندفع الشمن في سبيل الله طوعاً وإلا دفعناه في سبيل الشيطان على رغمنا ، ثم لا أجر لنا .

﴿ قُلْ لَّئِنْ يَنْفَعُكُمُ الْفَرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا * قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾^(٤) .

● ضريبة الدم والمال:

الرجل الذي يعيش لنفسه فقط ، لا ينتفع به وطن ، ولا تعزبه عقيدة ولا ينتصر به دين . ولا قيمة لإنسان يكرس حياته لإشباع شهواته ، وقضاء لباناته فإذا فرغ منها لم يهتم لشيء ، ولم يبال بعدها بفقد أو موجود !

مثل هذا المخلوق لا يساوى في ميزان الإسلام شيئاً ، ولا يستحق في الدنيا نصراً ولا في الآخرة أجراً .

لا قيمة للإنسان إلا إذا أمن بربه ودينه ، ولا قيمة لهذا الإيمان إلا إذا أرخص الإنسان في سبيله النفس والمال ، وقد بين لنا القرآن الكريم أن الرجل قد يحب أن يعيش آمناً في سربه ، وادعاً بين ذويه وأهله ، سعيداً في تجارتة ، أو مطمئناً في وظيفته ، مستقرراً في بيته ومستريحاً بين أولاده وزوجته . بيد أنه إذا دعا الداعي إلى الحرب وقرعت الآذان صيحات الجهاد فيجب أن ينسى الإنسان هذا كله ، وأن يذهب عنه فلا يفكر إلا في نصرة ربها وحماية دينه ، وإنقاد آلها ووطنه ... وإنما في الإسلام منه بريء :

﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالُ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةً تَخْشَونَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنَ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾^(٥) .

والأمة التي تستقبل أعباء الكفاح ، وتتضائق من مطالب الجهاد إنما تحفر لنفسها قبرها ، وتكتب على بنائها ذلاً لا ينتهي آخر الدهر !

(٤) التوبه : الآية ٢٤ .

(٥) الأحزاب : الآية ١٦ ، ١٧ .

وما ساد المسلمين إلا يوم أن قهروا نوازع الخوف ، وقتلوا بواعث القعود ، وعرفتهم ميادين الموت أبطالاً يردون الغمرات ويركبون الصعب .

وما طمع الطامعون فيهم إلا يوم أن أخلدوا إلى الأرض ، وأحبوا معيشة السلم ، وكرهوا أن يدفعوا ضرائب الدم والمال ، وهي ضرائب لابد منها لحماية الحق وصيانة الشرف ، ولا بد منها لمنع الحرب وتأييد السلام ، إن كرهنا الحرب وأحببنا السلام ...

إن كثيراً من المسلمين يحبون أن يعيشوا معيشة الراحة والهدوء والاستكانة برغم ما يهدد بلادهم من أخطار ، وما يكتنف مستقبلهم من ظلمات ، وحسبهم من الدنيا أن يبحثوا عن الطعام والكسوة ، فإذا وجدوا من ذلك ما يسد المعدة ويوارى السوأة فقد وجدوا أصول الحياة ، واستغنووا عن فضولها !

وتلك لعمرى أحقر حياة وأذلها ، وما يليق ذلك بأمة كريمة على نفسها ، بله أمة كريمة على الله ، أورثها كتابه ، وكلفها أن ت العمل به ، وأن تدع الناس إليه !

ألم يسمع هؤلاء أنباء الحروب العظيمة التي دارت رحاها في الغرب ؟ ألم يروا ضرب البسالة وألوان التضحية التي كان يبذلها كل فريق ؟

ألم يروا كيف أن جنوداً تنتحر ولا تستسلم للأسر ، وأن فرقاً من الفدائين كانت تقف حياتها على المهمات القاتلة ، فهم يدفعون أرواحهم ثمناً لها ، في غير وجل أو تردد .

فأى حياة ترجوها الشعوب الخواربة والكسولة إلى جانب هؤلاء ؟

وأى نصر يطلبها أهل الحق إذا أغلو حياتهم على حين يرخص أهل الباطل أنفسهم في سبيل ما يطلبون ؟

وإذا ضئنا على الله بضربيه الدم والمال ، مما طمعنا في نصرته أو أملنا في جنته ، وهو القائل :

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَآمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ (٦).

إن الإسلام دين فداء ودين استشهاد ، عرفه كذلك أسلافنا الأمجاد ؛ فأحرقوا أعصابهم وعظامهم في سبيل الله ، لا يبالون بالموت ! كيف وهو الذي يطلبون ، وفيه

(٦) التوبة : الآية ١١١.

يرغبون؟ فكان هذا الشعور الغامر هو الدعامة المكينة التي بناوا عليها تاريخهم ، وسجلوا فيه صحائف خلودهم ، فعاش من عاش سعيداً ، ومات من مات شهيداً .

أما الرجل الذي ينصرف إلى الدنيا ، ويترك دينه ينهزم في كل ميدان فلن ينال خير الدنيا ، ولن يذوق حلاوة الإيمان ، وقد قال النبي ﷺ : «لَنْ يُؤْمِنَ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ وَوَلَدِهِ وَوَالدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ» .

● بالنفس والتنفس:

عن شداد بن الهداد: أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فآمن به ثم قال له: أهاجر معك؟ - وكان من الأعراب البدو - فأوصى به النبي ﷺ بعض أصحابه وضمه إلى جنده... فكانت غزاة انتصر فيها المسلمون، وغنم النبي فيها شيئاً، فقسمه على من معه، وأرسل إلى الأعرابى نصيبه! فلما وصل إلى الأعرابى قال: ما هذا؟ قال: «حظك من الغنيمة قسمته لك»، قال: ما على هذا اتبعتك! ولكن اتبعتك على أن أرمى بسهم إلى ه هنا - وأشار إلى حلقه بيده - فأمومت، فأدخل الجنة.

فقال له الرسول ﷺ : «إِنْ تَصْدِقَ اللَّهَ يَصْدِقُكَ» . ثم نهضوا في قتال العدو .. وما لبثوا إلا قليلاً حتى جيء بالأعرابى محمولاً وقد أصابه سهم في حلقه حيث أشار بيده !! قال النبي ﷺ : «أَهُوَ هُوَ؟» قالوا: نعم .

قال: «صَدِقَ اللَّهُ ، فَصَدِيقَهُ» ثم كفن في جبة النبي ﷺ : ثم قدمه فصلى عليه . فكان مما ظهر من صلاته على الأعرابى القتيل :

«اللَّهُمَّ : هَذَا عَبْدُكَ خَرَجَ مُهَاجِرًا فِي سَبِيلِكَ ، فَقُتِلَ شَهِيدًا ، وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكَ شَهِيدٌ» !!

● دين الحق والقوه:

يخرج الجندي من وطنه حيث يعيش هادئاً آمناً ، إلى ساحة الميدان حيث يحمل من الأعباء ، ويتحمل من المخاطر ما يحتاج إلى بأس شديد ، وعزم جديد . وقد قدر الإسلام هذه المشقات حق قدرها ، وتکفل الله عز وجل لها بأضعف أجرها .

في الميدان الرحيب ، تهب الرياح السافية ، وتهيج العواصف العاتية ، وتتلى صدور المجاهدين بالغبار ، وتتراكم على ملامحهم وملابسهم وأقدامهم سحب التراب ، هذا كله لا ينساه الله للمجاهد المخلص الصبور .

فقد جاء عن النبي ﷺ : «لَا يجتمعان فِي جَوْفِ عَبْدٍ : غُبَارٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَدُخَانٌ جَهَنَّمَ» «مَا مِنْ رَجُلٍ يُغْبِرُ وَجْهَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا أَمْنَهُ دُخَانُ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَمَا مِنْ رَجُلٍ تُغْبِرُ قَدْمَاهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا أَمْنَ اللَّهُ قَدْمَهُ مِنَ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» .

وعندما يلقى الليل على الكون أستاره ، وينتدب من الجندي من يقوم بحراسة المعسكر ، ومراقبة الأعداء ، فإن يقظة الجندي الساهر على حياة إخوانه ، والتفاته لكل حركة ، واكتشافه لكل ريبة ، إنما هو ضرب من العبادة والتهدج يزيد على الصوم والصلوة ، وتلك أيضاً حسنة تدخل للمؤمن عند الله : «عَيْنَانِ لَا تَمْسِهِمَا النَّارُ : عَيْنُ بَكْتٍ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ، وَعَيْنُ بَاتٍ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» .

والجندي في الميدان يتعرض للقتل ، كما يعرض أعداء الله له ، ويقع في مأزق ضيقة ، ويواجه أزمات معنوية ، وتهيج في نفسه مشاعر القلق ، ويخاف تارة على نفسه ، وتارة على من معه .

والذى يواجه الموت في كل ساعة لا يستغرب منه أن تتوتر أعصابه ، وأن يشعر إهابه ، لكن حساب هذه العاطفة المتوجسة لا يضيع عند الله أبداً ، كما جاء على لسان رسول الله ﷺ : «مَا خَالَطَ قَلْبُ أَمْرِيَ رَهَبَجُ - وَجَلُ - فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا حَرَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ النَّارَ» .

وليست حياة المجاهد في ميادين القتال هي الحياة الرتيبة التي ألفناها ، ولا معيشته هي المعيشة السهلة المريحة التي عرفناها ، فإن التعب عنصر مشترك في كل ساعة من ساعاته . . .

عليه أن ينتظر تأخر ضروراته عن موعدها ، وأن يتحمل فراغ البطن ، وجفاف الحلق ، وطول السهر ، وكثرة السفر ، وحدوث المفاجآت ، ووقوع المضايقات .

غير أن شيئاً من هذا لا يجوز أن يخذل مؤمناً عن jihad ، ولا أن يؤخره عن أداء الواجب المكتوب عليه لنصرة الله ورسوله :

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلُهُمْ مِّنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغِبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظُلْمًا وَلَا نَصْبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنْالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلًا إِلَّا كُتُبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنْفِقُونَ نَفْقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًّا إِلَّا كُتُبَ لَهُمْ لِيَجْزِيهِمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ .

والمعارم والمصارع والجروح الخفيفة أو الغائرة ، أمور معتادة في الحرب ، فلا يجوز أن نجزع لها ، أو نتراجع تحت وطأتها ، وما يصيبنا من هذه الأحداث هو شهادة نلقى الله بها ، ووجوهنا نصرة ، ونفوسنا مستبشرة .

«مَنْ جُرَحَ جُرْحًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، أَوْ نُكِبَّ نَكْبَةً ، فَإِنَّهَا تَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَغْزَرِ مَا كَانَتْ ، لَوْنُهَا لَوْنُ الزَّعْفَرَانَ ، وَرِيحُهَا رِيحُ الْمِسْكِ» .

وفي الوقت الذي تشهد فيه على الفجار جوارحهم بما اقترفوا من آثام تكون جروح المجاهدين دلائل ناطقة بما تحملوا في ذات الله وما بذلوا في سبيل الله .

إن الإسلام لا ينشئ الحرب إنشاء ، إنما يلجم إلهاجاء ، والخرج يدفع عن نفسه كيف يشاء ، ويثير الحفاظ ، ويستصرخ الهمم ، ويحشد الجهد ، ويستنفذ آخر ما لدى المؤمنين من طاقة وحول ، ليمهد لنفسه ، ويزبح العقبات من طريقه ولذلك يقول الله لنبيه :

﴿فَقَاتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلِّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحْرَضَ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بِأَسْدَى الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا ﴿٨﴾ .

فلا غرو أن يجعل الله فترة الجهاد كلها سلسلة حسنات لصاحبها حتى يتعلم المسلمون الاستقتصار في رفع رايتهم ، وتدعيم مكانتهم ، وحتى تكون حياتهم إعداداً واستعداداً ، لا ينتهيان حتى ينتهي الليل والنهار ، فلا يضن أحد بنفقة ، أو يدخل بجهد ، أو ينكل عن تضحية . وكل غال في سبيل إعلاء الحق يهون .

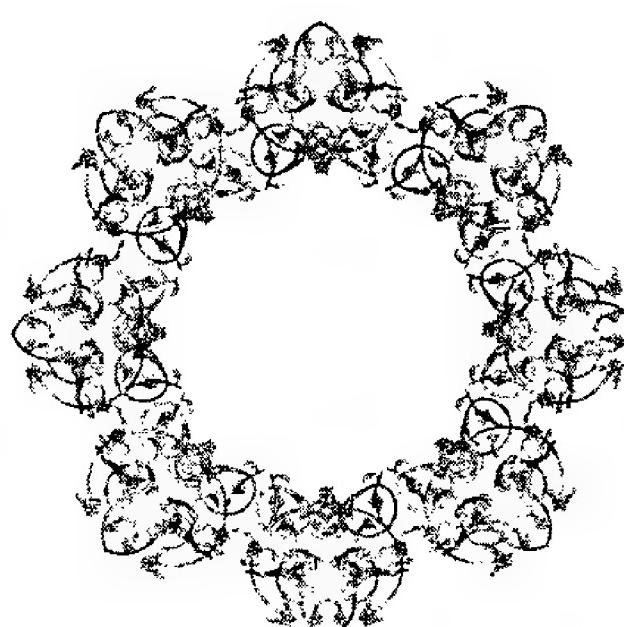
(٨) النساء : الآية ٨٤ .

(٧) التوبه : الآية ١٢١ ، ١٢٠ .

ساروا مع رسول الله ﷺ ليلة ساهرة يوم حنين ، فأطربوا في السير حتى كان عشية ، فحضرت صلاة الظهر فجاء فارس ، وقال : يا رسول الله ، إنني انطلقت بين أيديكم حتى طلعت فوق بعض الجبال ، فإذا أنا بهوازن على بكرة أبيهم - بظعنهم ونسائهم ونعمتهم - اجتمعوا إلى حنين . فتبسم الرسول ﷺ قائلاً : «تلك غنيمة المسلمين عدًا إن شاء الله !! ثم قال : من يحرسنا الليلة؟»؟ فقال أحد الفرسان : أنا يا رسول الله . قال : «اركب» ، فركب فرسه وجاء إلى الرسول مستعداً .

قال له الرسول ﷺ : «استقبل هذا الشعب حتى تكون في أعلىه ، ولا تغرن من قبلك الليلة» أى لا يخدعك أحد من العدو ، فلما أصبحنا خرج الرسول ﷺ إلى مصلاه فركع ركعتين ثم قال : «هل أحسستم بفارسكم؟» قالوا : لا ، ما شعرنا به .. فشوب بالصلاة ! فجعل الرسول ﷺ يصلى وهو يتلفت إلى الشعب حتى إذا قضى صلاته وسلم قال : «أبشروا .. فقد جاء فارسكم» ! فجعلنا ننظر إلى خلال الشجر في الشعب الكثيف ، فإذا به قد جاء حتى وقف بجوار الرسول ﷺ ، فقال : إنني انطلقت حتى كنت في أعلى هذا الشعب حيث أمرتني يا رسول الله ، فلما أصبحت استكشفت الشعبين كليهما ، فنظرت فلم أر أحداً .

قال له الرسول ﷺ : «هل نزلت الليلة؟» قال : لا .. إلا مصلينا أو قاضي حاجة ، فقال له الرسول ﷺ : «قد أوجبت - أى لنفسك - الجنة ، فلا عليك إلا تعمل عملاً بعدها» !!



● الشرق الأوسط.. بين حركات الأحرار وسياسة العبيد

إن سياسة الظلام تكتب خاتمتها مؤامرات الظلام . . . عندما ترامت إلينا الأنباء بأن القدر الغالب خط للملك عبد الله مصيره المشئوم ، رجعت أنا لنفسي أستحيى فيها ذكريات قريبة . . .

كنت بين اللاجئين إلى المنطقة المصرية من فلسطين ، و كنت أسمع أنباء القرى المهجورة ، وحنين الأهل المطرودين من ربوعها ، ورأيت يوماً رجلاً كبير السن ، مقطب الجبين ، على صفة وجهه غيموم ، يبدو أنها لا تزيد أن تنقشع ، واستدرجته في الحديث ، فعلمت أنه من أهل «اللد» وأن ابنه قتل في الحرب . . . ثم هز رأسه أسفًا وهو يقول : لقد رأيت بنفسي حادثة المسجد !! قلت : وما حادثة المسجد ؟ قال : لما خاننا الملك عبد الله ، وأمر جيشه بتسليم «اللد» و«الرمלה» لليهود . فوجئنا بصفحات العدو تقتتحم مدینتنا ، وانهارت مقاومتنا تحت وطأة اليأس والعجز ، وانحاز بعض مئات من الرجال والشباب إلى أحد المساجد ينتظرون النجدة ! . . . من الوهم !

قال الرجل : و كنت هارباً في بيتي القريب من المسجد فسمعت ضجة فزع ، خلال طلقات لا تنتهي من المدافع الرشاشة ، ورأيت المسجد يتتحول إلى مقبرة أو مجرزة . وفي الحرب - يا سيدى - لا ترك الجثث طويلاً ، حتى لا يسبب عفنها الأخطار للجيش المنتصر . . . فما هي إلا لحظات حتى رأيت البنزين يصب على رفات المئات من القتلى العرب . . . تحول الصبا والفتوة إلى . . . رماد تشم منه رائحة الشواء !

وسكت الرجل . . . وتكلمت دموعه !

هاجرت هذه الذكريات كلها في نفسي ، وأنا أسمع محطة الإذاعة تتعى الملك عبد الله ، عاهل العروبة والإسلام ، وسليل أسرة بنى هاشم الكرام ، وعميد بيت النبي عليه الصلاة والسلام ، حامي حمى الدين ، وناصر قضية فلسطين . . . إلى آخر ما ألف الناس سماعه من نفاق ودجل عندما يهلك عظيم من عظماء هذه الأيام .

لقد اغتيل «رازمارا» ، في إيران ، «والنقاراشي» في مصر ، «وعبد الله» في الأردن ، واغتيل كثير من الحكام الذين آذروا إنجلترا على حساب وطنهم الجريح . . .

ولهذه الاغتيالات عندي دلالة سيئة مؤسفة ! إنها قد تدل على حماسة أفراد ، بيد أنها دليل كذلك على بلادة الشعوب وخمولها !

وقد تستغرب هذا الوصف ، ولكن المقارنة المجردة تشهد له وتنطق بصدقه ؛ إن الملك عبد الله ألغى البرلمان الأردني بجلسية : النواب والشيوخ ، وسكت الشعب وهو يرى مستقبله المبهم ، تلعب به أيد لا أمانة لها .

أما «لويس السادس عشر» ملك فرنسا ، فما إن أراد أن ينكر للنظام الدستوري ، ويؤلم مع الشعب المطالب به ، حتى ألقى الشعب القبض عليه وقدمه للمحاكمة ، فلما ثبتت عليه جريمة الخيانة للشعب وحقوقه ، وضع عنقه تحت السكين ، فاجتثته واجتثت معه المظالم المتوقعة .

وهكذا قال القضاء كلمته ، ولم يحاول فرد هناك أن يغتال الملك خفية . أما الشرق المسكين فإن أوزار الاستعمار الداخلي والخارجي تنوء بكلكلها عليه وهو يتاؤه في صمت . ووددت لو لم يقتل الملك عبد الله غيلة ، وأن يقدم أمام محكمة شعبية ، تتولى حسابه حساباً دقيقاً على تصرفاته التي يزعم أعداؤه أنها سبب قتل ألف من العرب والمسلمين ، ومن الجيش المصري المكافح لتحرير فلسطين .

ويوم يقول القضاء العادل كلمته فتستريح ضمائر الأحرار ، وينسل من بلاد الإسلام عارٌ عار .

● طواغيت:

لا يسر قلبي شيء مثل أن أرى اختفاء الجبارين ، وفراغ أيديهم من أسباب البطش ووسائل الغلبة والقهر وانكشاف مواهبيهم بعد زوال الحكم وزوال ما يضفيه الحكم على ذويه من مواهب فارغة ! . وعلة هذه العاطفة شعورى العميق بحاجة الشعوب الشرقية إلى حكومات لا تعطيها حقوقها فحسب ، بل حكومات تسرف في ذلك إلى حد تدليل الشعب وإشعاره النهاية القصوى في الحرية والسماحة ، فإن الحكومات المستبدة القاسية ، المستهينة بالدماء المستباحة للحربيات ، هي في الحقيقة الجسر الممهد الوحيد الذي يعبر عليه الإذلال الأجنبي والاستعمار الخارجي ليجد أمامه ظهوراً أو جعلتها سياط الإذلال الداخلي فأصبحت ذيولاً ورعوساً مرت على الانحناء فأصبحت خفيضة منكسرة !

إن دماء الشعوب غالبة ، فالويل لمن يرخصها من الحكام ، والويل لمن يفرط فيها من المحكومين ، وعلى دعاة النهضات الشرقية المعاصرة أن يفقهوا هذه الحقيقة ، وأن يفقهوا فيها الأجيال القادمة ، لقد مضى - ولعله إلى غير رجعة - العصر الذي كان

الحكام فيه يوطدون سلطانهم بالدماء الغزيرة دون أن يخشوا حساباً ولا عقاباً ، وفي سقوط النقراشي باشا^(٩) درس لمن يستفيدون من الدروس القاسية .

هذا رجل توالى أخطاؤه وتوالى السكوت عنها ، حتى إذا حاول بالدماء أن يطيل أجل حكمه ، قضم الشعب أجله ، ونفضت الأيدي من التراب الذى أهالته على الصحايا لتهليل التراب كذلك على نوع من الحكم بغىض .

إن النفس البارد الذى حاول إطفاء الشعلة الأولى لا يحمل وزر إخمادها وحدها فحسب ، ولكنه يبوء بإثماها وإثم الجماهير التى كانت ستتشتعل بها ، وإثم الأمة المكبوة العاطفة التى تريد أن ينفجر مرجلها ليقوى بنيرانه الغاصبين ، ويدخل الرهبة فى أفئدة المعذين .

وكم أود أن تشعر الحكومات السابقة واللاحقة شعوراً له بوعشه الصادقة أن بقاءهم فى الحكم عارية من الشعب ، إن شاء سكت عنها فبقوا ، وإن شاء استردها فسقطوا ، وأن الشعب هو الذى يؤدب حكامه المخطئين ، وليس هو الذى يتلقى لطميات الجبارين المسلطين .

● القاب:

كتب السلطان سليمان القانونى - خليفة المسلمين فى عهده - إلى ملك فرنسا الرسالة الآتية ، وكان الملك الفرنسي قد أرسل يستجدى به لهزائم أصابته فى حروبها . ونحن نورد مقتطفات من نص الرسالة ، ثم نعقب عليها ببيان وجهة نظر الدين فيما جاء فيها ؛ لنطهر الدين من لوثات بعض من حكموا باسمه ، فإن الشرق - وأغلب نهضاته على الدين - بحاجة إلى دروس متتابعة فى فقه الحكم ، وإلزام الحكام حدودهم المشروعة ، وهذا بعض ما جاء فى هذه الرسالة :

«سلطان المسلمين ، وملك الملوك ، ومانح الأكاليل للملوك العالم ، ظل الله على الأرض ، باشاده ، سلطان البحر الأبيض والأسود ، وببلاد الروملى والأناضول ، وقرصان ، وأرزوم ، وديار بكر وكردستان وأذربیجان والعجم ، ودمشق وحلب ومصر ، ومكة والمدينة والقدس ، وسائر بلاد العرب واليمن وإیالات شتى فتحها سلفاؤنا العظام ، وأجدادنا الفخام بقواتهم الظافرة ، وكثير من البلاد التى أخضعتها عظمتي الملكية بسيفى

(٩) رئيس حكومة مستبدة ، زور الانتخاب على نطاق واسع ، وفتح المعتقلات لألوف الأحرار .

الساطع أنا ابن السلطان سليم بن السلطان بايزيد شاه السلطان سليمان خان أكتب إليك يا فرنسيس حاكم بلاد فرنسا ، أن الكتاب الذي طرحته أمام سدتي الملكية ملحاً الملوك على يد فرنكيان المستحق لثقتك ، والألفاظ الشفاهية التي حملها إلى قد علمت منها أن العدو مستحكم من ملكتك حتى صرت له أسيراً ، وتطلب إنقاذه ، فجميع ما قلته عرض على اعتاب كرسى عظمتى التى هى ملحاً العالم ، وقد فهمت شرحه وأحاط علمي الشريف به . . . » إلخ .

هذا مطلع الرسالة التى نريد التعليق عليها ، أرأيت إلى ما تضمنته من ألقاب الحلال والرفعة والتسامى ، إنه هو الذى ستف عنده لنقول حكم الله فيه ! فإننا إذا أبصرنا مواضع الخطأ فى الماضى عرفنا كيف تتجنب الانزلاق إليها فى المستقبل .

* * *

هذه الرسالة لم تقلها روح الإسلام ، بل سطرت حروفها مظاهر الجبروت التى أحاطت بالحكام فى القرون الأولى ! وبذل الإسلام جهود الجبابرة ؛ ليجرد أدوات الحكم منها ، ويعلم الأم كيف تتمرد بين الحين والحين عليها .

وليس للسلطان سليمان ولا لغيره من الحكام أن يضيفوا إلى أسمائهم هذه المجموعة الفريدة من الألقاب المفتعلة والأوصاف التى أخذ أكثرها من الصفات الإلهية المقدسة ، وقد ورد عن الرسول ﷺ أنه - لما بلغته ألقاب كسرى ملك فارس - وصف صاحبها بأنه أخنون رجل عند الله !

وعندما كانت سلطة الحق الإلهى المزعوم تسند الحكام شرقاً وغرباً ، كان أبو بكر الخليفة الأول للإسلام يقول : «أيها الناس ، قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن رأيتم خيراً فأعينوني ، وإن رأيتم شراً فقوموني» .

هذه الديقراطية الواضحة جعلت عمر - مقوض الإمبراطوريات الشامخة - يسمى نفسه أمير المؤمنين فقط ، ويرغب عن كل إصافة أخرى تعطى اسمه فضل جبروت على الناس !

وهذا التجدد من ألقاب القيادة ، ومظاهر الأبهة قصد به الإسلام أن يجعل من الحكام رجالاً يؤخذ منه ويرد عليه ، وتنقد تصرفاته كلها بما كان منها صواباً أقر ، وما كان منها خطأ رد عليه ولا كرامة ، أما وصف أى إنسان من البشر بأنه «ظل الله فى أرضه» فوصف عجيب حقاً !

إن كان يراد به تمثيل العدالة الإلهية في الأرض ، فإن الرجل في أسرته ، والعمدة في قريته ، والأمّور في مركزه ، والمدير في مدینته ، كلهم ظلال الله في الأرض ، وفي هذا التعبير ضربٌ من الشعر والخيال مقصود ، أما إن كان ظل الله في الأرض رجلاً يمثل الألوهية بين الناس ، فهو يفعل ما يشاء ، ويستعبد من يشاء ، ويتحذّل الحكم ذريعة لهذه السيادة السقيمة ، فإن هذا الظل يجب أن يتقلص ؛ فليس الناس عبيداً إلا لرب واحد : ﴿إِلَهٌ مُّعَذَّبٌ إِلَهٌ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾^(١٠) .

وقد تلقّب سلاطين الأتراك بما شاءوا من أمارات الجاه وشارات المجد ولم ينجلوا من الاتصاف بأنّهم ظلال الله في الأرض - كما ترى في هذه الرسالة - مع أن تاريخ الاستبداد السياسي يحفظ في طياته صوراً مخزية لهذه الظلال المريبة ، ويوحى بأن هذه الظلال كانت لمردة وشياطين !! إن صلة الحاكم بالله لا تزيد عن صلته جل وعلا بأى عبد من عباده ، وقد روى أن رجلاً جاء إلى أبي بكر يناديه : يا خليفة الله ! فغضّب أبو بكر ، ولم ير نفسه أهلاً لهذه الإضافة الخطيرة ، مع أن الخلافة عن الله أقرب إلى الحقيقة الإنسانية العامة من - ظل الله - التي ينحلها الحكام المستبدون لأنفسهم ! إذ إن البشر جميعاً استخلفهم الله مثلاً لعمارة الأرض وتنظيم شؤونها !

وقد استكثر أبو بكر على نفسه هذه الصفة خشية أن ترمز إلى معنى من معانى القداسة المكذوبة ، وهو أعرف الناس بأنّ الحاكم رجل من الشعب ، اختاره عن رضا ليتولى أمره ، وأنه إذا شاء أبقاءه ، وإذا شاء أقصاه ، وأن الشعب يملّك عليه كل شيء ولا يملك هو للشعب أى شيء .

أما نظرية العصور المظلمة في فهم الحكم والحاكم فقد رفضها الدين رفضاً حاسماً ، ولكن هذا لم يمنع بعض السلاطين أن يعيدوا حرافة الحكم الفردي ، وأن ينعتوا أنفسهم بما قرأت من نعوت لا يقرها الدين .

● حقيقة الألقاب :

الألقاب العلمية الدالة على مدى نصيب صاحبها من الثقافة ، والألقاب العسكرية الدالة على مدى استعداد صاحبها للكفاح ، والألقاب الإدارية الدالة على قدرة

(١٠) النمل : الآية ٦٣ .

صاحبها فى التنظيم والتوزيع .. هذه كلها ألقاب لا يرى الإسلام فى حملها حرجاً؛ لأنها ألقاب العمل والكفاية . وكل إنسان يكلف أن يكون عاملأً وكفءاً ، أما الألقاب الفارغة من هذه المعانى فهى التى اعتبرها الدين شارات نبل مكذوب وعظمة جوفاء .

وقد نهى نبى الإسلام أن يقول السيد خادمه يا عبدى ، أو أن يقول الخادم لسيده : يا ربى ، أو أن يناديه بأى لفظ فيه ضعة العبيد أمام مولاهم الأعلى ، فإن الناس - على اختلاف أقدارهم - إخوة على أية حال .

وفراعين مصر القدماء اعتبروا أنفسهم من سلالة الآلهة ؛ ليفرضوا على الشعب إرادة لا يعقب عليها ، فانظر كيف يقول شوقي فى المقارنة بين العصر القديم والعصر الحديث فى قصيده التى يخاطب بها توت عنخ آمون :

«فؤاد» أعز بالدستور دنيا وأعظم منك بالإسلام دينا
ذلك لأن الدساتير كفلت حقوق الإنسان ، وأمنت حريات الشعوب ، ووازنـت بين
السلطـات المختلفة ما يصون المصلحة العامة .

والدولـ التي نضـجـتـ كـرامـتهاـ السـيـاسـيةـ أـلـغـتـ الـأـلـقـابـ إـلـغـاءـ تـامـاـ ،ـ أوـ أـبـقـتهاـ لـتـشـهـدـ
بعـينـهاـ كـيفـ زـالـ عـنـهاـ سـلـطـانـهاـ القـدـيمـ ،ـ فـ «ـلـورـدـاتـ»ـ إـنـجـلـتراـ يـحـكـمـ عـلـيـهـمـ «ـمـسـتـرـ»ـ فـلاـ
يـشـعـرـونـ بـغـضـاضـةـ ،ـ وـلـاـ يـشـعـرـ نـحـوـهـمـ بـإـذـلـالـ وـكـرـهـ .ـ أـمـاـ فـيـ الشـرـقـ فـلـاـ تـزـالـ الـأـلـقـابـ
تـحـكـمـ عـلـىـ النـاسـ بـالـهـوـانـ ،ـ وـتـحـكـمـ عـلـىـ أـصـحـابـهـاـ بـالـغـرـورـ .ـ وـمـنـ الـوـاجـبـ فـكـ أـصـارـهاـ
وـمـحـوـ أـثـارـهـاـ .ـ

ورحم الله شوقي إذ يقول :

ومن خدع السياسة أن تغروا
بألقاب الإمارة وهي رق
كم مالت من المصلوب عنق
وكم صيد بذاك من ذليل

● من تاريخ الكباء:

مدحـ الحـكـامـ وـالـتـغـنـىـ بـمـآـثـرـهـمـ يـشـغلـ قـسـمـاـ ضـخـمـاـ مـنـ صـحـائـفـ الـأـدـبـ الـعـرـبـىـ ،ـ
ويـعـدـ سـلـمـ الـارتـقاءـ الـأـولـ لـلـشـعـراءـ الـذـيـنـ يـرـيـدـونـ الشـهـرـةـ وـالـظـهـورـ .ـ

ومدحـ الـأـمـرـاءـ لـيـسـ سـنـةـ إـسـلـامـيـةـ ،ـ بلـ تـقـالـيدـ إـسـلـامـ فـيـ ذـلـكـ تـتـبعـ بـالـنـقـدـ
وـالـتـمـحـيـصـ فـإـنـ كـانـتـ عـدـلـاـ وـخـيـرـاـ أـيـدـتـ بـالـعـونـ الصـحـيـحـ لـاـ بـالـمـلـقـ الـكـاذـبـ ،ـ وـإـنـ

كانت جوراً وشروعًا فندت بالقول الصريح ، والرأي النصيح ، وهذا ضرب من الجهد الأدبي والشجاعة المعنوية ، لا قيام للحق إلا بهما .

وقد روى أن وفدياً جاء إلى النبي ﷺ يقول له : أنت سيدنا ، فقال لهم : «السيد الله» قالوا : وأفضلنا فضلاً وأعظمنا طولاً ، فقال : «قولوا قولكم ، أو بعض قولكم ، ولا يستجربنكم الشيطان» .

وروى كذلك : أن النبي ﷺ أمر بأن يحثى التراب في وجوه المذاهين .

ومع ذلك فإن سجلات الأدب القديم تضم بين جوانبها صوراً لرجال استووا على الأرائك الفخمة بين أيديهم السعاة والمحجوب والسيافة ، يدلل إليهم شاعر ذرب اللسان ، لا يزال يهتف بالقول ، ويصرخ بالنظم ، ويهيم في أودية الخيال ، وينسب إلى مدوحه فنوناً من المواهب تسلكه مع أبطال الأساطير ، ثم ترمي إلى هذا الدجال بدلة من الذهب ، ينصرف بها ثمناً حراماً لأكاذيبه ، وتشيع بعدها بين الناس قالة السوء التي ألفها على أنها مدح لأحد الساسة أو القادة ، ويسلط حجاب كثيف على حقائق الحياة التي يعيش فيها الولاة ، وتعيش فيها الشعوب وينتهي الأمر !

وتتكرر هذه المأساة كما تتكرر مناظر ألف ليلة وهي تقصد أخبار الزمان ، أو كما تتكرر مواقف عنترة وهو ينال الفرسان ، إلا أن هذا الإيغال في الخيال استيقظت بعده الأمة الإسلامية على طبول الأعداء تحوس خلال الديار ، وتهدم آخر ما بقي من البناء المنهاج !

من أين كان يدفع النساء والحكام هذه الأعطية السخية ألوفاً من الدنانير تتبعها ألوف ، إنه من مال الشعب .. والشعوب لا تدفع المال في أبهة شخص وزخارفه فهذا ما يمنعه العقل والنقل .

لكن المترفين من الحكام الأولين أبوا إلا أن يعيشوا في هذا المخطوط وإلا أن يحيطوا أنفسهم بالأفakin الذين حبسوا أفكارهم ، ووقفوا جهودهم على تدعيم سلطان الجبابرة ، وتجاهل أحوال الأمم ، وبلغ العهر بأحد هؤلاء المتملقين أن يقول خليفة فاطمة :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار
فهل ستسمح شعوب الشرق يا ترى بعودة هذه الحال ؟ وهل ستسمع للأفakin من حملة الأقلام وهم يهدون لها ؟

وما دمنا في حديث الملقب والزلفي للرؤساء والكباراء ، فلا يجوز أن تنسى ظاهرة شبيعة لوحظت على فريق من كبار شيوخ الدين ، فإن إطراهم للحكام ومسارعتهم المريبة إلى تهنتهم في كل مناسبة ، وتعزيتهم في كل مصيبة بأسلوب يكتبه الأرقاء والأتباع ، ويتنزه عنه الرجال الأحرار ، هذه الظاهرة التي تدل على داء عياء بالقلوب ، قد غضت من شأن الدين ومنزلته لدى العامة .

وقد تذكرة الناس أن شيخاً كبيراً من جلة العلماء - كما يقولون - كان في المرض الذي يُسقط عنه الصلاة ، لا ينسى أداء مراسم الوثنية السياسية على حين كان الدكتور طه حسين - و موقفه من الدين معروف - يتكلم بحذر ويرسل مدائحة بقدر !!

هذا في الوقت الذي شطبته فيه ميزانية الأزهر ، وأرسل المال سيراً غدقًا إلى وزارة المعارف التي يشرف عليها «طه حسين» وإذا كان سكوت العلماء عن فسق الحكام جريمة ، فإن تندح العلماء للحكام الفسقة كفران مبين .

والمثل العالى لشيوخ الأزهر القائمين بحق الله ورسوله نأخذه من مسلك الشيخ «محمد عبده» ، فعندما كان عبيد الولاء للأتراء يخونون الإسلام ويساندون الظلم ، انضم هذا الشيخ الجليل إلى الشعب مطالبًا بدستور يقيـد سلطة الحكم الفردي ويضغطـها في حدود ما شرع الله ، وقاد الثورة التي اشتعلت لذلك ولاقيـ من جرائـها ما لاـقـى .

وإننا لنقرأ ما كتبـ الشيخ «محمد عبده» في نـقد الأوضاعـ المعاصرـةـ ، ثم نـقرأ ما يـهـرفـ بهـ مـخـرـفةـ الشـيـوخـ فـيـ وـصـفـ أحـوالـناـ الـحـاضـرـةـ فـنـجـدـ العـجـبـ العـجـابـ ، وـنـحـسـ أـنـاـ هـبـطـنـاـ مـنـ الـقـمـةـ إـلـىـ الـقـاعـ .

وفي شهر يونيو سنة ١٩٠٢ أقيـمت بعضـ الـاحـتفـالـاتـ لـنـاسـيـةـ الذـكـرـيـ المـؤـويـةـ عـلـىـ تـأـسـيـسـ مـحـمـدـ عـلـىـ الدـوـلـةـ الـمـصـرـيـةـ ، فـكـتـبـ الشـيـوخـ «ـمـحـمـدـ عـبـدـهـ»ـ فـيـ الجـزـءـ الـخـامـسـ مـنـ الـمـجـلـدـ الـخـامـسـ مـنـ الـمـنـارـ الصـادـرـ فـيـ ٧ـ يـوـنـيـهـ سـنـةـ ١٩٠٢ـ تـحـتـ عـنـوانـ «ـأـثـارـ مـحـمـدـ عـلـىـ فـيـ مـصـرـ»ـ :

لغـطـ النـاسـ هـذـهـ الـأـيـامـ فـيـ مـحـمـدـ عـلـىـ ...ـ وـمـالـهـ مـنـ الـأـثـارـ فـيـ مـصـرـ وـالـأـفـضـالـ عـلـىـ أـهـلـهـ ،ـ وـأـكـثـرـ الـجـرـائـدـ مـنـ الـخـوـضـ فـيـ ذـلـكـ ،ـ وـالـلـهـ أـعـلـمـ مـاـذـاـ بـعـثـ الـمـادـحـ عـلـىـ الإـطـراءـ ،ـ وـمـاـذـاـ حـمـلـ الـقـادـحـ عـلـىـ الـهـجـاءـ .

غيرـ أنهـ لمـ يـبـحـثـ باـحـثـ فـيـ حـالـةـ مـصـرـ التـيـ وـجـدـهـ عـلـيـهـ مـحـمـدـ عـلـىـ وـمـاـ كـانـ تصـيـرـ الـبـلـادـ إـلـيـهـ لـوـ بـقـيـتـ ،ـ وـمـاـ نـشـأـ مـنـ مـحـوـهـاـ وـاستـبـدـالـ غـيرـهـ بـهـاـ عـلـىـ يـدـ

محمد على .. أقول الآن شيئاً في ذلك ينتفع به من عساه أن ينتفع .. ويندفع به من الوهم ما ربما يندفع ..

ما الذي صنعه محمد على؟ لم يستطع أن يحيى ، ولكن استطاع أن يميت ؛ كان معظم قوة الجيش معه .. وكان صاحب حيلة بمقتضى الفطرة ، فأخذ يستعين بالجيش وبن يستميله من الأحزاب على إعدام كل رأس من خصومه ، ثم يعود بقوة الجيش وبحزب آخر على من كان معه أولاً وأعانه على الخصم الزائل ، فيتحقق وهذا حتى إذا سحقت الأحزاب القوية ، وجه عنایته إلى رؤساء البيوت الرفيعة ، فلم يدع فيها رأساً يستقر فيه ضمير «أنا» ... واتخذ من المحافظة على الأمان سبيلًا لجمع السلاح من الأهلين ، وتكرر ذلك منه مراراً حتى فسد بأس الأهلين ، وزالت ملكة الشجاعة فيهم . وأجهز على ما بقى في البلاد من حياة في أنفس بعض أفرادها فلم يبق في البلاد رأساً يعرف نفسه حتى خلعه من بدنـه أو نفاه مع بقية بلده إلى السودان فهلك فيه .

أخذ يرفع الأسافل .. ويعليهم في البلاد والقرى كأنه يحن لشبه فيه ورثه عن أصله الكريم! حتى انحط الكرام وساد اللئام ، ولم يبق في البلاد إلا آلات له يستعملها في جباية الأموال ، وجمع العساكر بأية طريقة ؛ فتحقق بذلك جميع عناصر الحياة الطيبة من رأى وعزى واستقلال نفس ، ليصير البلاد المصرية جميعها إقطاعاً واحداً له ولأولاده بعد إقطاعات كانت لأمراء عدة .

ماذا صنع بعد ذلك؟ اشرأبت نفسه لأن يكون ملكاً غير تابع للسلطان العثماني ، فجعل من العدة لذلك أن يستعين بالأجانب من الأوروبيين ، فأوسع لهم في المجاملة ، وزاد لهم في الامتياز ، حتى صار كل صعلوك منهم لا يملك قوت يومه ملكاً من الملوك في بلادنا ، يفعل ما يشاء ولا يُسأل عما يفعل ، وصغرت نفوس الأهالي بين أيدي الأجانب بقوة الحاكم ، وتنزع الأجنبي بحقوق الوطنى التي حرم منها ، وانقلب الوطني غريباً في داره ، غير مطمئن في قراره ، فاجتمع على سكان البلاد المصرية ذلان : ذل ضربته الحكومة الاستبدادية المطلقة ، وذل سامهم الأجنبي إيه ليصل إلى ما يريدونهم .. غير واقف عند حد ، أو مردود إلى شريعة .

لا يستحب بعض الأحداث من أن يقول : إن محمد على جعل من جدران سلطانه بناء من الدين .. أى دين كان دعامة للسلطان محمد على ؟ دين التحصيل ؟ دين الكرباج .. ؟ دين من لا دين له إلا ما يهواه ويريد .. ؟ وإنما فليقل لنا أحد من الناس .. أى عمل من أعماله ظهرت فيه رائحة للدين الإسلامي الجليل ؟

لا أظن أن أحداً يرتاب - بعد عرض تاريخ محمد على على بصيرته - أن هذا الرجل كان تاجراً زارعاً، وجندياً باسلاً، ومستبداً ماهراً، ولكنه كان لمصر قاهراً.. ولحياتها الحقيقية معدماً.. وكل ما نراه الآن فيها مما يسمى حياة فهو من أثر غيره، متعنا الله بخирه، وحمانا من شره ، والسلام .

● شرق جديد:

توزعت أطماء الاستعمار أكثر أيام الشرق ، وسقطت شعوبه فريسة سهلة أو غنية باردة في مخالب الغرب الحديث ، وفتحت أعيننا - نحن أبناء الجيل الحاضر - فإذا بميزان العالم يميل عن مستوى العادل ، وإذا بكفتنا تطيش في نواح شتى ، وإذا باللغام تتجه إليهم سيراً دافقاً ، والمغارة تتجه إلينا موجاً خانقاً ، حتى وهم جمهور كبير من أبناءنا أننا خلقنا لنكون في المنزلة الثانية أبداً ، وأن منزلة الشرق من الغرب هي منزلة التابع من المتبع .

وهذا خطأ واضح يهدمه التاريخ من أساسه ، والذين وقعوا فيه معذورون لأن عمر الإنسان قصير إلى جانب عمر الدنيا ، وما يشهده من حوادثها ليس إلا فصلاً ضئيلاً من رواية طويلة الفصول ، ضاربة في أغوار الماضي البعيد ، وقد شهد النظارة في هذا العصر فصلاً أخذ الغرب فيه بخناق الشرق ، وجثم على صدره ، وارتقت الستارة أمامهم عن هذا المشهد المثير ، وتكررت صوره لأعينهم المذهولة بروعة المفاجأة ، فحسبوا أن الرواية كلها هذا الفصل الواحد ، وأن التاريخ كله هذه الحقبة الميتة ، وأن الشرق كله هذا المشهد الخزي ، وأن الغرب كله هذا الخصم المتثبت العنيف .

ولو أعدنا عرض الشريط التاريخي لبضعة قرون خلت لوجدنا وراء سواحل «المانش» قبائل السكسون الإنجليز يستغلون بصيد السمك ، ولوجدنا تحتهم قليلاً قبائل الغالة الفرنسيين يستغلون بمطاردة الخنازير ، ولوجدنا الشرق في هذه الآونة يوج بمظاهر العمران البشري المحالف بالنشاط والمقدرة .

ولستا نبغى من سوق هذا الكلام إلا أن نجدد الخرافية الشائعة من جراء قيام الغرب الآن بدور الحكم ، والشرق بدور المحكوم ، فما كان من طبيعة هذا أن يحكم ، ولا من طبيعة هذا أن يُحكم . ولكنها أسباب النهوض والتغير تجتمع هنا وهناك فتؤدي نتائجها الحاسمة ، وقد مر على الغرب حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً ، وعانت شعوبه

من ضوابط الاستعمار الداخلى والخارجى مثل ما نعانى الأن أو أشد ، ودخلت فى أطوار من التجارب المرة حتى حصلت على ما حصلت عليه من حریات وحقوق !

وها نحن أولاء نستأنف سعينا اللاذق ، لا لنذل الغرب كما استذلنا ! بل لنبني عالماً جديداً من الأم المتكافئة في دمائها وحقوقها ، والمساوية في سيادتها وكرامتها .. وسيأبى تجار الحروب وطغاة الاستعمار أن يخضعوا لهذا المنطق الحكيم .. ويستكثرون علينا أن نعيش في بلادنا أحراً ، ثم يستخدمون وسائل التفوق التي أتيحت لهم لردننا إلى الوراء كلما خططونا إلى الأمام .

والطريقة الوحيدة التي يتبعن علينا الأخذ بها ، أن نوسع آفاق اليقظة العقلية والاجتماعية عندنا ، حتى لا يجد الاستعمار لنفسه مكاناً بيننا ، فإن الاستعمار يقوم على عملية حسابية يسيرة ، إذا كانت أرباحه من بلد ما أكثر من خسائره بقى فيه ، وإذا كانت خسائره أكثر من أرباحه فـ !! ويوم تصاب الأم الغربية بنكسة اقتصادية من بقائها في الشرق تنسحب منه في لمح البصر .

وخامات الشرق الوفيرة ، ومنابعه البكر ، وتجارتة الواسعة ، نكتبها الغفوة العقلية والفووضى الاجتماعية فشلت أيدي أهلها من الانتفاع بها ، وحولت مجراتها الغنى ليصب بعيداً عنها ، وعسكرت جيوش الاحتلال لتمنع بوادر الصحو المادى والأدبى من أن تمهد للوطنيين طريق العودة إلى حكم بلادهم ومنع اللصوصية العالمية من ابتزاز مواردها !

وعلينا أن نستميت - إذا شئنا الحياة - في التمسك بهذه اليقظة العقلية والاجتماعية ، وفي إلحاقي ما يمكن إلحاقيه من الخسائر المادية والأدبية بالمعتدين على حاضرنا ومستقبلنا ، وبهذا يقصر أجل الاستعمار الغاشم ، ويقتصر ظله إلى الأبد من أوطاننا .

إن المستعمرين إذا ضحكوا في بلادنا كثيراً وبكوا قليلاً ، فلن يخرجوا أبداً ، أما إذا تجشموا من الضحايا ، وتکبدوا من الخسائر ما يجعلهم يبكون كثيراً ويضحكون قليلاً ، فسيذبحون عند أول فرصة سانحة .

وكيف السبيل إلى ذلك ؟ أهى المظاهرات الهازلة ، أو الثورات الفاشلة ؟ كلاً ! الأمر أعمق من ذلك وأخطر ، فإن أحوال الشرق النفسية والاجتماعية والاقتصادية والحكومية تحتاج إلى تغيير شامل لتم اليقظة التي أشرنا إليها آنفاً . وليس هذا التغيير سهلاً فإن الأيدي الحمراء وحدها هي التي تصنعه ! الأيدي التي عناها الشاعر يوم قال :

للحرية الحمراء بباب بكل يد مضرجة يدق

● من سنن الحياة:

رب زارع حاصل في هذه الحياة ! وعندما يعن الماء النظر في أحداث التاريخ يروعه مقدار ما يترك السابقون للاحقين ، وما يجني الأخلف من أعمال الأسلاف ، يستوي في ذلك الخير والشر والماديات والمعنويات ، ويبدو أن الإنسان يولد وهو يحمل أثقالاً من تبعات آبائه ، كما يولد ليقتطف الكثير من ثمرات جهودهم ونتائج أعمالهم :

هناك رجال يستشهدون في الدعوة إلى الله ومحاربة الفتنة ، ويحوطون غرس الإيمان في هذه الدنيا بسياج من عظامهم ودمائهم .

وهناك أحفاد يوجدون ليروثوا الإيمان سهلاً لا ينفعه اضطهاد ولا يطارده إلحاد !
وهناك أبطال جاهدوا الظلم طوال حياتهم ، وخطوا بأنفسهم مصارع الجبارين ،
وحرروا بأيديهم قبور المتكبرين ، ولم يدع لهم هذا الجهد المتواصل فرصة يستريحون فيها ساعة في نهار .

وهناك لهؤلاء أولاد ورثوا الوطن محرراً ، والعدل مقرراً ، والدنيا مقبلة لا مدبرة ،
والمستقبل باسم لا غائماً !

وكم من طغاة أذلوا الشعوب وداسوا حقوقها ! فلما استيقظت الشعوب
لتؤديهم .. لم تجدهم لأنهم بادوا ووجدت مكانهم أبناءهم .. فقتلتهم بظالم
الآباء ومظلومهم المنتظرة !!

تلك طبيعة الحياة فرضت على الناس فرضاً ، وليت كل من زرع بنفسه حصد
بنفسه ، ولكن سنة الوجود على غير ما نهوى ، والتركتات التي يزجيها الأولون للآخرين
تبقي في عنق من يطقوتها ما داموا راضين بها مقيمين عليها ، ألم تر أن القرآن عير
اليهود المعاصرين للنبي ﷺ بما اقترف أجدادهم المعاصرؤن لموسى ؟

فمن استطاع الفكاك من مخلفات السابقين الأئمة فلا يتکاسل عن النجدة ...
ومن استطاع الانتفاع بآثارهم الطيبة فهو خير ساقه القدر إليه ، وقبيل أن يكون الماء من
عنهم الشاعر الحكيم :

رب بان لها دام ، وجموع لمشت ، ومحسن لحسن

● الأسباب والمسبيات:

جمهور المسلمين يرتاب في هذه الحقيقة المقررة ارتياها شديداً ، حقيقة ارتباط الأسباب بالأسباب ، ووقوع النتائج عقب انتظام المقدمات ، وتصور العامة يتسع لإدراك أن أسباب الهزيمة قد تتوافر كلها ثم لا تقع الهزيمة ! وأن النصر قد يتم هكذا اتفاقاً من غير دواع سابقة !

وحجتهم في ذلك أن الأمور بإرادة الله ، وأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن . ومعنى هذا الكلام في هذا السياق أن إرادة الله وقدرته تتعلقان بالمستحيل ! ولم يقل بهذا عاقل ، ولا نطق بهذا عالم من علماء المسلمين .

إن عموم الإرادة مخصوص بما يوافق الحكمة ، وإطلاق المشيئة مقيد بما وضع الله لهذا العالم من أنظمة وقوانين ، ومن العبر أن نطالب السماء بين الحين والحين أن تفعل ما لا يجوز فعله ، أو تتدخل في شؤون العالم بما يحيل نظمها فوضى ، واتساقه اختلالاً . علينا أن نعرف للأمور مداخلها الصحيحة ، وأن نأتي البيوت من أبوابها ، وقد جعل الله عز وجل لإرادته العليا مفاتيح معينة ثم ألقاها بين أيدي الإنسان ، فمن أراد النبات فمفاتحه الزراعة ، ومن أراد النسل فمفاتحه الزواج ، وهكذا يوجد لكل هدف منشود سبب مقصود ، وقد تكون للغاية الواحدة عدة طرق ، فيجب الأخذ بها جميعاً ، إذ يكون السبب الموصى من اقترانها كلها ، وقد تكون النتيجة المطلوبة قائمة على جملة أسباب بعضها في يدنا فلا بد من فعله ، وبعضها خارج عن طوقنا فهو متربوك لله ، كتقلبات الجو مثلاً للزراعة ، وما أشبه ذلك .

إن ارتباط الأسباب بالأسباب حقيقة ، يعتبر إغفالها حماقاً في التفكير ، وخطلاً(*) في التدبير . وقد تأخر المسلمون في ميادين شتى ، لأنهم لم يفهوا هذه الحقيقة التي ترتكز عليها شؤون الحياة ويدور محورها أبداً .

وقد ذكر القرآن كلمة الأسباب حين أراد النتائج إشعاراً بالتلازم الثابت بين الأمرين فقال :

﴿أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلَيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾ (١١).

(١١) سورة ص : الآية ١٠ .

(*) الخطل : المنطق الفاسد .

ومعنى الآية : جاء في الرد على المشركين حين استكثروا الرسالة على النبي محمد ﷺ ، وتعاظمهم أن تخطاهم العناية - وفيهم السادة والقادة - إلى الرجل الخالى من سطوة الحكم وثروة الغنى . فقال القرآن لهم : إن استطعتم الاغتصاب من خزائن الرحمة ، أو التحكم في آفاق الملكوت ، لتحولوا النبوة منه إليكم فافعلوا :

﴿أَءُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابًا * أَمْ عَنْهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَابِ * أَمْ لَهُمْ مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنُهُمَا فَلَيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾ (١٢) .

أى الموصلة إلى ما يشهون من تقسيم رحمة الله ، ولذا جاء في آية أخرى : ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ (١٢) وهذا التعبير الدقيق حاكم في أن الأسباب لا تنفك عن تتائجها .

● رجال المبادئ:

من الناس من إذا نزل به ضييم لم يعرف لنفسه عملاً إلا مدافعة هذا الضييم بكافة ما بيده من وسائل ، لا يبالى أتجدى هذه الوسائل أم لا تجدى ؟ أينتصر بعدها أم يهزم ؟ أ يقول الناس عنه عاقل أم متھور ؟ فهو إما أن يحيا كما يشاء أو .. لا .. فالموت مستقر حسن لمن فاته في الدنيا المستقر الحسن .

ويمثل نفسية هؤلاء الرجال قول الشاعر :

سأغسل عنى العار بالسيف جالباً
على قضاء الله ما كان جالباً
وأذهل عن داري وأجعل هدمها
لعرضى من باقى المذمة حاجباً!
ثم يقول هذا الفارس الأبي مبيناً عن أسلوب الأحرار في مواجهة الشدائـد
واستقتالهم في رد العدوان وقمع الطغيان :

ولم يأت ما يأتى من الأمر هائباً	إذا هم لـم تردع عزيمة هـمه
ونكب عن ذكر العـاقـب جـانـباً	إذا هـم ألقـى بـيـن عـيـنـيـه عـزـمـه
ولـم يـرضـ إـلا قـائـمـ السـيفـ صـاحـباـ	ولـم يـسـتـشـرـ فـي رـأـيـه غـيـرـ نـفـسـهـ

(١٢) الزخرف : الآية ٨ - ١٠ .

(١٢) سورة ص : الآية ٨ - ١٠ .

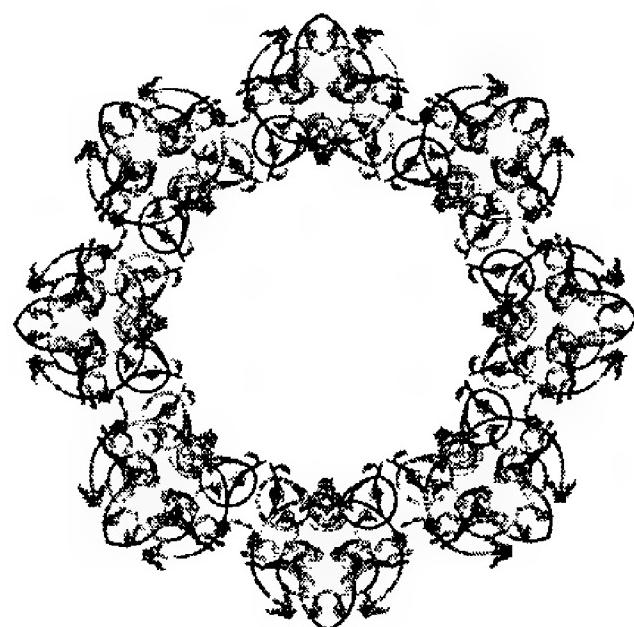
وهناك رجال من صنف آخر ، يقيسون نتائج عملهم بمقدار ما يتمخض عنه من ربح أو خسارة ، ويفكر قبل الاشتباك في أية معركة ، هل ستتراجع كفتاها له أو تدور دائرتها عليه ؟ ثم يتخذ بعد قراره بالهجوم أو الفرار وبمقارنة الموت الرضوخ للعار .

وانظر إلى الشعر السابق من نفس جياشة بالإقدام كيف نبع ؟ ثم انظر إلى شعر آخر يصور نفسية أخرى :

حتى علوا فرسى بأشقر مزبد فى مأزق والخيل لم تتبدل قتل ولا يضرر عدوى مشهدى طمعاً لهم بلقاء دونهم	الله يعلم ما تركت قتالهم وسممت ريح الموت من تلقائهم وعلمت أنى إن أقاتل واحداً قصدت عنهم والأحبة دونهم
---	--

وقد أحسن الشاعر في الاعتذار عن فراره ، ولكن أترى هذا منطق أنس بن النضر حين ضمه موقف في غزوة أحد كموقف هذا المقاتل ؟ فلما شم ريح الموت لم يدر بخلده هذا المنطق ! بل قال : إنني أشم ريح الجنة من وراء أحد !! ومات مقبلاً لا مدبراً ، مفتخرًا لا معترضاً ..

وما أحوج المسلمين إلى رجال من الصنف الأول يحيون للمبادئ وحدها ، وتأوى الفضائل العليا من نفوسهم إلى ركن ركين ، إن فخار الإنسانية في تاريخها الطويل بمثل هؤلاء الرجال الذين لا تلتوى طباعهم مع سياسة المنفعة ، ولا يطيقون السير مع ألاعيب السياسات وما تنطوي عليه من مكر واحتياط .



● إلغاء المعاهدات.. على ضوء الشريعة الإسلامية

- ١ - ما حكم الله في قوم بيننا وبينهم عهد نبذوه ونقضوه ، هل يجوز لنا أن نبذ عهدهم ؟
- ٢ - ما حكم الله فيمن يتتجسس لحساب العدو ، أو يعاونه معاونة مادية أو أدبية ،
هل يجب قتله ؟
- ٣ - إذا قامت حرب بيننا وبين عدو دخل أرضنا ، هل الجهاد فرض عين على كل
مواطن ذكر ، أو أنثى ، أو مسلم أو غيره ؟
- ٤ - إذا كان في هذه الحالة معنا قوم معاهدون وشككنا في نواياهم ، هل في
القبض عليهم تعدّ لحدود الله ؟
محمد أبو الحسن نوفل
(مدرس بمدرسة دسوق)

إن وفاء الإسلام بالعهود بلغ حدّاً من الدقة والسمو لم تعرفه إلى اليوم أرقى
المؤسسات الدولية ، وأحدث الدساتير العالمية .

ولسنا الآن بصدّ سوق الدلائل الشاهدة لذلك ، ولكن مسلك الإسلام في معاملة
أعدائه يتضمن صوراً من الوفاء الكريم يجب أن ننوه بها ، وأن نواجه وجوه المكابرین بما
يتترّق فيها من سماحة ونبيل ..

كان اليهود لا يرون للعقود والمعاهدات حرمة إذا أبرمت بينهم وبين مخالفيهم في الدين ،
ويستبيحون أكل الحقوق المقررة لغيرهم ، لا لشيء إلا لأنهم ليسوا بيهود ، فأنكر الإسلام هذه
المعاملة الخسيسة ، وشرع الوفاء العام للناس جميعاً ، لا فرق بين ملة وملة :

﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمِنَهُ بِقُنْطَارٍ يُؤْدِهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمِنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤْدِهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمَّةِ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعِهْدِهِ وَأَتَقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ (١٤) .

وسار الإسلام على هذه القاعدة وهو يتعقب الرذائل ، ويظهر الأرض من الظلم
والفسق والعصيان . فلما أعلن على النفاق حرباً شعواء ، واستشار همم المسلمين
ليقاتوا المنافقين - وهم جبهة واحدة - وعندما أوصى بآلاً تأخذهم هوادة في منابذتهم
بالخصومة ومصارحتهم بالبغضاء ، قال :

(١٤) آل عمران : الآية ٧٥، ٧٦.

﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فَسَتِينَ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتْرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مِنْ أَضَلَّ
الَّهُ وَمَنْ يُضْلِلَ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ (١٥).

ثم كشف عن خبيئة نفوسهم ، وحقيقة موقفهم من الدعوة إلى الله ، ورغبتهم الكامنة في أن تطوى الأرض ظلمات الكفر والضلالة ، وعلى بيضة من هذه النيات الخبيثة قال :

﴿وَدُوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَخَذُوا مِنْهُمْ أَوْلَيَاءَ حَتَّى
يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حِيثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَخَذُوا
مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (١٦).

﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصْلُوْنَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيَثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصْرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ
يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ﴾ (١٧).

بل إن الإسلام يؤخر التناصر الثابت بحق الأخوة المشتركة في الدين ، ويقدم عليه المعاهدات المعقودة ، ولو مع قوم كافرين ! وفي هذا يقول الله تعالى :

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَآتَهُمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنْ اسْتَصْرُوكُمْ
فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيَثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (١٨).

ويبدو أن هذه المعاملة الفاضلة القائمة على رعاية العهود والبالغة في احترامها بدأت من جانب واحد فقط ، أما الجانب الآخر فقد أظهر الموافقة والقبول ، وأضمر التربص والكيد ، ريثما تواليه الفرصة المناسبة ليعلن غدره ويوقع مكره .

فهو يستمسك بالوفاء مadam ضعيفاً ، ويحرص عليه ما ظل يستفيد منه ، فإذا أحس بالدفء والقوة تحرك ليلاً ، وبسط يده وفمه بالأذى ، وقد ظل المسلمون الأولون حيناً من الدهر يتعلقون بمتاليتهم ، ويحاولون الإبقاء على عهودهم مع مخالفاتهم في الدين ، من اليهود والنصارى والشركين ، بيد أن هذه المحاولات ضاعت سدى ، فقد نقض يهود المدينة معاهديهم مع رسول الله ﷺ عندما ظنوا الفرصة سانحة للقضاء على المسلمين في معركة الأحزاب ، كما نقض المشركون عهد الحديبية مع أن بنوده كانت لمصلحتهم .

(١٥) النساء : الآية ٨٨.

(١٦) الأنفال : الآية ٧٢.

(١٧) النساء : الآية ٩٠.

(١٨) النساء : الآية ٨٩.

وعدا بعض أمراء الشام على رسول للنبي ﷺ فقتلوا !
واستبان من اطراط الحوادث أن المسلمين يعاملون رجالاً من نوع لا شرف لديه ولا
وفاء ، فأصبح لزاماً عليهم أن يعدلوا مسلكهم ، وأن يحسموا عهوداً لم يحترمها منذ
أبرمت إلا طرف واحد !!

وفي ضوء هذه الملابسات نزلت سورة براءة ، وفيها تسمع دمدمة الآيات ومن ورائها
قعقة السلاح :

﴿ بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ * فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُحْزِي الْكَافِرِينَ ﴾ (١٩) .

وفي هذه السورة أعلن - في جلاء - أن المعاهدات السابقة قد ألغيت ، وأن الاعيب
المشركين الكثيرة قد وضع لها حد أخير !

والإنسان يستمع إلى الآيات التي تضمنت «حيثيات» هذا الإلغاء ، فيجد فيها دلائل
الغضب من مسالك المشركين النابية ، وتقريراً شديداً على مخالفاتهم الماضية ، ونصباً
حاسمًا على أن الوفاء لا موضع له إلا مع أهل الوفاء فحسب ، ومن ثم قيد القرآن هذا
النقض العام ليوفر الأمن والسلام مع من حست سيرتهم ، وصدقت كلمتهم ، فقال :

﴿ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتَمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ (٢٠) .

ثم تفيض الآيات في سرد أسباب النقض وضرورات الإلغاء التي أنهت هذه
المعاهدات فتقول :

﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ * كَيْفَ وَإِنْ يَظْهِرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيْكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةَ يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ (٢١) .

(٢١) التوبة : الآية ٨، ٧.

(٢٠) التوبة : الآية ٤.

(١٩) التوبة : الآية ١، ٢.

ثم يؤكد مشاعر الحقد المضطربة في هذه النفوس الغادرة : ﴿ لَا يَرْقِبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا
وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴾ (٢٢) .

ويرسم القرآن بعد ذلك الطريق لمعاملة أمثال أولئك القوم ، فيضرب السيدة بالسيئة ،
ويعالج الغدر بالقصاص : ﴿ وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ
فَقَاتَلُوا أَئِمَّةَ الْكُفَّارِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴾ (٢٣) .

وفي تحريض المسلمين على قتال هؤلاء الناكثين لتطهير الأرض من رجسهم ،
وتحلص الحياة من عبشهم ، يقول الله :

﴿ أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهُمْ بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ
أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشُوهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * قَاتَلُوهُمْ يَعْذِبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ
وَيُخْزِهِمْ وَيُنْصِرُكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ * وَيُذَهِّبُ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ﴾ (٢٤) .

إن الإسلام على قدر تنويهه بالمواثيق ، وتشديده في المحافظة عليها ، يصب نقمته
على المتلاعبين بها والمستغلين لها ، ويعتبرهم دواب تضرب بالسياط ، لا بشراً يقادون
من ضمائركم ، ويأمر أن تکال الضربات لهم على نحو يشير الرعب في غيرهم ، حتى
يكون التنكيل بهم عبرة لمن يلهو لهوهم ويحنث حنثهم :

﴿ إِنَّ شَرَ الدَّوَابَ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ
يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ * فَإِمَّا تَشْقَنَهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرَدْ بَهُمْ مِنْ
خَلْفِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ * وَإِمَّا تَخَافَنَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَابْنِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ
لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ (٢٥) .

وقد قررت الحكومة المصرية أن تلغى معاهدة سنة ١٩٣٦ للأسباب التي جعلت
المسلمين الأوائل يلغون معاهداتهم مع اليهود والمرشكيين ، بل الأمر في حالتنا أشد نكرًا

(٢٣) التوبة : الآية ١٢ .

(٢٤) الأنفال : الآية ٥٥ - ٥٨ .

(٢٢) التوبة : الآية ١٠ .

(٢٥) التوبة الآية ١٣ - ١٥ .

وأبعد أثراً فالمعاهدة المنقوضة اليوم لا تعود في حقيقتها أن تكون ميثاقاً يعطى الناس الحق في سكنى البيت الذي سطا عليه ، والتجول في غرفاته وردهاته كيف يشاء ، فهي معاهدة باطلة أصلاً ، وتحليل الحرام لا يقره دين ولا عقل ! وقد احتل الإنجليز هذا الوادي لسلب خيراته ، ونهب أقواته ، وتعويق نهضته ، ووأد حريته .

ومنذ سبعين سنة وأهلها يسعون حثيثاً لاسترجاع حقوقهم المغصوبة ، وقد خضبوا بالدم كل خطوة استطاعوا أن يثبوها إلى الأمام !

ذلك أن الإنجليز كانوا يبذلون جهوداً متابعة للدفع بالبلاد إلى الوراء حتى تختلف عن ركب الحضارة ، وتحيا على ما يشتهي أولئك الإنجليز حياة الرقيق الأذلين في بلد لا يرفع رأسه ، ولا يكرم نفسه ! فكيف تتصفى على هذه الحال الشائنة صفة قانونية ؟ وكيف يقوم تشريع لحماية السلع المسروقة وتسخير الأمم الحرة ؟ ثم كيف يتوقع أن يستكين الإسلام لهذا الضيم ؟ أو يرضى أبناءه بهذه السبة ؟؟

إن الجهاد إلى الرمق الأخير فريضة ماضية إلى قيام الساعة حتى يقذف بهؤلاء الإنجليز إلى الأمواج التي رمت بهم على شواطئنا ، أو يلقوا المصير الذي يلقاء كل معتد استهواه المغامرات الطائشة ، فدفع روحه فيها ثمناً !

وقد بين القرآن الكريم أن موالة المعتدين ، وإيشار صداقتهم ، والشذوذ عن رأي (الجماعة) في كفاحهم ، وتقديم أي لون من ألوان المساعدة لهم ، أو التجسس لحسابهم ، والعمل لمصلحتهم ، أو السعي لمصالحتهم .. بين القرآن أن ذلك كله ارتداد عن الإسلام ومروق من الملة ، وفي هذا يقول الله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةً ﴾ (٢٦).

وهذا القول تصوير صادق لدعاة الهزيمة ، وأولى الريبة في مستقبل كل كفاح يدور بين الحق والباطل ، فتخوفهم من الهزيمة يبيح لهم الاتصال بالعدو ليأمنوا على أنفسهم ، ويعؤمنوا على حياتهم ، وقد اتفقت قوانين العالم كله على عد هذا المسلك خيانة عظمى ، وجعلت العقوبة له القتل .

وكذلك صنع الإسلام ، وصح عن النبي ﷺ أنه أمر بقتل المرتدين والجوايس .
وال المسلمين في هذا الزمن مقبلون على عصر طويل من التضحيات والمغامر لينظفوا الوطن الإسلامي الكبير من بقايا الجاهلية الحديثة التي انحدرت إلى ديارهم ، ونکست ألوىتهم ، ولا ريب أن ذلك يتقاضانا من تساند القوى ، وترافق الصفوف جهداً شاقاً ، فأيما محاولة لإحداث ثغرة ، أو إيقاع فرقة يستفيد منها عدو الله وعدونا ، فهي جريمة نكراء في حق (الجماعة) ، وكفران بالله ورسوله ، والحكم بالقتل في هذه الحالات لا ينطوي على شيء من القسوة ، بل هو استئصال لشأفة الخونة ، وتأمين لظهور المجاهدين ، وتأل لشرف الإسلام وكرامة المسلمين .

لقد تحددت الأوضاع بيننا وبين خصومنا ، فهناك غرب صليبي مسلح اقتحم البلاد ، واستذل العباد ، وهنا شرق إسلامي أعلن في حزم أنه لن يقبل الدنيا ، أو يخضع للهوان ، فحق على كل مسلم أن ينزل على منطق الإيمان الذي رسمه القرآن :

﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مِنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا أَبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْرَانِهِمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ (٢٧) .

فكيف والإنجлиз وقرناؤهم من المستعمرين هم قتلة الآباء والأبناء ومشروع الإخوان والعشيرة ؟

إن مواليتهم جرم مضاعف يستتبع عقوبة مزدوجة ، ومن ثم فالكاتب الذي يعطف عليهم بكلمة ، والعامل الذي يؤدي لهم خدمة ، والفلاح الذي يسدى إليهم نفعاً ، والحاكم الذي يتبع لهم عوناً .. كل أولئك منسلخ من تعاليم الدين ، مندرج في غمار المرتدين والمنافقين !

والنفير مع كتائب الجهاد إذا فصلت عن البلاد وضررت في سبيل الله تبغي إصلاح فاسد ، أو تأديب معتد ، أو قمع مستبد ، يعد في نظر الإسلام واجباً كفائياً تقوم به الأمة في جملتها ، ولا يرتبط بوحد معين من بنائها .. وقد أباح الإسلام أن يخرج النسوة المسلمات مع الجيش المسلم إذا شئن التطوع في هذا الغرض النبيل .

(٢٧) المجادلة : الآية ٢٢ .

أخرج مسلم في صحيحه عن أم عطية رضي الله عنها قالت : «غزوت مع النبي ﷺ سبع غزوات ، أخلفهم في رحالهم ، أصنع الطعام ، وأداوى الجرحى ، وأقوم على المرضى» . وأرسل ابن عباس إلى نجدة بن عامر الحروري يقول له : «كتبت تسألني : هل كان رسول الله ﷺ يغزو بالنساء ؟ وقد كان يغزو بهن فيداوين الجرحى ، ويحذين من الغنيمة ، وأما سهم فلم يضرب لهن» ، أى إنه كان يعطيهن مكافآت على عملهن دون السهم الذي فرض للمجاهدين من الرجال .

وتطوع الجنسين في هذا الضرب من القتال ليس بواجب عيني ، ولكنَّ الجنسين معًا يجب عليهما الاشتراك في مقاتلة العدو ، وبذل كل ما لديهما من طاقة إذا أغار هذا العدو على البلاد ، وتهدد كيانها ، واستباح حماها . وقد نص الفقهاء عامة على أن الدفاع في هذه الحالات في عنق كل فرد ، رجل أو امرأة ، سيد أو خادم ، كبير أو صغير !

على أن فنون القتال التي تخوض عنها هذا الجيل ، وما طرأ على العلاقة بين الرجل والمرأة من اضطراب أحدثته حضارة الغرب - التي لا دين لها - يجعلنا نحدد الدائرة التي يمكن للمرأة المسلمة أن تجاهد فيها النصرة دينها وحماية وطنها ، وخصوصاً في جو لا تقام فيه حدود الله ، ولا تCHAN فيه أعراض الأسر ، ولا تشنل فيه أيدي الفسقة !

وعندى أنه - إلى أن يسود الحكم الإسلامي - ينبغي أن تخلف المرأة رجلها بخير ، فإن كان زوجاً طمأنته على أداء واجبه ، أو كان ابناً أو أخاً حرسته على النهوض بمقتضيات الرجولة الحقة والإيمان الصحيح . . . وهذا حسبها من جهاد في هذه الأيام الكالحات . . . فإذا فقدت عزيزاً عليها في ميدان التضحية والفداء ثم صبرت واحتسبت ، فهي شريكه في المثوبة وحسن العقبى عند الله .

ثم إن لدينا ألواناً من الشباب العاطلين ! فحتى تستنفذ أغراض jihad هذا العدد الضخم من الشباب القوى الفارغ نفكير في استجلاب النساء لرد الأعداء !

أما المعاهدون الذين يساكنوننا هذا الوطن ، ويشاطروننا مصائبه وأفراحه ، فإن حقوقهم المقررة لا موضع لخدشاها ولا للتحدى فيها ، والوفاء لهم من أسباب النصر المنشود !

أخرج الإمام مالك عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ما ختر قوم بالعهد إلا سلط الله تعالى عليهم العدو !

وأخرج أبو داود عن صفوان بن سليم عن عدة من أبناء الصحابة عن آبائهم : أن رسول الله ﷺ قال : «مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا ، أَوْ اتَّقَصَهُ حَقَّهُ أَوْ كَلَفَهُ فَوْقَ طاقتِهِ ، أَوْ أَخْذَ مِنْهُ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ ، فَأَنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» .

وأخرج البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عمرو قال : قال : رسول الله ﷺ : «مَنْ قَتَلَ مُعَاهِدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ ، وَإِنَّ رِيحَهَا يُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعينَ عَامًا» . وفي رواية النسائي : «مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا مِنْ أَهْلِ الدَّمَّةِ . . .» .

ونحن نلفت النظر إلى أن المستعمرين من إنجلترا وأمريكا وفرنسا هم أبعد الناس عن عيسى وتعاليمه ، وأكفر الناس بإنجيله ووصاياته !

ولكنهم عندما يغزوون بلادنا تتملكهم فجأة حمى التعصب الصليبي القديم ، ثم يزعمون أنهم يحمون القلة الدينية في بلادنا ضد ما يفترونها من عدوان محتمل !!

وهذه صفاقة لا تستغرب من لصوص وفدو للقتل والفساد في الأرض ! ولا يساويها في القحة إلا أن يرسلوا جنودهم محظيين ثم يطالبوننا بحماية أرواحهم . . . لأن القافلة السائرة مسؤولة أن تحمي أرواح من يقطع عليها الطريق !!

ولقد أصبحت حماية الممتلكات الأجنبية والأقليات الدينية خرافية سمجة من خرافات الاستعمار المفضوح ! فإن بلاد الإسلام ليست البلاد التي تصادر فيها عقيدة ، أو تستباح فيها حرمة !

وقد حدث في إبان اشتباكنا مع اليهود في فلسطين أن بعض اليهود القاطنين بمصر ظهرت عليهم أعراض الخيانة ، وحاولوا أن يطعنوا من الخلف وطنًا طالما أواهم وأحسن إليهم ، وقد اعتقل كثير من أولئك الغادرين ، وإذا كنا أخطأنا في شيء ، فهو أننا تركنا أولئك يفلتون إلى إسرائيل ليحملوا السلاح يومًا في وجوهنا . .

وأيًّا كان الأمر ، فإن المسلم الذي يهدد قضايا بلاده العامة يضرب على يده ، وتصادر حريته ، فغيره من أهل الكتاب لن يقل عنه ، وليس في حبس هؤلاء وأولئك تعد على حدود الله .

● غصن باسق في شجرة الخلود

في وحشة الليل ، وسورة الغدر ، ويقطة الجريمة ، كان الباطل بما طبع عليه من غرور ، وما جبل عليه من قسوة ، وما مرد عليه من لؤم ، كان مستخفياً ينساب في أحياه القاهرة الغافلة يجمع سلاحه ، ويبيث عيونه ، ويسوق أذناه من الكبار والصغر ويعد عدته لكي يغتال حسن البنا .. مرشد الإخوان المسلمين .

وليس قتل الصديقين والصالحين في هذه الدنيا بالأمر الصعب !

إن القدر أذن بأن يudo الرعاع قدماً على أنبياء الله ، فذبحوا وهم يحملون أعباء الدعوة ، أفکثير على من تلقفوا هذه الأعباء قبل أن تسقط على الأرض أن يردوا هذا المورد ؟ ومن طلب عظيماً خاطر بعظيمته .

ومن هوان الدنيا على الله أن ترك كلاب المترفين فيها تسبح من المترفين ، وأن ترك حملة الوحي فيها يهونون ... مع الوحي ! لا بأس . سمع رسول الله ﷺ رجلاً يقول : اللهم آتني أفضل ما أتيته عبادك الصالحين !!

فقال له : «إذن يعقر جوادك ويراق دمك» ، حتى الجواد يقتل مع صاحبه ... لقد أصابه من الشهادة مسها القانى ! ولو كان مربوطاً بعربة بضاعة لعاش دهراً .

وكذلك أبى ربك أن يسترجع إليه المختارين من عباده - بعدما أدوا رسالتهم في الحياة - وهم وافرون أمنون ، نعم أبى أن يتركوا هذه الحياة سالمين من طعناتها الفاجرة ، وجراحاتها الغادرة .

فمنق علچ من المحسوس أحشاء عمر ، وعدا مأفون غر على حياة علیؑ ، وقتل يزيد الماجن سبط الرسول الحسين ، وتأمرت دولة الأوغاد على قتل حسن البنا . ولن تزال سلسلة الشهداء تطول حلقة حلقه ما بقى في الدنيا صراع بين الضياء والظلم .

عفاء على دار رحلت لغيرها
فليس بها للصالحين معراج
كذاب على في المواطن قبله
أبى حسن والغضن من حيث يخرج

لقد قتل حسن البنا يوم قتل العالم كله أهون شيء في ناظريه !

ماذا خرق الرصاصات الأئمة من بدن هذا الرجل ؟
خرقت جسداً أضنته العبادة الخاشعة ، وبراه طول القيام والسجود .
خرقت جسداً غبرته الأسفار المتواصلة في سبيل الله ، وغضبت جبينه الرحلات
المتلاحقة إلى أقصى البلاد ، رحلات طالما عرفته المنابر فيها وهو يسوق الجماهير
بصوته الرهيب إلى الله ، ويحشدهم ألواناً ألواناً في ساحة الإسلام !
لقد عاد القرآن غضباً طرياً على لسانه ، وبدت وراثة النبوة ظاهرة في شمائله ، ووقف
هذا الرجل الفذ صخرة عاتية انحسرت في سفحها أمواج المادية الطاغية ، وإلى جانبه
طلائع الجيل الجديد الذي أفعم قلبه حباً للإسلام واستمساكاً به .
وعرفت «أوربا» البغيُّ أى خطر على بقائهما في الشرق إذا بقى هذا الرجل
الجليل ، فأوحَت إلى زبانيتها . . . فإذا الإخوان في المعتقلات ، وإذا إمامهم شهيد
مضريح في دمه الزكي !

ماذا خرق الرصاصات من جسد هذا الرجل ؟ خرق العفاف الأبي المستكبر
على الشهوات ، المستعلى على نزوات الشباب الجامحة .
لقد عاش على ظهر الأرض أربعين عاماً لم يبت في فراشه الوثير منها إلا ليالي
معدودة ، ولم تره أسرته فيها إلا لحظات محدودة ، وال عمر كله بعد ذلك سياحة لإرساء
دعائم الربانية ، وتوطيد أركان الإسلام ، في عصر غفل فيه المسلمون ، واستيقظ فيه
الاستعمار ، ومن وراءه التعصب الصليبي ، والعدوان الصهيوني ، والسيء الأحمر !
فكان حسن البناء العملاق الذي ناوش أولئك جميعاً حتى أقض مضاجعهم ، وهدد
في هذه الديار أماناتهم .

لقد عرفت التجدد للمبدأ في حياة هذا الرجل .
وعرفت التمسك به إلى الرمق الأخير في مماته .
وعرفت خسارة الغدر يوم قدم رفات الشهيد هدية للمترفين والناعمين ؛ فقد قدم
- من قبل - دم على مهراً لامرأة .
عجبًا لهذه الدنيا ، وتبأً لكرائها ! وارحمتاه لضحايا الإيمان في كل عصر ومصر !
أ كذلك يقتل الرائد المرشد ؟؟

وَدْعَا أَيْهَا الْحَفَيْانِ ذاكَ الشَّخْصِ
وَاغْسِلَاهُ بِالدَّمْعِ إِنْ كَانَ طَهْرًا
وَخَذَا الْأَكْفَانَ مِنْ وَرْقِ الْمَصْحَى
أَسْفَ غَيْرَ نَافِعٍ وَاجْتِهَادٌ

إِنَّ الوداعَ أَيْسَرَ زادَ
وَادْفَنَاهُ بَيْنَ الْحَشَا وَالْفَؤَادَ
فَكَبِرَا عَنْ أَنْفُسِ الْأَبْرَادَ
لَا يَؤْدِي إِلَى غَنَاءِ اجْتِهَادِ

● الفدائيون:

«إِنَّ أَغْبَطَ أَوْلَائِيَ عنْدِي لَمْ يَمِنْ خَفِيفُ الْحَادِ، ذُو حَظٍّ مِنْ صَلَةِ، أَحْسَنَ عِبَادَةَ رَبِّهِ وَأَطَاعَهُ فِي السَّرِّ، وَكَانَ غَامِضًا فِي النَّاسِ لَا يُشَارُ إِلَيْهِ بِالْأَصَابِعِ، وَكَانَ رَزْقُهُ كَفَافًا فَصَبَرَ عَلَى ذَلِكَ» .. ثُمَّ نَقَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِيَدِهِ فَقَالَ: «عَجَلْتُ مِنْيَتِهِ، قَلَّتْ بَوَائِكِيهِ، قَلَّ تُرَاثُهُ».

هذا الحديث وصف جليل لرجال الدعوات الذين يعيشون لها ويفنون فيها الرجال الذين يظهرون في آفاق الحياة كما تظهر الشهب المنقضية في جنح الظلام ، ما أن تلتمع حتى تنطفئ ! إنها في سرعتها الخاطفة - وهي تشق إهاب الليل - تستنفذ حياتها وحرارتها في انطلاقها وحركتها .

وكذلك رجال الدعوات يذيبون قواهم وشبابهم في أداء رسالتهم ، ويسكنون دماءهم ويحرقون أعصابهم لتتألق بها الرسالات التي يعملون لها . . . فتحول بهم إلى سيل جارف ، ويتحولون بعدها إلى رفات هامد ، هذا سبيل الفدائـية المحفور في تاريخ البشر منذ الأزل .

وقد كان محمد بن عبد الله ﷺ الفدائـي الأول لدعـوتـه الكـبـيرـة ، خـوـفـ فـي اللهـ ماـ لمـ يـخـفـ أـحـدـ ، وـأـوـذـيـ فـي اللهـ مـاـ لـمـ يـؤـذـ أـحـدـ ، وـوـقـفـ مشـاعـرـهـ وـجـهـوـدـهـ وـأـمـالـهـ وـأـحـزـانـهـ وـأـفـراحـهـ عـلـىـ إـنـجـاحـ رـسـالـتـهـ ، ثـمـ سـُلـلـ مـنـ هـذـهـ الدـنـيـاـ كـمـاـ تـُسـلـلـ الشـعـرـةـ مـنـ العـجـينـ ، فـلـمـ يـمـسـهـ شـىـءـ مـنـ كـبـرـهـأـوـ جـاهـهـأـوـ رـاحـتـهـ ، بلـ لـقـدـ سـرـتـ عـدـوـيـ هـذـهـ التـضـحـيـةـ إـلـىـ أـسـرـتـهـ فـلـمـ تـرـثـ مـنـهـ شـيـئـاـ إـلـاـ الـبـلـاءـ وـالـتـشـرـيدـ .

وإن هذا النبي الكريم ليحدثنا أن أغبـطـ أولـيـائـهـ عنـدـهـ أـقـرـبـهـمـ إـلـىـ مـسـلـكـهـ وـأـشـبـهـهـمـ بـهـ فـيـ تـفـديـتـهـ وـتـضـحـيـتـهـ : خـفـةـ فـيـ تـكـالـيفـ الـمـعـيـشـةـ ، وـزـهـادـةـ فـيـ تـرـفـ الـحـيـاةـ . إـدـمـانـ عـلـىـ الصـلـاـةـ ، وـجـنـوحـ إـلـىـ الـعـبـادـةـ ، وـنـزـوـعـ إـلـىـ الـإـخـلـاـصـ ، وـرـغـبـةـ عـنـ الشـهـوـةـ ، وـاحـتـقـارـ



للمظاهر . إقبال على العمل وإيشار للخفى منه على الظاهر المكشوف ، وصبر على لأواء الحياة حتى تنقضى .

هذه معالم العيش الذى يجب أن ينكمش فى حدوده الفدائين .

ما لهم وللمطامع والملذات ؟ ما لهم وللرياء وحب الظهور ؟

إن الجندي المجهول يرى فى الغموض والبساطة أفضل جو يعمل فيه وينتج .
فإذا بدا فى الأفق ما يريب وأحس بالخطر على رسالته طار إلى أداء واجبه لا يلوى على شيء ..

ولذا نقر النبى ﷺ ثلاث نقرات ، وإن القلب ليتحقق إجلالاً ، وإن الرأس لينحنى إكباراً مع هذه الدقات الوعية الخصية . عجلت منيته !

يقرب حب الموت آجالنا لنا وتكرره أجالهم فتطول !

هكذا مضت سنة الرجلة تعلم ذويها ألا نكوص ولا إحجام !

قلت بواكيه .. !

ولم بقلة البكاء على أولئك النفر الكرام من حملة الدعوات ؟

أئن الجهاد غربهم عن أوطنهم فماتوا بعيداً عن الأقربين ، كسيد الشهداء حمزة ؟
سمع الرسول ﷺ الباكين بعد غزوة أحد على ذويهم فقال : «لَكِنْ حَمْزَةَ لَا بَوَاكِيَ لَهُ؟» .

أم لأن البكاء عليهم كان جريمة يقذف بمرتكبيها فى ظلمات السجون ، كما حدث فى مصرع الشهيد حسن البنا ؟

أم لأن رجال الإسلام كرهم عبيد الحياة فهم لا يحسنون لفقدتهم أسفًا ؟!

قد يكون ذلك ، أو يكون الأمر أخفى مما نعلم .

قل تراشه .. !

وهل لأصحاب المثل وأصحاب المبادئ العالية تراث يخلفونه ؟

إنهم وما ملكوا وقود دعوا them ، وفداء أفكارهم .

يا حملة المشاعل وسط العواصف الهوج ، هذا هو النهج .. فاسلكوه .

● مناسن الصوصية العالمية

غاظنى أن تعرف الأمم المتحدة بإسرائيل فور إنشائها .

وغاظنى أن تصر على إهدار حق العرب برغم تفانيهم في استرداده .
إن هذه المؤسسة العالمية لا شرف لها .

والناس يعرفون عن دول أوروبا أنها أقصت كل أثارة للشرف والخلق في علاقاتها السياسية بأمم الشرق .

وأن الحضارة الغربية قد أسقطت جملة مكانة الضمير الإنساني ، سواء فيما يدور بينها من منازعات أم فيما يدور بينها وبين غيرها من مشاكل وخصومات .

والسياسة الأوروبية هي صاحبة مبدأ «الويل للمغلوب» ومبدأ «الغاية تبرر الواسطة» ومبدأ «المعاهدات قصاصات ورق» .

ونحن نعرف أن إنجلترا حلت بشرفها سبعين مرة وحنت كذلك سبعين مرة !
ونعرف أن إنجلترا في ذلك تمثل النفسية العامة لدول الغرب ، فليست خيراً ولا شرًا من فرنسا أو إيطاليا ... أو أمريكا !!

بيد أن الأمر في نظرنا قد وصل إلى حد يستحق التسجيل فقد تخون المرأة شرفها ، وتقترب إثمها ، في تستر وخفاء ، فتكون في تسترها واستخفافها معترفة بأن للفضيلة منزلة تلزم رعايتها ، ولو من الناحية الشكلية .

أما إذا فتحت محلًا للدعارة واستغلت به موسمًا فمعنى ذلك أنها قد باعت نفسها للشيطان !

والدول الأوروبية التي لوثت تاريخ العالم بغرتها وخيانتها قد مضت في طريق شائنة ، وفي المؤسسات التي أقامتها التنظيم العلائق العامة تحولت الجلسات والمفاوضات إلى أسواق تباع فيها الذم ، بل تحولت إلى مزايدات علنية خسيسة تقدم فيها الأصوات لمن يدفع أكبر ثمن .

أمس باعت الهند صوتها بمليون طن من الحبوب قدمتها لها أمريكا .

وأول من أمس باعت الدول اللاتينية أصواتها لليهود بشمن بخس .

ومنذ أيام أصدرت محكمة العدل الدولية حكمًا لصالح إنجلترا في قضية لا يجوز أن تنظرها لأنها ليست من اختصاصها ، والمضحك أن هذه المؤسسات التي تديرها دول

أوروبا للدعارة السياسية لا تزال تحمل الأسماء والعنوانين واللافتات التي تمثل كل ألوان الغش التجاري .

فالتحريف بالجملة اسمه استعمار .

والدول التي يراد أكلها توضع تحت الوصاية .

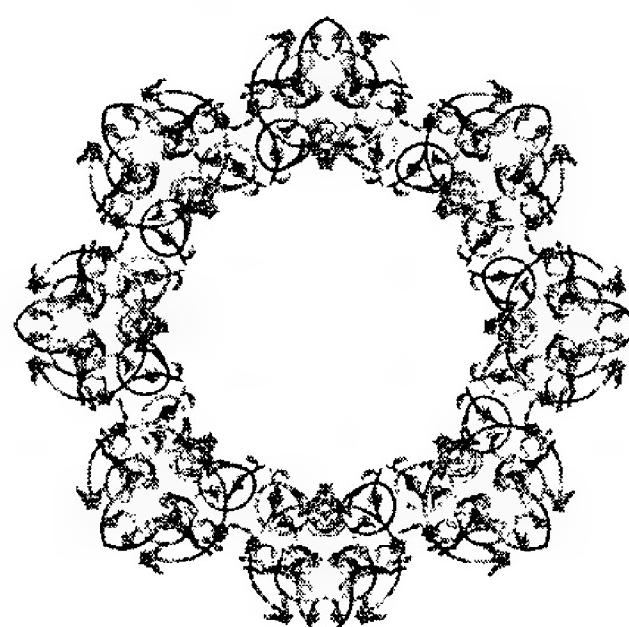
والأحكام الجائرة المضللة تستصدر من محكمة العدل ، والمجلس الذي جبن لشدة خوفه أن يقول كلمة حق في وجه ظالم اسمه مجلس الأمن ، والأمم التي تتهاوش تهاوش الكلاب المسعورة تسمى الأمم المتحدة .

ولا غرو فالحضارة الأوروبية متخصصة في هذا اللون من الكذب ، وقد سقطت همتها الأخلاقية فبدلاً من أن تجاهد هوها اعتبرت الهوى شريعة ، وسارت بإيعاز من وساوسه إلى ما تشتهي . . .

وهي تريد أن تسير الدنيا كلها معها في هذا المضمار الملوث .

إن هذه المؤسسات العالمية أصبحت لا رجاء فيها لأوسع الناس أملاً ؛ فلنهرها إلى غير رجعة ، ولنبذل جهودنا لإصلاح أحوالنا في بلادنا نفسها ، وتحويلها إلى ميادين للكفاح ضد الاحتلال الداخلي والخارجي جمیعاً .

فهذا وحده طريق الكادحين الناجحين ، أما السمسرة الدبلوماسية في «بورصة» مجلس الأمن فعمل باطل ابتدعه اليهود ليلعبوا بالفضائل ويقامروا بمستقبل الشعوب .



ذكريات من الريف

١ - غريب.. أينت فين؟

سرى إلى نفسي الهدوء الخيم على أرجاء القرية الموسكة على الهجوع ، فانسابت أفكارى فى مجريها العميق هادئة هى الأخرى ، وأحس رفيقى بأن حبل الصمت قد طال أكثر مما ينبغى فسألنى بلطف : ماذا بك ؟ فأجبته باسماً : لا شيء غير أن المرء إذا انتقل من الضجيج المضاعف فى المدينة إلى السكون المضاعف فى القرية ، شعر كأنه يهبط فى هاوية من الصمت لا قرار لها ، ثم ألسست ترى هذه الأفاق المغبرة تستقبل المساء القادم البطىء ؟ إن هذه الغبرة نصحت على القرية من التربة التى تعيش فيها أبداً .

قال لى صديقى - محاولاً الفرار بي من هذه الأفكار الكئيبة - : دعك من هذه الحالات ، ولا تنس أن فلاناً ينتظر حيث تواعدنا على اللقاء جمياً عند شاطئ «النيل» . إن مجلسنا هناك حافل بالأحاديث الشائقة وإن كانت أرضه مفروشة بالحشائش الجافة وحدها !

ويمنا شطر المجلس العتيق ، وإذا بالطريق إليه يعترضها مستنقع راكد من هذه المستنقعات التى يصنعها رشح الفيضان ، وتختلف فيها مياه المطر ، فتوقفت كارها واستأنفت صمتى الأول ، ثم أرسلت الطرف إلى الشاطئ الآخر للبحيرة الضحلة ، ودرت به حول حدودها ، ولكنى لم أتبين من معالمها إلا القليل ، إنه ليل أشد سواداً من أفئدة المجرمين توارت فى طياته هذه الدور المبعثرة بما ضمت من إنسان وحيوان ، وكأنها ألفت وحشته المريبة ، فما تخلعها عن جدرانها البالية فى ليل أو نهار ، وقرع أذنى صوت غناء ينبعث من بعيد ، غناء صبية يسمرون ويلعبون غير أن أحان غنائهم كانت تشق حجاب الليل ، وتخترق صمتها كما يشق الخنجر الحاد الأديم الحى . واحتلنج فؤادى اختلاجاً عنيفاً ، إذ كانت نبرات غنائهم تكتنفها الكآبة ، وتغزو المشاعر بمزيج من الحسراة والتفجع ! ما هذا ؟ .

وأعربت انتباھي للصدى المتماوج مع هبات النسيم على صفحة المستنقع ، واستطاعت أذناي أن تلتقطا من أبيات المقطوعة التى يغنىها الأطفال هذا البيت الحزين :

ياليل ! ياليل ! غريب ! أبيت فـين ؟
قلت لرفيقى فى لهفة : ما هذا الكلام يا أخى ؟ من هذا الغريب ؟ وما هذا المـيت ؟
وما الذى جمع الأولاد على هذا النـشيد الحـزين ؟

قال صاحبى - وقد سره أن يجد مجالاً للحديث يطرد به وطأة الصمت - : إن هذا
الغناء نـشيد القرية الدائم ، ومرتلوه هـم الصـبية الفـعلة من الفـلاحـين الفـقراء ، إنـهم
يرحلون إلى التـفـاتـيش الكـبـرى بالـمائـات للـعـمل فيـها ، وـهـم يتـزـودـون لـهـذـه التـرـحـيلـات
المـضـنـية ماـ ثـقـلـ حـمـلـه ، وـرـخـصـ ثـمـنـه ؛ خـبـزـ جـافـ وجـبـنـ وـمـلحـ ، فإذا مـلـأـوا بـطـونـهـمـ منـ
هـذـه الأـطـعـمـةـ ، كـرـعـواـ منـ قـنـوـاتـ الرـىـ ماـ تـفـيـضـ بـهـ منـ المـاءـ العـكـرـ ، حتىـ إـذـاـ أـوـاهـمـ
الـلـلـيلـ وـجـدـواـ فـىـ إـسـطـبـلـاتـ الـخـيلـ مـتـسـعـاـ يـضمـ أـجـسـامـهـمـ الـمـتـعبـةـ ، وـهـمـ بـيـنـ مـهـادـ الـغـبرـاءـ
وـلـحـافـ الـأـجـوـاءـ يـطـلـقـونـ حـنـاجـرـهـمـ بـماـ سـمـعـتـ مـنـ غـنـاءـ . فـىـ حـينـ كـانـ صـاحـبـىـ يـتـكـلـمـ
عادـ الصـدىـ السـارـىـ يـقـرـعـ آـذـانـىـ ، بلـ يـقـرـعـ أـبـوابـ قـلـبـىـ ، وـيـشـيرـ كـوـامـنـ الـحنـانـ وـالـأـسـىـ
فـيـهـ ! الـغـنـاءـ الـكـتـيـبـ يـنـاجـىـ الـلـلـيلـ مـرـةـ أـخـرىـ :

يالـلـيلـ ! يـالـلـيلـ ! غـرـيبـ ! أـبـيـتـ فـيـنـ ؟
حـيـرـانـ ! مـاـ بـارـتـاحـ يـوـمـ وـالـرـاحـةـ تـيـجـىـ مـنـيـنـ ؟
فـقـلتـ - وـأـنـاـ أـهـمـسـ إـلـىـ نـفـسـىـ - : يـاـ أـوـلـادـ لـسـتـ غـرـبـاءـ ، إـنـهـ وـطـنـ أـبـائـكـمـ
وـأـجـدـادـكـمـ ، وـمـنـ حـقـكـمـ أـنـ تـبـيـتـواـ فـيـ نـاعـمـيـنـ . لـعـنـ اللـهـ مـنـ ظـلـمـكـمـ ، وـجـعـلـ طـفـولـتـكـمـ
تـنـبـتـ فـيـ هـذـاـ الـهـوـانـ ! .

إـنـ أـمـثـالـكـمـ يـحـيـونـ وـادـعـيـنـ فـىـ أـمـ الـأـرـضـ الـأـخـرىـ لـاـ تـشـرـدـهـمـ إـلـاـ الـحـرـوبـ وـالـغـارـاتـ
الـطـارـئـةـ ، أـمـاـ أـنـتـمـ فـمـشـرـدـونـ أـطـفـالـاـ وـمـشـرـدـونـ رـجـالـاـ ! فـىـ غـيرـ حـربـ وـلـاـ ضـربـ ، إـلـاـ
حـربـ الـأـوضـاعـ الـظـالـمـةـ ، وـضـربـ الـمـجـتمـعـ الـغـشـومـ !

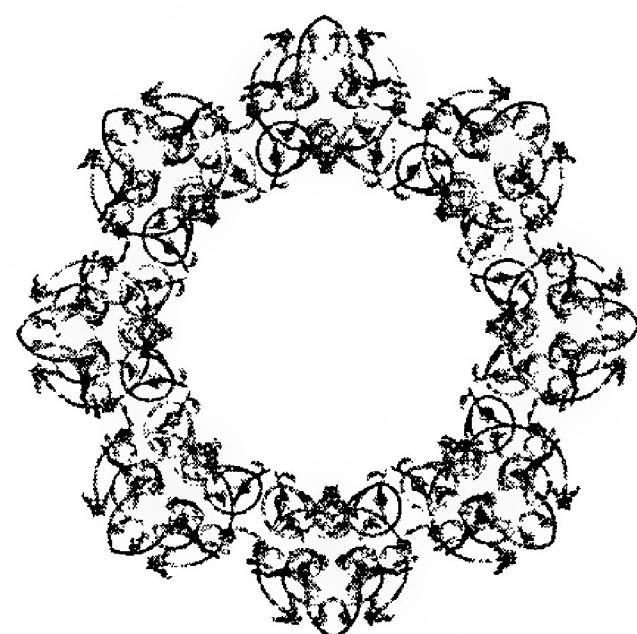
فـقـالـ رـفـيقـىـ - وـلـعـلـهـ اـسـتـحـمـقـنـىـ - : بـمـاـذاـ تـهـمـسـ ؟ فـأـسـرـعـتـ إـلـىـ إـجـابـتـهـ : لـاـ شـىـءـ .
وـاسـتـطـرـدتـ : وـكـيـفـ يـعـودـونـ مـنـ هـذـهـ التـرـحـيلـةـ ؟ فـقـالـ : أـتـذـكـرـ الـأـوـبـةـ الـتـىـ تـصـيبـ
الـدـوـاجـنـ فـىـ الـبـيـوتـ وـالـدـوـابـ فـىـ الـحـقـولـ ؟ إـنـ هـذـهـ مـنـ تـلـكـ . طـعـامـ حـقـيرـ ، وـعـمـلـ مـنـ
قـبـلـ الشـرـوقـ إـلـىـ مـاـ بـعـدـ الـغـرـوبـ ، وـأـسـوـاطـ الـمـراـقـبـينـ الـقـاسـيـنـ تـلـهـبـ ظـهـرـ مـنـ يـتوـانـىـ فـيـ
أـدـاءـ الـوـاجـبـ ، بلـ قـدـ تـلـسـعـ الـمـشـتـغلـ حـتـىـ لـاـ يـفـكـرـ فـىـ الـكـسـلـ ! وـأـجـورـ ضـئـيلـةـ يـأـكـلـ
نـصـفـهـاـ السـمـاسـرـةـ ، وـأـيـامـ مـتـطاـوـلـةـ عـلـىـ هـذـهـ النـحـوـ الـعـصـيـبـ مـاـ يـجـعـلـ الـأـوـلـادـ الـمـحـرـومـيـنـ
مـنـ أـحـضـانـ أـبـائـهـمـ يـشـعـرـوـنـ بـالـغـرـبـةـ ، فـهـمـ يـبـثـوـنـ الـلـلـيلـ شـكـوـاهـمـ الـصـارـخـةـ ، ثـمـ يـعـودـنـ

إما إلى القبور وإما إلى الدور . فإذا ساورتهم أحداث الماضي في حاضرهم المنكود نزعوا إلى الغناء ، كما سمعت .

فقلت : كم يجذب هذا الشعب إلى الغناء الحزين ينفس فيه عن آلامه المكتظومة ،
وكم سمعت أبناء الوجهين القبلى والبحري يطلقون حناجرهم زرافات ووحدانا ،
يطلبون لدى «المجهول» ما لم يجدوه لدى «الواقع» لكنهم لا يجدون شيئاً ! إلا إذا كان
هؤلاء الأطفال الغرباء فى وطنهم قد وجدوا المبيت الذى يلتمسون !

وعادت أمواج الظلام تحمل غناء المظلومين المتواذبين على شاطئ المستنقع :

غريب ! أبىست فـين ؟ يتهان ورا قرشـين غريب ! أبىست فـين ؟ يبكـوا بدمـ مع العـين	يالـيل ! يالـيل ! يالـيل ياماـ أرـخـص الإـنـسـان يالـيل ! يالـيل ! يالـيل وأـمـى وأـبـوى الـاثـنـين
---	--



٢ - أديان مستفولة

قال صاحبى فى ضيق : أحسب أن المجلس الذى ينتظرنـا قد التأـم الآن شملـه ، ولعلـنا وحدـنا الذين تـأخرـنا . وإذا كان حضـرة العـمدة لن يـطيل عـتابـنا ، فإن فـضـيلة الشـيخ المـاذـون سـيـحـاسـبـنا عـلـى خـلـفـ المـوـعـد . وـعـلـى ذـكـرـ الشـيخ هـل تـعـرـفـ أـنـى سـمعـتـه أـمـسـ يـقـولـ : إـنـ الغـنـاءـ حـرـامـ ! فـقـلتـ مـقـاطـعاـ : قـبـحـكـ اللـهـ وـقـبـحـهـ ! وـهـلـ سـأـلـتـكـ عـنـ رـأـيـهـ فـىـ شـىـءـ ؟ خـذـ بـنـاـ أـقـرـبـ الـطـرـقـ إـلـىـ مـاـ نـبـغـىـ . . .

وسـرـنـاـ نـذـرـعـ الـطـرـيقـ بـخـطـوـاتـ فـسـاحـ ، وـاسـتـرـسـلـ الصـدـيقـ الـخـلـصـ يـقـصـ عـلـىـ ماـ أـجـهـلـ مـنـ أـحـوالـ الـبـلـدـ وـأـخـبـارـ أـهـلـهـ ، فـلـمـ قـارـبـنـاـ غـايـتـنـاـ طـالـعـتـنـاـ دـقـاتـ طـبـلـ مـزـعـجـ ، وـضـوـضـاءـ مـبـهـمـةـ مـخـتـلـطـةـ ، وـنـظـرـتـ إـلـىـ صـاحـبـىـ فـرـأـيـتـ عـلـائـمـ الـكـدـرـ مـرـسـومـةـ عـلـىـ وـجـهـهـ وـهـوـ يـتـمـمـ : هـذـهـ حـفـلـةـ زـارـ سـتـؤـذـنـاـ بـضـجـتـهـاـ ! فـقـلتـ لـهـ : فـىـ بـيـتـ مـنـ هـذـهـ الـحـفـلـةـ ؟ قـالـ : فـىـ بـيـتـ فـلـانـ ! قـلتـ : يـاـ عـجـبـاـ ! إـنـ فـلـانـاـ هـذـاـ رـجـلـ عـاقـلـ فـمـاـذـاـ دـهـاـ ؟ . قـالـ : إـنـهـ مـاتـ مـنـ زـمـانـ ! وـقـدـ مـاتـ اـبـنـهـ مـنـذـ عـدـةـ أـشـهـرـ . مـسـكـينـ هـذـاـ الـابـنـ الـمـنـكـودـ الـحـظـ ! لـقـدـ ذـهـبـ لـأـوـلـ مـرـةـ فـىـ حـيـاتـهـ مـعـ تـرـحـيـلـةـ مـنـ هـذـهـ «ـالـتـراـحـيـلـ»ـ الـتـىـ يـتـغـربـ فـيـهاـ الـأـطـفـالـ صـغـارـاـ ، ثـمـ عـادـ مـنـهـاـ فـلـمـ يـقـضـ مـعـ أـمـهـ عـدـةـ أـسـابـيعـ حـتـىـ سـمـعـنـاـ نـبـأـ وـفـاتـهـ . - فـقـلتـ : وـبـقـيـتـ الـأـمـ الـشـكـلـيـ وـحـدـهـ ؟ - قـالـ : نـعـمـ ! وـعـرـفـتـ فـىـ قـرـارـةـ نـفـسـىـ سـرـ الـزـارـ فـىـ هـذـاـ الـبـيـتـ الـمـنـكـوبـ : إـنـ أـعـصـابـ الـزـوـجـةـ تـصـدـعـتـ لـفـقـدـ زـوـجـهـاـ ؛ فـلـمـ شـبـ وـلـدـهـاـ عـنـ الطـوقـ ، وـبـدـأـ يـحـمـلـ تـكـالـيفـ الـمـعـيـشـةـ ، وـيـسـعـىـ لـيـعـولـ نـفـسـهـ وـأـمـهـ ، بـدـأـتـ الـأـمـ يـعـاـوـدـهـاـ الـأـمـلـ فـىـ الـحـيـاةـ ! وـإـذـاـ بـهـذـاـ الـأـمـلـ يـنـطـفـئـ ، وـيـشـوـىـ فـىـ مـقـبـرـةـ ضـمـتـ رـفـاتـ وـلـدـهـاـ بـعـدـ رـفـاتـ بـعـلـهـاـ ، فـاعـتـرـاهـاـ مـنـ تـواـصـلـ الـأـحـزـانـ ، وـضـنـكـ الـمـعـاـيشـ ، مـاـ جـعـلـهـاـ تـتـشـنجـ وـتـرـنـجـ ، فـلـمـ يـعـرـفـ أـقـرـبـاؤـهـاـ إـلـاـ مـوـسـيـقـىـ الـزـارـ ، يـداـوـونـ بـهـاـ الـمـرـأـةـ الـتـىـ خـالـطـهـاـ الشـيـطـانـ ، وـمـاـ مـسـهـاـ فـىـ الـحـقـيـقـةـ إـلـاـ شـيـطـانـ الـمـأـسـىـ وـالـكـرـبـاتـ . لـعـنـهـ اللـهـ . . .

مشـيـتـ مـطـرـقـ الرـأـسـ ، وـئـيـدـ الـخـطاـ ، ثـمـ صـحـوتـ عـلـىـ صـوتـ رـفـيـقـىـ يـقـولـ : إـنـ الشـيـخـ مـأـذـونـ الشـرـعـ أـفـتـىـ بـأـنـ الـزـارـ حـرـامـ ، وـسـيـحـدـثـكـ كـثـيرـاـ فـىـ الـمـجـلـسـ عـنـ مـضـارـ هـذـهـ الـبـدـعـةـ . فـقـلتـ لـهـ - وـقـدـ صـمـمـتـ عـلـىـ شـىـءـ - : اـسـمـعـ ، لـنـ أـسـتـطـعـ الـوـفـاءـ بـمـوـعـدـ الـلـيـلـةـ . فـاـذـهـبـ ، وـاعـتـذـرـ عـنـ لـخـضـرـةـ الـعـمـدةـ وـلـخـضـرـةـ الشـيـخـ مـأـذـونـ الشـرـعـ وـلـسـائـرـ الرـفـاقـ ! .

وفي صبيحة الغد ، أرسل إلى العمدة يستبئن لِمَ تخلفت ؟ ويدعوننى إلى تناول الغداء مع رفاق الأمس على مائدة الكريمة . وفي الموعد المحدد كنت تجاه مائدة حافلة ، ترف عليها بشاشة النعمة ، وتنعقد فوقها روائح شتى من الأطباق المنضودة ، والأطعمة الممدودة ، وعلى أطراف الخوان أزهار ورياحين تعبر بها أصابع الرجال الجالسين في قلة اكترات ، المتهيئين للأكل والشرارة فحسب . فلما ضمنى المجلس العاشر بمرحه ، الصاخب بضمكه ، استشعرت التناقض الواضح ، بين ما رأيت وما أرى ، وتذكرت الأسى الشائع في جو القرية ، والصاخ بمعانى الحرمان في حياة أولئك الفلاحين المساكين ، وبرز أمام عينى شبح الشقاء الجاثم في صدورهم ، فأعادت النظر إلى الوجوه المبعثرة حولى ، ورأيت أسارير منفرجة ، وملامح طافحة بالبشر ، ثم قال العمدة بلهجته الآمرة : يا ولد ، افتح الراديو ، نريد أن نسمع . وإن كان الشيخ المأذون سيتضايق لأن يكره الغناء ! فأرسل المأذون جشاء طويلاً ثم قال : إن الشرع الشريف هو الذي ينهى عنه أليس كذلك يا .. وقبل أن يوجه الحديث إلى كان المستمعون الكرام وعلى رأسهم صاحب الحفلة المضيف يتداولون الضحك العالى ، وهم يكرعون من أنس المجلس ، ومداع الحياة ، وصفاء العيش ، ما يستطيعون من ذلك كله !! وصوت الراديو ينطلق في الجو السكران بما فيه ومن فيه قائلاً :

أوع تزععل ثانية صحتك بالدنيا !

وأحس «مأذون الشرع» بالحرج ، فقال لي مستنجداً : أليس كذلك ؟ أنت مثل الدين بينما فتكلم باسم الدين . فقلت ساخراً : كان للدين سفراء يمثلونه عند رجال الدنيا . أما اليوم فعند رجال الدنيا أقوام يمثلون باسم الدين ! لكنهم للأسف يمثلون أدواراً هازلة ! فقال الرجل : إنى أسأل عن حكم الشرع الشريف . فقلت : تسأل عن حكمه فى أشياء قد تخدش أظافره ، أما الأشياء التي تدق عنقه ، و تستأصل من الأفءة جذوره ، فلا تسأل عنها ، ولا يسأل عنها أحد ! وهذه الفوضى الاجتماعية التي طغت على بلادنا ، وعبثت فيها بكل المقررات الدينية والعقلية ، وطحنت قلوب الجماهير المعدبة ، ألا يستفتى فيها الدين يوماً ما ليقول حكمه الحق ؟

ثم قمت في غضب وأغلقت الراديو ، فحبست صوت المرح المهاجر عن القوم المرحين ، وتبسم العمدة بهذه الحركة ، وضاق المأذون بما سبقها من كلام ، فانصرفت وفي مشاعرى غليان مكتوم .

لقد أيقنت أن هناك عوامل مدبرة ، تدفع الناس إلى الجدل الطويل في مسائل الدين الصغرى ، لتصرفهم عن ملاحظة المشاكل الخطيرة التي يتعرضون لها في دينهم ودنياهم ، حتى خُيِّلَ إِلَيْهِ أن الاشتغال بهذا السفساف طابور خامس للإِلحاد والفجور والبغى في الأرض . ولقد وظفني القدر في الوعظ والنصيحة والإِفتاء ، فما أعجب ما رأيت ووعيت .

أقول للناس : سلوني في الجد ، فيسألونني في الهزل ، أريد أن تستفتوني في المبكيات ، فلا أجدهم عندي إلا للاستفقاء في المضحكات .

وهم - ولا أدرى لم ؟ يسألون عن حكم الحِلّ والحرمة في لقمة خبز ، ولكنهم يرفضون أن يسألونني عن الحكم نفسه في قطعة أرض ، لأن اختصاصي - وقد يكون اختصاص الدين - لا يتعدى القروش وألاف القروش إلى الأفدنـة وألاف الأفدنـة ! . فإذا كانت الحادثة سرقة من جيب أو اختلاساً من بيت وجدت الفتوى بقطع اليـد ماثلة . أما السـرقـات الكـبـرى حيث لا تـتوـافـر الشـروـط الشـكـلـية لـلـجـريـة فـلا قـطـعـ ولا انـقطـاعـ ، ولـيـنـعمـ بـذـلـكـ بـالـأـمـرـ !

إن هناك شعوبًا مسروقة تحت الشمس ، وطوائف مغصوبة في وضح النهار . وإن الله تعالى ليـرـقـبـ من عـلـيـائـهـ كـيفـ يـعـمـلـ الدـيـنـ لـإـحـقـاقـ الـحـقـ وإـزـهـاـقـ الـبـاطـلـ .

دخلت فاطمة زوجة عمر بن عبد العزيز يوماً عليه وهو جالس في مصلاه ، واضعاً خده على يده ، ودموعه تسيل على خديه فقالت : مالك ؟

قال : ويحك يا فاطمة ، قد وليت من أمر هذه الأمة ما وليت ، فتفكرت في الفقير الجائع ، والمريض الضائع ، والعاري المجهود ، واليتيم المكسور ، والأرملة الوحيدة ، والمظلوم المقهور ، والغريب والأسير ، والشيخ الكبير ، وذى العيال الكبير والمال القليل ، وأشباههم في أقطار الأرض وأطراف البلاد ، فعلمت أن ربى عزوجل سيسألنى عنهم يوم القيمة ، وأن خصمى دونهم محمد ﷺ ، فخشيت أن لا يثبت لى حجة عند خصومته فرحمـتـ نـفـسـىـ .. فـبـكـيـتـ .

**

٣ - رقيق الأرض...كيف يموت؟

● ثمن النخيل:

لاحت لعيني النخلات الباسقات ، المنبعثة من فناء الدار ! ورأيت طلعها النضيد متذلياً على عراجينها لما يحمر بعد ؛ فخطوت إلى الأمام في تؤدة ، غير أن أفكارى كانت تدور على نفسها لا يعقد بينها نظام ترى كيف سأجد الرجل الراقد في فراشه منذ أسابيع ؟ إن مرضه استنفذ مالديه من مال ! ثم تصاحكت في مرارة وأنا أقول : مال ؟ وأى مال يمتلكه هذا المسكين الذي يشق طريقه في الحياة شبراً شبراً ، ويuarك في ميدان لا يجد في أرضه ولا في سمائه ولا فيما بينهما إلا التنكر والعدوان ،وها قد سقط مريضاً كما يسقط الجندي الباسل في معركة لا شرف فيها ولا إباء ولا نجدة ! ورجعت بصرى إلى النخلات الباسقة وقد أقتربت مني كثيراً ، بعد قليل سأكون عند مغارسها ! في صحن الدار التعسة ، وإلى جانب رب الدار الثاوي فيها بين الحياة والموت !! ووجلت حارة ضيقة ، ثم وقفت على وصيـد (*) مهجور ، وقرعت الباب بلطف ، فارتفع صوت يقول لي : تفضل . صوت اجتهد صاحبه أن يعطيه شيئاً من القوة ، لا قوة الجسم ! فإن الجسم متخاذل سقيم ، ولكنها قوة النفس التي تعتبر عواد المريض ضيوفاً يجب أن يقابلوا بترحاب وبشاشة ، مهما بلغ من غض الزمن وإختار اليد !

ودخلت متصنعاً الابتسام والتفاؤل ، وجلست على الحصير إلى جواره أسئله وأداعبه ، بيد أن هذا التمثيل المتكلف لم يخفِ من جوانب الحقيقة الكريهة شيئاً ! فقد كان الرجل الممد يعاني آلاماً مبرحة ولم تكن علته من داء واحد بل تظاهرت عليه أمراض عديدة نبتت كلها أو جلها من سوء التغذية ، وطول الإرهاق ، وفساد الحياة ، وظلم البيئة ، وتركته هذه الأمراض كأمثاله من الفلاحين البائسين خشن الجلد ، مغضن الجبين ، مشوه الملامح ، لا تقاد تضربه نزلة برد حتى يستسلم لها . كأنه ابن سبعين سنة لا شاب لا يتجاوز بعد الثلاثين !! وهمس المريض يقول : لقد ذهبوا بي أمس إلى الطبيب ..

(*) وصيـد : فناء أو حظيرة .

قلت : وماذا قال لك ؟

قال : أخذ الأجر وكتب لي دواء ذهب أخى الصغير لاستحضاره من البندر .

قلت : وكم كلفك ذلك كله ؟

قال : مائة وثلاثون قرشاً ! وكأن الرجل لمح فى سؤالى استفساراً آخر عن مصدر هذا المال الذى هبط عليه فجأة وحالته كما أعلم - فقال :

جاء أحد تجار الفاكهة واشترى منى ثمار النخيل عند نضجها وأعطانى هذا المبلغ من الثمن . فرفعت عينى إلى النخيل الساقمة ، والمريض يتبع حديثه المتقطع فى إعفاء وحزن قائلاً : كنت أرجو أن أشتري بثمنها غذاء للأولاد لا دواء لي . وسكتنا جميعاً وأنا أسئل نفسى أكان غارس هذه النخيل يعلم أن أولاده ستدركهم هذه التعasse فى ظلها ؟ لكنه كفلاхи مصر جميعاً يعملون للعمل وحده . عليهم التعب ولغيرهم الربع . . . وقرع الباب ودخل الأخ الصغير يحمل فى يده لفافة صغيرة فضضاها عن حبوب وأقراص وزجاجات نظر إليها المريض نظرةأمل ونظرت إليها وأنا موقن بأن ثمرات النخيل قد تقاسم ربحها طبيب وصيدلى ! ماذا تصنع هذه الحبوب والسوائل فى علاج رجل علته طول الجموع وطول الجهد ؟

لقد تلفت أحجزته وأعضاوه لطول ما جرعت الماء الملوث ، وأكلت الطعام التافه ، وطحنتها وطأة العمل فى الحر والقر ، فسئمت الكلى والكبد والمعدة هذه الحال وتوقفت عن العمل ، فهل ستكرهها إلى العودة فى مجرها هذه السوائل التافهة ؟ لا أظن ! وإن كان المريض قد اشتراها بثمار نخلاته جميعاً ! . . . واستأذنت إلى عودة قريبة . . .

● بين الدين والدنيا:

وبعد أيام قلائل كنت فى الغرفة الكئيبة أتفرس فى ملامح الرجل المسجن على فراشه يتلوى ويستكوى ، وسمعته يتمتم ، أن الدواء الغالى لم يرد إليه شيئاً من صحته المفقودة ! وزراعته فى حقله معطلة لا تجد من يعنى بها . قلت له :

لا تجزع ، ولا تضاعف أحمال الهموم على كاهلك ، وعسى أن يعقب هذه الأزمة فرج قريب . فقال لي - وأنفاسه لاهثة وجبينه المغضن يرشع بالعرق وينضح بالجهد - :

لقد يئست تماماً من حالي ، ولقد بعت محصول العام في ثمن الدواء فلم ينفعني .
وضاقت الدنيا بي كما ترى ، وبقي شيء واحد تقدمه لي من عند الله .

قلت : ما هو ؟

قال : تكتب لي آيات من المصحف في تعويذة مطهرة ! فلعلها تشفى سقامي .
فهزت رأسي في أسف يكاد يفطر فؤادي .

قلت : أتحسب أن هذا ما يقدمه الله لك في حالتك هذه يا صديقي ؟ إذن لهانت
الأديان كلها إن كان هذا مبلغ ما تسعفك به !!

لقد أكل أبناء الدنيا اللئام ما زرعت في حقولك ، وما غرس أجدادك في بيتك ،
وأعقبوك هذا المرض اللعين ، أفتحسب أن الدين يقيك هذا السوء بالتمائم والرقى ؟ إن
التعاويذ بجسده الضارى كأقراص الدواء لبطنك الخاوى لا تفيد شيئاً أبداً !

بيد أن المريض المتعلق بخيط الأمل ذهل عن هذا الكلام فلم يع منه شيئاً ، وعاد
إلحاحه ! ماذا أقول له ؟ إن آيات الله المنزلة على أنبيائه كلهم لا تصلح بتعليقها ، إنما تصلح
بتطبيقها . وما ذهب هذا الرجل إلا ضحية مجتمع منافق ، يتظاهر بتقديس الوحي
واحترام صحائفه ، في الوقت الذى يسير فيه على سُنن من الإلحاد والجهالة واللؤم . . .

وهذا الشرق الذى نعيش فيه له نقائض خانقة ؛ إن الحاكم فى قصره قد يستمع إلى
آيات القرآن فيهز لها رأسه تأثراً ، ويغمض عينيه تخشعًا ، في الوقت الذى يمضى فيه
أوراقاً تحمل للناس أقبح المظالم وتوقع بهم أشنع المآثم !!

وقد تجد الشرى من هؤلاء المترفين يحتفى بعلماء الدين ، ويحف لاستقبالهم
وإكرامهم في الوقت الذى لا يحبس فيه فقط حقوق الفقراء في ماله بل يغتال حقوق
العمال في أرضه . إن عقليتهم المريضة أخذت الدين تمايم وهممات وأدعية فلم يزد هم
الدين إلا مرضًا ، ولم تزدهم تعاليمه إلا رجسًا ، وتطهير هؤلاء جميعاً لن يتم إلا
بتطهير الأرض منهم .

وحانت مني التفاتة إلى المريض الباسط يده في ضراعة فإذا به قد لحقته غشية من
غضبات المرض ، فقمت عنه بعد أن دعوت أخيه الصغير للعناية به .

ولست أدرى كيف سيعني به ؟

● في عداد المجاهيل؟!

في المساء عرفت أن الرجل مات ، فأيقتنـتـ أن الموت أحياناً يكون طيباً رحيمـاً حاسماً لأعـصـى الآلام على العـلاجـ . فـلـمـاـ ذـهـبـتـ إـلـىـ الـبـيـتـ الشـاـكـلـ سـمـعـتـ أـنـيـناـ مـكـتـومـاـ وـرـأـيـتـ وـحـشـةـ بـادـيـةـ .

وـفـوجـئـتـ بـالـجـثـةـ مـحـمـولـةـ عـلـىـ أـعـنـاقـ نـفـرـ منـ الرـجـالـ القـلـائـلـ الـذـيـنـ يـمـتوـنـ إـلـىـ الـفـقـيدـ بـصـلـةـ الـقـرـابـةـ أوـ الـجـوارـ .

وـمـاـ هـىـ إـلـاـ سـاعـاتـ حـتـىـ كـانـ الرـجـالـ قـدـ فـرـغـواـ مـنـ عـلـمـهـ ، وـرـأـيـتـهـ فـىـ جـلـابـيـبـهـ الـزـرـقـ يـعـودـونـ مـنـكـسـرـةـ قـلـوبـهـمـ مـكـلـوـمـةـ أـفـئـدـتـهـمـ ، يـتـبـادـلـونـ كـلـمـاتـ العـزـاءـ وـالـتـصـبـرـ !

قلـتـ لـنـفـسـىـ : أـهـكـذـاـ تـنـتـهـىـ حـيـاةـ رـجـلـ قـضـىـ عـمـرـهـ فـىـ الـكـفـاحـ وـالـعـمـلـ ؟ـ لـكـأنـهـ جـنـازـةـ شـقـىـ حـكـمـ عـلـيـهـ بـالـإـعدـامـ ، وـمـنـعـتـ الـحـكـوـمـةـ الـاحـتـفالـ بـموـتهـ !ـ مـاـ أـقـلـ الـمعـزـينـ وـالـمـشـيـعـينـ !ـ وـمـاـ أـهـوـنـ وـقـعـ النـعـىـ عـلـىـ آـذـانـ النـاسـ !ـ وـمـاـ أـقـلـ اـكـتـرـاـتـهـمـ لـهـ !ـ لـقـدـ عـاشـ الرـجـلـ فـىـ صـمـتـ وـمـاتـ فـىـ صـمـتـ فـلـمـ يـبـكـهـ إـلـاـ الـقـلـيلـ !

بـلـىـ !ـ بـكـتـهـ السـمـاءـ التـىـ طـالـمـاـ نـظـرـ إـلـيـهـ شـاكـيـاـ ، وـالـأـرـضـ التـىـ طـالـمـاـ انـحـنـىـ عـلـيـهاـ مقـاسـيـاـ !ـ وـبـكـاهـ حـقـلـهـ الـذـىـ طـالـمـاـ حـوـلـ مـاـ فـيـهـ مـنـ طـيـنـ إـلـىـ وـرـدـ وـرـياـحـينـ !ـ وـبـكـتـهـ النـخـيلـ التـىـ غـرـسـهـاـ أـجـدـادـهـ فـلـمـ يـسـتـفـدـ مـنـهـاـ أـجـدـادـ وـلـاـ أـحـفـادـ . . .

وـأـقـبـلـ الـلـيـلـ عـلـىـ أـسـرـةـ صـغـيرـةـ تـبـكـىـ رـبـهـاـ الـذـاـهـبـ ، وـتـنـظـرـ إـلـىـ مـسـتـقـبـلـهـاـ نـظـرـةـ بـارـدةـ ، إـلـهـ لـنـ يـكـونـ أـسـوـأـ مـنـ مـاضـيـهـاـ عـلـىـ أـيـةـ حـالـ .ـ لـقـدـ ذـهـبـ رـجـلـهـمـ فـىـ عـدـادـ الـمـجـاهـيلـ مـنـ أـلـوـفـ الـفـلـاحـينـ الـذـيـنـ يـبـرـيـهـمـ الـعـمـلـ ، وـيـقـتـلـهـمـ الـجـحـودـ ، وـيـتـنـكـرـ لـهـمـ سـادـةـ الـأـرـضـ ، فـلـاـ يـجـدـونـ الـرـاحـةـ المـنـشـودـةـ إـلـاـ فـىـ بـطـنـ الثـرـىـ بـعـدـ عـذـابـ طـوـيلـ .

وـفـىـ أـوـبـتـىـ سـمـعـتـ نـاعـىـ الـأـمـوـاتـ فـىـ الـقـرـيـةـ يـصـرـخـ بـصـوتـ عـالـ ، كـأنـهـ نـذـيرـ حـربـ !ـ فـقـلـتـ : لـعـلـ أـوـدـيـةـ الـمـوـتـ اـسـتـقـبـلـتـ طـارـقـاـ جـديـداـ ، وـصـحـ ماـ تـوـهـمـتـهـ يـظـهـرـ أـنـ الـمـوـتـ أـنـشـبـ أـظـافـرـهـ فـىـ صـيـدـ دـسـمـ ، فـإـنـ الـاـسـمـ المـنـعـىـ إـلـىـ النـاسـ اـسـمـ رـجـلـ مـنـ عـلـيـةـ الـقـوـمـ ، أـعـرـفـهـ جـبـارـاـ عـنـيـدـاـ مـنـ الـمـلـاـكـ الـجـبـابـرـةـ فـىـ هـذـهـ النـاحـيـةـ فـقـلـتـ : لـعـلـ الـقـدـرـ شـاءـ أـنـ يـفـسـرـ لـنـاـ حـدـيـثـ الرـسـوـلـ ﷺـ وـقـدـ مـرـ أـمـامـهـ بـجـنـازـةـ - فـقـالـ : «مـسـتـرـيـحـ وـمـسـتـرـاحـ مـنـهـ».ـ قـالـوـاـ : يـاـ رـسـوـلـ اللـهـ ، مـاـ مـسـتـرـيـحـ وـمـاـ مـسـتـرـاحـ مـنـهـ ؟ـ قـالـ : الـعـبـدـ الـمـؤـمـنـ يـسـتـرـيـحـ مـنـ نـصـبـ الدـنـيـاـ وـوـصـبـهـاـ ، وـالـفـاجـرـ يـسـتـرـيـحـ مـنـهـ الـعـبـادـ وـالـبـلـادـ وـالـشـجـرـ وـالـدـوـابـ . . .»ـ .

أجل .. لقد وضع الموت حداً لآلام صاحبى الفلاح الفقير . أما هذا الوجيه الذى هلك فى هذه القرية البائسة ، القرية التى استهلك أهلها قبل أن يقصمه القدر ، فقد استراح منه حقاً كل شيء .. من العباد والبلاد ، والشجر والدواب .

● موت.. وموت:

وطلع الصباح فكان يوماً مثيراً فى حياة القرية بما ضم من مناظر كثيرة لم يألفها الريفيون ! حضر البasha صهر الوجيه الهالك ، وصاحب المقاطعة المترامية الأطراف ، وسيد أولئك الفلاحين الذين يعملون له ولا يرونـه ، واقتضـت عظمـته وتقـالـيد الأسرـة أن تكون الجناـزة مظـاهـرة كـبرـى يـحـشـدـ فيهاـ أـعـيـانـ القرـىـ المجـاـورـةـ ، وـتـزـدـحـمـ فيهاـ الجـمـاهـيرـ المشـدوـهـةـ ، وـيـشـتـغـلـ فيهاـ أـصـحـابـ الـجـلـابـيبـ الـزـرـقـ بـخـدـمـةـ الـوـفـودـ الـمـتـابـعـةـ ، لـقـدـ نـسـواـ فـيـ غـمـرـةـ الـحـادـثـ الـجـدـيدـ زـمـيلـهـمـ الـذـيـ كـانـ مـنـذـ حـينـ قـرـيبـ بـيـنـ أـكـفـهـمـ يـهـيـلـوـنـ عـلـيـهـ التـرـابـ فـيـ سـكـونـ وـرـيـةـ ، وـمـاـ فـكـرـ أحـدـهـمـ قـطـ فـىـ أـنـ يـقـارـنـواـ بـيـنـ مـوـتـ وـمـوـتـ ! وـأـنـىـ لـهـمـ ذـلـكـ وـهـمـ لـمـ يـفـكـرـواـ سـاعـةـ أـوـ يـقـارـنـواـ بـيـنـ حـيـاةـ وـحـيـاةـ ! حـيـاةـ السـادـةـ وـحـيـاةـ الرـقـيقـ ... حـيـاةـ النـاعـمـينـ وـحـيـاةـ الـكـادـحـينـ !

إن طول ما ألفوا الهوان واستكانوا له ، أوقع فى روعهم أن الدنيا هكذا قسمة ضئى وشقاء مقيم ! ثم جاء المسـاءـ ، وـكـنـتـ أـسـيرـ الـهـوـيـنـىـ فـىـ حـارـاتـ القرـيـةـ الـهـامـدـةـ ، فـأـبـصـرـتـ سـرـادـقـ فـخـمـاـ تـقـعـ فـىـ جـوـفـهـ وـأـمـامـهـ الشـرـياتـ الـبـراـقةـ ، وـيـنـبـعـثـ مـنـهـ صـوـتـ المـذـيـعـ القـوىـ .

وـالـفـلاـحـونـ يـتـهـامـسـونـ بـعـبـارـاتـ لـمـ أـتـبـيـنـهـاـ ...ـ مـنـ يـدـرـىـ ؟ـ رـبـماـ كـانـواـ يـتـنـاجـونـ بـسـيـرـةـ الـفـقـيـدـ السـيـئـةـ ، وـمـاـ خـلـفـ بـيـنـهـمـ مـنـ مـظـالـمـ ، وـمـاـ قـدـمـ لـنـفـسـهـ مـنـ آـثـامـ ! وـارـتـفـعـ صـوـتـ الـقـارـئـ فـىـ السـرـادـقـ يـحـيـىـ لـيـالـىـ الـمـأـتمـ ، فـتـلـاـ هـذـهـ الـآـيـاتـ :

﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ * مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾⁽¹⁾.

وـخـيـلـ إـلـىـ - وـأـنـاـ أـسـمـعـ عـلـىـ الـبـعـدـ - أـنـ الـبـاشـاـ الـكـبـيرـ كـانـ يـسـتـمـعـ إـلـىـ هـذـهـ الـآـيـاتـ فـىـ تـخـشـعـ وـتـخـزـنـ ظـاهـرـينـ ! .

(1) القصص : الآية ٨٣ ، ٨٤ .

من أحلام المصالحين

● مشروع القانون الإسلامي رقم ١ :

بعد الاطلاع على المادة رقم ١٤٩ من الدستور ، التي تنص على أن دين الدولة الرسمي هو الإسلام^(١) .

ومن حيث أن الإسلام يوصى بجعل منزلة أي شخص في الهيئة الاجتماعية راجعة إلى ما يقدمه لنفسه وأمته من جهد مادي وأدبي . وفي ذلك يقول القرآن الكريم : ﴿ وَكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوْفِيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾^(٢) .

ومن حيث إن الدين يتطلب لكل عمل حسن ، جزاء المكافئ له ، ويستنكر أن يحسن أي عامل ثم ينال جزاء سيئاً ، كما قال الله عز وجل : ﴿ هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلَّا الإِحْسَانُ ﴾^(٣) .

ومن حيث إن التقصير في العمل يوجب إهدار كرامة الشخص المادية والأدبية على ما جاء في الحديث الشريف : « مَنْ أَبْطَأَ بِهِ عَمَلًا لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسْبَةً » .

ومن حيث إن إبقاء الأموال في أيدي المتعطلين يفتح أبواب الفساد ، ويجر إلى المحرمات التي نهى الإسلام عنها .

ومن حيث إن حرمان العاملين من أجزيتهم المستحقة يهون من قيم الأعمال ، ويسلِّم مصالح الأمة .

ومن حيث إن الإسلام يعتبر من أوليات العدالة التي يدعو إليها تطهير المجتمعات من هذه الفوضى .

وبالاستناد إلى القواعد المقررة في أصول الفقه ، من أن كل ما يؤدي إلى الواجب فهو واجب ، وكل ما يؤدي إلى الحرام فهو حرام .

(١) هذا نوجز من المحاولات الإسلامية الأولى لوقف التيار الشيوعي الزاحف يومئذ ، ولا نستطيع اعتبار هذه المحاولة إصلاحاً أبداً ...

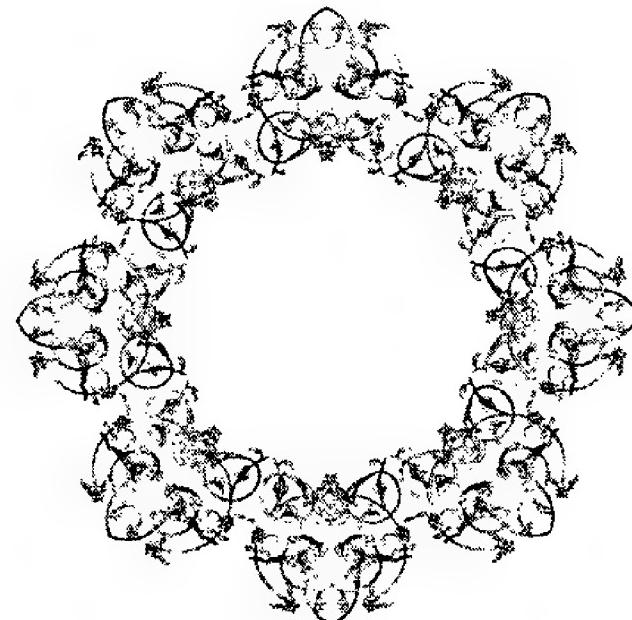
(٢) الرحمن : الآية ٦٠ .

(٣) الأحقاف : الآية ١٩ .

أمرنا بما هو آت:

- يصادر لحساب الدولة ما يزيد على مائة فدان من جميع التفاصيل والإقطاعات والعزب التي يستغلها الأفراد لحسابهم الخاص .
- يحرر رقق الأرض ويملكون من المزارع ما يوازي جهودهم المبذولة .
- يشغل المالك السابقون فيما يصلحون له من أعمال ، ويعطون ما يستحقونه من أجور .
- تساهم الدولة بأكثر من النصف في تملك جميع الشركات الاقتصادية العامة وإدارتها .
- يوضع كادر متقارب الفئات للعمال ورؤسائهم وأعضاء المجالس الإدارية للشركات .
- كل من ثبت عليه استغلال عامل زراعي أو صناعي يعاقب بالجلد والسجن وتصادر الأموال التي استولى عليها .
- يعمل بهذا القانون من تاريخ نشره بالجريدة الرسمية .

ترى ؟ هل تصدق الأحلام ؟؟



في صَمِيمِ السِّيرَةِ

● معالم النبوة:

كما يرصد علماء الفلك من أرضهم القريبة أجرام السماء العالية ، وكواكبها القاصية .
وكما يستطيعون بآلاتهم الصغيرة ووسائلهم القصيرة ، أن يعطوا فكرة عن أبعادها
وأحجامها وأشعتها وداراتها . . .

كذلك نرصد نحن أصحاب النفوس المحدودة والموهوب المعتادة - معالم النبوة الحمدية في
أفقها السامي ، ثم نتحدث عن أشعتها الهدادية ، وأمجادها الرفيعة ، وأثارها الخالدة ، كما
يتحدث السائرون في النهار عن ضحوة الشمس ، أو السائرون بالليل عن ضياء البدر ،
أو حديث الأذهان الكليلة عن العبريات الملهمة ، والأقدار الهزيلة عن الأقدار المعلمة .

ولن نمثل للناس من معالم النبوة إلا أطراً يسيرة ، ومهما اجتهدنا في تصويرها فلن
نعدو قول البوصيري :

إِنَّا مُثْلِّذُوا صَفَاتِكَ لِلنَّاسِ كَمَا مُثْلِّذُ النَّجُومُ الْمَاءِ !

لقد مضت قرون طوال على ظهور محمد ﷺ في التاريخ .

ولكن الآثار الغائرة والأحداث العميقـة التي خلفها من بعده لا تزال قائمة ولن تزال كذلك .
فالآمة التي صنعها بيديه ، والرسالة التي أوحـيت إـليـه ، هـى أشرف موارـيث الإنسـانية طـرـأـ .
وسـيـمـوجـ العالم بـعـضـهـ فـيـ بـعـضـ ، وـتـصـطـرـعـ مـذـاهـبـ وـأـرـاءـ ، وـتـتـفـانـىـ شـعـوبـ وـأـجيـالـ ،
وـيـبـقـىـ بـعـدـ ذـلـكـ دـيـنـ مـحـمـدـ الـعـظـيمـ ، يـبـقـىـ الـرـبـوـةـ الـعـاصـمـةـ مـنـ الغـرقـ فـيـ هـذـاـ الطـوفـانـ الـفـوـارـ .
وـسـيـبـحـثـ الـعـالـمـ كـلـهـ عـنـ الـحـقـ وـالـسـلـامـ وـالـعـدـالـةـ .

ومهما أجهـدـ نـفـسـهـ فـلـنـ يـجـدـ إـلـىـ ذـلـكـ سـبـيـلاـ ، إـلـاـ إـذـاـ عـرـفـ الطـرـيقـ إـلـىـ مـحـمـدـ عـلـيـهـ الصـلـاةـ
وـالـسـلـامـ ، فـمـشـىـ عـلـىـ سـنـتـهـ ، وـاسـتـقـامـ عـلـىـ هـدـيـهـ ، وـاسـتـظـلـ بـلـوـائـهـ ، وـأـلـقـىـ إـلـيـهـ السـلـمـ . . !!

أـجلـ ، لـقـدـ قـطـعـتـ الـإـنـسـانـيـةـ ثـلـاثـةـ عـشـرـ قـرـنـاـ أوـ يـزـيدـ بـعـدـ رـسـالـةـ مـحـمـدـ عـلـيـهـ الصـلـاةـ ،
وـخـطـتـ الـخـضـارـةـ أـشـواـطـاـ فـسـيـحـةـ إـلـىـ الـأـمـامـ ، وـاطـرـدـتـ سـنـةـ التـطـورـ فـيـ كـلـ شـيـءـ . وـقـدـ
يـقـالـ : مـاـذـاـ يـصـنـعـ دـيـنـ ، أـوـ مـاـذـاـ تـصـنـعـ الـأـدـيـانـ جـمـلـةـ ، وـقـدـ جـاءـتـ فـيـ الـعـصـورـ الـوـسـطـىـ
وـنـحـنـ الـآنـ فـيـ عـصـورـ أـخـرىـ ?

وهذا تساؤل يملئه الجهل بطبيعة الإسلام الحنيف !

ذلك أن الإسلام دين الحقيقة ، والحقيقة لا تتغير وإن تغيرت الأزمنة والأمكنة .
وما هو ثابت في نفسه يستوي في ضرورة العلم به ، أن يكون عند بدء الخلق أو عند قيام الساعة ..
والإسلام جملة من الحقائق التي تتعلق بالعقيدة ، وبالفكر ، وبصلات الناس
بعضهم ببعض ، أو صلاتهم جميعاً بالخالق جل وعلا .

ولو أن ديننا نزل إلى الناس في هذه الأعصار أكنت تحسبه ينقض مبدأ التوحيد في
العقيدة . أو مبدأ الأخوة في المجتمع ؟ أو مبدأ التعارف بين الأمم ؟ أو قانون العدالة في
الأحكام ، والفضيلة في الأخلاق ؟

أو الصلاح النفسي الذي لا يضماني له بين عامة الناس إلا بضرور العادات وصور الطاعات ؟

أو تحسبه يعترف بضرورة الشهوة بين الأفراد ، وضرورة القوة بين الأمم ؟

كلا كلا ! فلو أن محمدًا ﷺ جاء الإنسانية في أمسيها القريب أو يومها الحاضر ،
أو لو أن عشرات النبيين انطلقوا من بعده بين المدائن والقرى مبشرين ومنذرين ، ما
عدوا حدود القرآن في هديهم ، ولا تجاوزوا حلوله السمححة في المشاكل التي تعترضهم .
فإن هذا الدين جعل الله فيه خلاصة للأديان السابقة ، وغناء عن الشرائع اللاحقة .
وان محمدًا ﷺ صاحب الرسالة العظمى هو أمل العالم في يومه وغده ، وكتابه هو
الدواء الفذ لما أصاب العالم من دوار ، ولما اعتبرى خطواته من عثار .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيرًا * وَدَاعِيَا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسَرَاجاً مُّنِيرًا * وَبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا * وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ (١) .

* * *

ومن معالم النبوة ظهور محمد ﷺ برسالته هذه ، في تلك البقعة بعينها من صحراء الجزيرة ،
فأنتم لا تعجب للزهرة النابضة في الرياض الزاهرة والحدائق النضرة ، ولكنكم تعجب لها أشد
العجب عندما تراها مستوية على ساقها في صميم الصحراء القاحلة ، وفي مهب الرياح السافية .

فكيف والأمر ليس زهرة واحدة ولا زهارات ؟ بل هو كما قال القرآن :

﴿ كَرَرَعَ أَخْرَجَ شَطَاءَ فَأَزْرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَاعَ ﴾ (٢) .

(١) الأحزاب : الآية ٤٥ - ٤٨ .

(٢) الفتح : الآية ٢٩ .

وهكذا تجدد للفكر الإنساني شبابه بعد بلى وانحلال ، وعادت للحضارة الإنسانية قوتها بعد ركود واضمحلال .

ومن أين أتتها هذه الأمداد الوافدة بالحياة ؟

من الصحراء التي لم تزدهر فيها قبل معرفة ، والتي كان ينتظر منها أن تستورد المعرف من جاراتها العريقة في الحضارة ، لا أن تقوم هي بالتصدير والإمداد !
وما انعكست الآية في قوانين الأرض إلا لأن الله عز وجل أراد أن يحدث آية من لدنه .

فلما اتصل جدب الصحراء بوحى السماء تحول إلى خصب ونماء .

فانطلق محمد ﷺ وصحابه في مشارق الأرض ومغاربها هداة مرشدین ، وبناءً مجددین .

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (١) .

وقد استمر نزول القرآن بضعًا وعشرين سنة ، كان أوله تهديدًا لآخره ، وكان آخره صديقاً لأوله .

وتعتبر تعاليم الإسلام وحدة متماسكة لا يأبهها الباطل من بين يديها ولا من خلفها .
والإسلام الذي بشر به الرسول ﷺ هو نفسه الذي دعا إليه خلفاؤه رضوان الله عليهم .
 وإنما نقول هذا الكلام لنقرر به فرقاً بين الرسالات الأرضية التي صنعوا الناس لأنفسهم ، وبين الرسالة السماوية المنزلة من عند الله .

فالديمقراطية التي نادى بها الفرنسيون ، مثلاً ، لم تكن لها حقيقة متميزة يوم كان الثوار الفرنسيون يهتفون لها .

وقد وضعت لها دساتير كثيرة ، كانت كثرتها مثار سخرية لاذعة .

وقد قتل الثوار قادتهم ، وانتهت ثورتهم بإمبراطورية سفاكة طاغية .

ثم عادت مرة أخرى جمهورية تشرع من دساتير الديمقراطية ما تراه صحيحًا اليوم
لتعود إلى نقضه غداً !!

(١) الشورى : الآية ٥٢ .

والشيوعية التي نادى بها «ماركس» هي شيء آخر غير الذي طبقة «لينين» ، وما طبقة «لينين» شيء آخر غير الذي نفذه «ستالين» .

ولسنا ندرى ما يحمل الغد فى طياته من أطوار جديدة لها .

وذلك أمر لا يستغرب فيما يصنع الناس لأنفسهم من نظم ؛ إذ إنهم يخطئون ثم يكتشفون أغلاطهم فيداوونها بخطأ آخر .

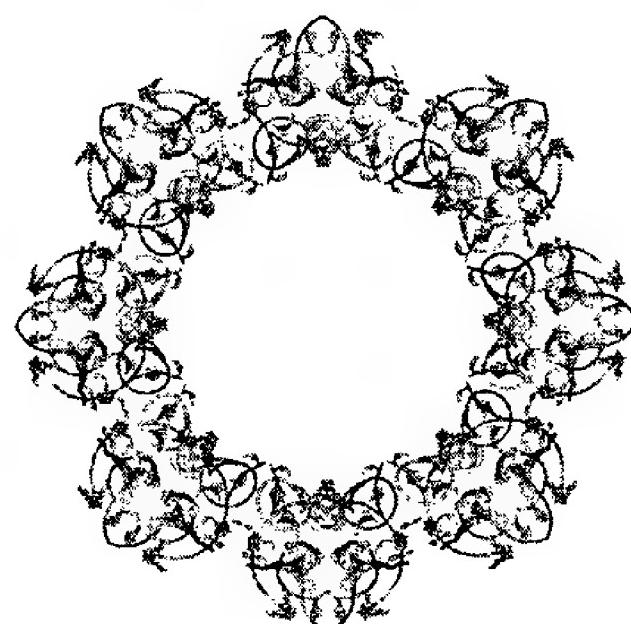
أما ما يشرع الله خلقه فهو منتهى الحكمة والرحمة ، وفيه العصمة من التجارب المريضة .
ومن ثم كانت الرسالة الإسلامية ، فى بداية الوحي وختامه ، عقداً يسلكه نظام واحد ، وينتهج خطة واحدة ، وغاية واحدة .

وهي كذلك أبد فى كل عصر ومصر !

وما نعني بهذامقارنة بين الإسلام وغيره من النظم ، ولا بين نبى الإسلام وغيره من قادة الفكر ، فالإسلام ونبىه الكريم فوق هذا .

وشتان بين السفوح والقمم !!

ألم تر أن السيف يزرى بقدره إذا قيل هذا السيف أمضى من العصا
ولكنها معالم النبوة وشارات الصدق ، تتألق فى معدنها النقى ، فتملاً نفوينا غبطة
ويقيناً ، كلما مرت السنوات ، وتجددت الذكريات .



عيد ميلاد أحمد

بين ميلاد خاتم النبيين ﷺ وميلاد موسى عليهما السلام تشابه قريب ، يرجع إلى أن الحق تبارك وتعالى حين يصطنع عبداً لنفسه ، ينشئه تنسئة لا أثر فيها للتوجيه الناس ، ولا محل فيها لرعايا أحد من الأقربين أو الأبعدين ، ولا حاجة فيها للتدخل العباد ما دام الأمر - من قبل ومن بعد - يخص السيد وحده !

ولقد فقدت أم موسى ولديها وهي لما تنته من آثار وضعه .

فهل فقد موسى عطف الوجود حين بدل من صدر أمه صدر الأمواج الهائجة المائجة ، بعد أن ألقى التابوت بوديعته الغالية في ثبع اليم الطامي ؟

لا ، لأن الله - الذي تتحقق اللجاج بتسبيحه - كان قد تكفل بكل شيء عندما قال :

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفْتَ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزِنِي إِنَّا رَادُوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾^(١).

وكذلك كان حال محمد ﷺ في بحر الحياة ، ولكن كانت معجزة موسى في طفولته محسوسة لقد كانت معجزة محمد ﷺ - كشأن رسالته - لطيفة معقوله .

مات أبوه الشاب ولم تسعد عيناه برؤية أعظم طفل دفعت به أرحام الأمهات إلى أن يirth الله الأرض ومن عليها .

وبرز «اليتيم» العبقري إلى الوجود ، وقد فقد حنان أبيه ، ولكنه لم يفقد حنان ربه ! وما ت أمه في الطريق بين مكة والمدينة ، فأسرعت أم أمين لتحتضن طفلاً لم يتجاوز الخامسة من عمره .

طفلًا فقد أبويه كليهما ، ولكن حظه من رحمة الله يربو ويتضاعف كلما تقدم العمر . وما ت جده وأواه عمه إليه ، وكان رجلاً فقيراً نبيلاً ، فكان على اليتيم الفريد أن يعمل مع عمه ليعيش ، فتراه في العاشرة من سنيه يسافر ويتجه ويكتدح .

حتى إذا رأه أحد الرهبان ، وقد نصح إشراق روحه على قسمات وجهه ، أدرك أن أموراً في مستقبل الحياة الإنسانية ستقتضي على يدي هذا الشاب ، فهو يتساءل عنه وعن والده ثم يتمتم : ما ينبغي أن يكون أبو هذا حيَا !

(١) القصص : الآية ٧ .

وَهُبْ يَا صَاحِبِي أَنْ أَبَاهُ كَانَ حَيًّا مَاذَا كَانَ يَفْعُلُ لَهُ ؟
 لَقَدْ كَانَ يَعْقُوبَ حَيًّا ، وَأَبِي اللَّهِ إِلَّا أَنْ يَنْتَزِعَ يُوسُفَ مِنْ بَيْنِ أَحْضَانِهِ ، وَبِدَلًا مِنْ أَنْ يُتَرَبَّى فِي بَيْتِ النَّبِيَّةِ دَرَجَ بَيْنَ مَفَاتِنِ الْقَصُورِ ، وَظَلَمَاتِ السَّجْنِ ، وَأَحْاطَتْ بِهِ مِنْ لَا يَعْيَنُونَ عَلَى خَيْرٍ ، بَلْ مِنْ يَغْرُونَ بِالشَّرِّ وَيَدْفَعُونَ إِلَيْهِ دَفْعًا ، فَمَاذَا كَانَ مُسْتَقْبِلَ يُوسُفَ الصَّدِيقَ ؟
 كَانَ لَهُبَ الشَّقَاءِ الَّذِي صَادَفَهُ حَرَارَةً أَنْضَجَتْ بِذُورِ الْشَّرْفِ فِي كِيَانِهِ الْخَاصِّ ، فَإِذَا نَفْسَهُ تَتَفَتَّقُ عَنْ إِيمَانِ وَشَرْفِهِ ، وَعَفَافِ وَصَدْقَةِ . هِيَ الْعَنَاصِرُ الَّتِي زَوَّدَهُ بِهَا الْقَدْرُ وَهُوَ جَنِينٌ .
 وَالرِّجَالُ الَّذِينَ تَصْطَفِيهِمُ الْعُنَيْدَةُ الْعُلَيَا يَصْنَعُونَ عَلَى هَذَا الْغَرَارِ ، فَلَيْسَ أَبَاؤُهُمْ غَارِسِي شَمَائِلِ الْعَظَمَةِ فِي طَبَائِعِهِمْ بِالْتَّرْبِيَّةِ وَالْتَّكَلْفِ ، بَلْ إِنَّ أَبَاءَهُمْ لَا يَصْنَعُونَ شَيْئًا .
 وَمَا ضَرَّ مُحَمَّدًا ﷺ أَنْ يَوْلُدَ يَتِيمًا .

وَصَدَقَ الرَّاهِبُ الَّذِي قَالَ : مَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ أَبُوهُ هَذَا حَيًّا .

إِنَّ الَّذِي قَالَ لِمُوسَى : ﴿ وَلَتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴾ (١) قَالَ لِأَخِيهِ الْأَكْبَرِ مُحَمَّدًا ﷺ :
 ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ * وَمِنَ اللَّيلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴾ (٢) .

• هَذَا الْعِلْمُ مَعْجَزَةٌ ...

سَلْ نَفْسَكَ : مِنْ أَهْمَمِ الْأَمْمَى رسَالَةُ تَفْخِرُ الْعُقُولُ الْذَّكِيَّةُ بِالْفَقْهِ فِيهَا ، وَتَؤَلِّفُ فِي شَرْحِ دَقَائِقِهَا وَبِيَانِ وُجُوهِ حَكْمَتِهَا وَغَرَائِبِ أَسْرَارِهَا ، مَكَتَبَاتٌ فِيهَا أَلْوَفُ مِنَ الرَّسَائِلِ وَالْمَجَلَّدَاتِ .

مَكَتَبَاتٌ يَعْدُو عَلَى إِحْدَاهَا زَمْنٌ جَاهِلٌ يَلْقَى بِأَسْفَارِهَا إِلَى النَّهَرِ فَإِذَا نَطَافَ الْمَاءِ الصَّافِي تَسُودُ مِنْ فَرْطِ الْمَدَادِ !

مَكَتَبَاتٌ لَا تَزَالْ مَدَائِنُ الْعَالَمِ الْكَبِيرِ تَقْتَنِيهَا وَتَحْرِصُ عَلَيْهَا !

تَتَضَافِرُ كُلُّهَا عَلَى مَاذَا ؟ عَلَى خَدْمَةِ الرَّسَالَةِ الَّتِي بَعَثَ بِهَا النَّبِيُّ الْأَمِّيُّ الَّذِي لَمْ يَدْخُلْ مَدْرَسَةً ، وَلَمْ يَجْلِسْ إِلَى أَسْتَاذٍ فِي جَامِعَةٍ ! وَلَكِنَّهُ هُوَ الَّذِي شَادَ دُورَ الْعِلْمِ ، وَوَضَعَ حَجَرَ الْأَسَاسِ فِي الْجَامِعَاتِ بِمَا خَلَفَ مِنْ ثَرَوَةِ عَقْلِيَّةٍ تَطْلُعُ مَعَ الشَّمْسِ وَتَبْقَى عَلَى الْآَبَادِ :

(٢) طَه : الآيَةُ ٤٨ ، ٤٩ .

(١) طَه : الآيَةُ ٤٨ .

﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُطْهُ بِيْمِينِكِ إِذَا لَأْرَاتَ الْمُبْطَلُونَ﴾ * بل هو
آياتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أَوْتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿٤﴾ .
ما هي رواهد هذا العلم ، وأين يجد الناس منابعه في هذه الأرض ؟؟ .
أكانت أفكار التوحيد تنبت بين أوثان الجزيرة وأحجارها ؟ .
أم كانت آيات العدل تقتبس من غطرسة الأكاسرة المجروس ؟ .
أم تعلم محمد ﷺ الرحمة التي بعث بها من قلوب اليهود القاسية ؟ .
ووضع أصول الوحدة من اختلاف الكنائس المسيحية وانقساماتها ؟ .
ثم هب أن محمداً ﷺ استوحى أصول دينه العظيم من الأرض لا من السماء .
ماذا يستتبعه هذا الفرض مما يصادم العقل والواقع ؟ .
النتيجة الغريبة هي أن قرآننا بشرياً استطاع أن يقوم بدعاوة لتوحيد الله في أسلوب
من القول والتوجيه لم تستطعه كتب السماء نفسها .
 وأنه خدم الدين بما لم يفعله رب الدين نفسه .
أفهذا منطق ؟ أفهذا الدين من وضع محمد ﷺ ؟

﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ *
وَلَكُنَا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيَا فِي أَهْلِ مَدِينَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا
وَلَكُنَا كُنَّا مُرْسِلِينَ * وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا
أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥﴾ .

• وهذه العبادة !!

ويقف أمثالنا من البشر حيارى إزاء هذه العبادة التي تصل سواد الليل ببياض النهار
جداً ودائماً .
يكبر للصلوة ، ويستفتح وإذا أبواب السماء تتفتح لنبي يقرأ في الركعة الواحدة
عشرات الصفحات من كتاب الله .

(٥) القصص : ٤٤ - ٤٦ .

(٤) العنكبوت : ٤٨ - ٤٩ .

فإذا خرَّ ساجداً حسبته زوجه قبض من طول مالبس ، وهو يقول في ذلة وتواضع :
سُبْحَانَ ذِي الْجَبَرَوتِ وَالْمَلَكُوتِ وَالْعَظَمَةِ !

ويقول خادمه : كنت أجلس إلى بابه فلا يزال يسبح حتى أمل وتغلبني عيناي .
وكان النبي ﷺ يصوم حتى يقول الناس : ما يفتر ، فإذا طوى الناس بطونهم على
حجر طوى بطنه على حجرين ! .

وذهب ليحج فخرج على رحل رث وقطيفة خلقة لا تسوى أربعة دراهم ، ثم قال :
«اللَّهُمَّ حِجَّةٌ لَا رِيَاءَ فِيهَا وَلَا سُمْعَةٌ» .

حتى إذا حضره الموت كان يستفيق من سكراته ليوصى ب التقسيم عدة دريهمات
جائته ، على الفقراء والمساكين !

وهذا النمط من العبادة المتصلة الحلقات لم يَخْبُ له ضياءً منذ أن تنزل الوحي لأول مرة :
﴿أَقْرِأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾^(٦) .

وظل ينهمر أكثر من عشرين عاماً إلى أن أمر بتوديع الحياة الدنيا ، والتهيؤ للرفيق الأعلى :
﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ
بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَابًا﴾^(٧) . . .

حتى لكأنما نسق الله له مراحل حياته العظمى ، وقرن انتظامها ، بدوران الفلك من
المشرق إلى المغرب ، فليس يعروها توقف ولا اضطراب !!
كيف وقد قيل له :

﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ
آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾^(٨) .

● الجاه المادى والأدبى:

نحن لا نستدل بالزهداد على النبوة ، فكم في الدنيا من زهاد ليسوا بأنبياء ولا أولياء .
إنما موضع العبرة في حياة سيد البشر أنه لم يحاول مرة واحدة أن يثبت لنفسه شيئاً
من الجاه المادى أو الأدبى .

(٨) طه : الآية ١٣٠ .

(٧) النصر : الآية ١ - ٣ .

(٦) العلق : الآية ١ .

ولم يؤثر عنه قول أو عمل يومئى إلى هذه الناحية ، والعظماء النفسيانيون فى ذلك غير العظماء الربانيين .

الأولون يريدون أن يفرضوا نفوسهم عباقرة ممتازين ، وليس يضر الواحد منهم أن يصادر فى رزقه ، ولكنه لا يقر له قرار إذا خدش امتيازه أو استهين بعقريته .

إنه لا يفرط أبداً فى حقوقه ، بل يرد عنه جحود أعدائه بكل ما أوتى من قوة ، ولا يحزنه أبداً - وهو يقمع كيدهم - أن يراهم أمامه صرعى .

أما الأنبياء ، أما سيد الأنبياء ، فهل ترى سمة الاعتداد بالنفس واحتقار الأعداء والسطوة الأدبية فى مثل ما يتلوه محمد ﷺ فى كتابه :

﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ﴾ (٩) .

﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ﴾ (١٠) .

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (١١) .

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضْلُوكَ وَمَا يُضْلُونَ إِلَّا أَنفُسُهُمْ وَمَا يَضُرُونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنَزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلِمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ (١٢) .

وشاء الله أن يكفى هذا النبي الكريم الذى برئ من طلب الجاه الأدبى فأضفى عليه حلاً من المجد لا تبلى : شرح له صدره ، ورفع له ذكره ، وأعلى له قدره ، و ...

ومع ذلك فهناك ضروب من الزهد المادى ، هى فى روتها آية على النبوة ، وإلا فكيف تفسر إباء الرسول ﷺ أن يوسع على زوجاته من متاع الدنيا الحلال ، وتنزل آيات التخدير :

﴿إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدُنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحُكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ (١٣) .

إن الزاهد قد يرتضى الشطف لذات نفسه ، أما أن يفرضه على بيته وقرناء حياته ، فذاك مثار العبرة .

(١١) الأنعام : الآية ٢٥ .

(١٠) الشورى : الآية ٥٢ .

(٩) القصص : الآية ٨٦ .

(١٢) الأحزاب : الآية ٢٨ .

(١٢) النساء : الآية ١١٣ .

بل الأقسى من ذلك والأدعى إلى العذة ، موقفه من ابنته فاطمة وزوجها على ، فقد ظلت فاطمة تطحن على الرحي حتى تورمت يداها ، وظل على يسقى بالقربة حتى اشتكتي صدره .

فلما سمعا بقدوم سبى على المدينة أرسل على زوجه تطلب خادمًا من أبيها . ولكنها استحيت أن تسأله ، وعادت إلى زوجها الذي هب يعلن الشكوى ، فكان جواب الرسول ﷺ : «لَا أَعْطِيْكُمْ وَأَدْعُ أَهْلَ الصُّفَّةِ تُطْوِيْ بُطُونُهُمْ مِنَ الْجُوعِ لَا أَجِدُ مَا أَنْفَقَ عَلَيْهِمْ ، لَا أَخْبِرُكُمَا بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ ؟ تُسَبِّحَانَ اللَّهَ وَتَحْمِدَاهُ دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ » .

● تربية قادة:

ولقد استمع إلى هدایات الرسول ﷺ أقوام صحبوه ، وحملوا معه عباء دعوته ، وشارکوه تکاليفها من جهد وتضحية .

إن سيرة هؤلاء الأصحاب من بعده معجزة تضاف إلى معجزات ، وأية تضم إلى آيات ، إنهم عرفوه على ضوء العقيدة الجامعة والهدف الكبير وأحبوه حباً انطبع في شغاف القلوب ، وأحسوا كأن الله اصطفاهم لصحبة نبيه كى يكونوا من بعده سدنة رسالته وحملتها إلى الآفاق .

ولقد صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فوجد الإسلام في قلوبهم وأيديهم كهفه ، ووجد الكفر في يقظتهم وسيوفهم حتفه .

ولكم سعد الرسول ﷺ - وهو في مرضه الأخير - عندما أطل من نافذة بيته فرأى الأصحاب الأبرار المنتظمين في صفوف الصلاة

لقد أشرق وجهه كأنه ورقة مصحف بعد أن أيقن أنه ترك آثاراً لن تزول وربى نفوساً لا تحول . . .

أجل ، هذه الأسماء اللامعة في تاريخ الإسلام ما كان يقدر لها أن تكون شيئاً مذكوراً لولا الدعوة التي قام بها سيد الدعاة ، ودعم بها قوى الخير على ظهر الأرض .

عاطفة...!!!

قال لى أحد الصالحين : إننا نحيي ربنا جل شأنه ونحن جلوس فى صلواتنا
أليس كذلك ؟

قلت : بلى ، عقب الركوع والسجود ، نهمس وأيدينا على الركب : التحيات لله .

قال : ثم توجه إلى الرسول ﷺ بالسلام بصيغة المخاطب الحاضر ، نقول - وكأن
الكلام لشخص قريب منا - : السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته . . . !!

قلت : أجل ، كذلك نفعل ، على بعد المكان والزمان بيننا وبين الرسول
ال الكريم ﷺ . . . !!!

قال : إن السلام أفرغ فى تلك الصيغة قصداً ، لأن النبي ﷺ يجب أن يكون حيا
فى ضمير كل مؤمن ، يجب أن ينتصب له مثال مرموق فى وعى المسلم اليقظ تتحقق
فيه ملامح الصورة الذهابية !

وهل تؤخذ الأسوة الواجبة إلا من هذا الاستحضار الدائم ؟

لقد مرت أعصار على موت الرسول ﷺ ، لكن القيم الرفيعة التي تجسدت فيه :
نماذج العبودية لله ، والجهاد في سبيله ، والحنو على خلقه ، وصور الكمال البشري في
العفاف والعدل والإيثار والرحمة . تلك كلها معان لم تتم ، وإنما خلدت في كيان هذا
النبي المحمد ﷺ .

وال المسلم عندما يقول في صلواته : السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته إنما
يقترب من إمامه الأعظم الذي أمره الله أن يتأنسي به ، وأن يسعى في ركابه :

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ مِّنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ
اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (١).

واسترسل الرجل الصالح في عاطفته المحتاجة ، وأخذ يشرح لي ما يعني قال : إن
الشمس في رائعة النهار لا تعتبر غائبة عن بصير ، وتستطيع كل مرأة مجلوة الصفحة
أن تعكس صورة لقرصها أو لها لالتها ، أو لأشعتها ، ومحمد ﷺ في عالم اليقين
والخلق ، شمس لا ينكر لها بريق ، ولا يغيم لها ضوء .

(١) الأحزاب : الآية ٢١ .

والمهم أن يكون لك فؤاد مصقول يستطيع استقبال هذا النور في حنایا ، والاستهدا به في دروب الحياة .

إن القدوة الطيبة تقوم على استحضار المثل الأعلى في الذهن ، ومحاولة السير على غراره في الخارج . والائتนา الدائم بهذا المثل الأعلى هو الذي يلهج الألسنة بعد تحية الله تبارك وتعالى بالسلام على رسول الله ﷺ سلام حضور لا سلام غيبة ، ومن ثم كان كل مصلٌ يقول : «السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين» .

ومحمد رسول الله - ﷺ - معقد الحقائق التي يصلح بها العالم من أزله إلى أبده ، وال تعاليم التي جاء بها لا يستغني عنها الأولون والآخرون إلا إذا استغنت الأكوان عن نظام الجاذبية وسائر السنن العامة .

واضطراب الحياة إنما يرجع إلى تجاهل الهدایات التي جاء بها النبيون ، والتي أتتها وأجملها هذا النبي الخاتم .

وما يثوب الناس إلى رشدهم إلا يوم يحتفون بهذه الرسالة وصاحبها ، ويعرفون حكم الله عن طريقه .

وكان حقاً على العالم كله أن يصدق بهذه البعثة العامة ، ولكن العالم تنكر لها وتطاول على رجلها الكبير .

وعندى أن الشفاعة العظمى - التي جاءت السنن بشبوتها الرسول الله ﷺ - لا تعدو أن تكون لوناً من تأديب البشر كافة على موقفهم السابق من نبي الإسلام ، فإن رسول أى عظيم يستحق من التوقير والإعزاز بقدر ما مرسله من مكانة ، والرجل الذي أرسله رب العالمين كان يجب أن يلقى من التكرمة ما يرفع ذكره ، ويعلى شأنه ، غير أن أكثر الناس توافقوا بالصد عنه وجحد دعوته ، ورغباً عن الحق الذي معه ، وبخسوا قيمته ، ثم تتابعت الأجيال ، والخلف في أغلب بقاع الأرض يتوارثون عن سلفهم هذا التكذيب الشنيع !!

ولو نظرت في هذه الألوف المؤلفة من الكنائس والمعابد لوجدت داخلها أجهزة منظمة دوارة تعمل في غير ملل لصرف الناس عن الإسلام ونسبة أقبح النعوت إلى نبيه المبارأ الشريف . . .

وكأن الله تبارك اسمه شاء أن يعرف هذه الأمم مدى ما كانت فيه من غباء ، وأن يذيقها شيئاً من مرارة الجريمة التي ارتكبتها ، فهو في ساحة العرض الشامل لأصناف

الخلائق ، يحشر سكان القارات الخمس على مر القرون ، يحشرهم في صعيد واحد ، ثم يكشف الغطاء عن عيونهم ، وإذا هم يتبيّنون فداحة جهلهم بالله الكبير المتعال ، ويتبينون شناعة خصامهم لإمام رسليه . . . !!

وهنا يوج بعضهم في بعض ، ويضطربون في حيرة مفزعه لا يرجى منها خلاص ، وتحرك جموعهم إلى كل نبى سمعوا باسمه في العالم الذي انتهى ، ينادونه أن يسأل الله لهم الرحمة ، ولكن النبيين كلهم يرفضون التصدي لهذا المطلب ، ويعود أهل القارات الخمس متراكضين إلى الرجل الذي طالما قيل لهم أنه كذاب ! إنهم يحسون الآن عن يقين أنهم أخطأوا في حقه ، وأنهم يوم صدوا عنه كانوا يخسرون أنفسهم وأهليهم !!! .

الشفاعة العظمى - في نظري - موقف يحاكم فيه التاريخ البشري كله ، ليعرف أن انصرافه عن الإسلام كان مشaque لله ، وعداء لأحب أوليائه ، وأصدق دعاته . . .

وما أعجب أن تجد الإنسانية نفسها في حرج يوشك أن يقضي عليها ، ثم تعلم فجأة أن التنفيس عن كرباتها ربما تم باللجوء إلى الرجل الذي عاشت دهوراً ، وهي تروي عنه الأكاذيب وتنسب إليه الأساطير . . .

والتجاء أهل الأرض إلى محمد ﷺ في تلك الساعة العصيبة ، ولجوئه إلى الله يطلب مغفرته للعبد الأغرار ، ذلك - في ظني - هو المقام المحمود ؛ المقام الذي نسأله محمد ﷺ عقب كل أذان يتردد صداه في مهاب الريح ، فيستجيب له قوم ، وينصرف عنه آخرون «اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلوة القائمة أت سيدنا محمداً الوسيلة والفضيلة ، وابعثه مقاماً مموداً الذي وعدته» .

قلت : إن محمداً في عالم العقائد والحقائق شمس نفاحة ، لكن العميان كثير . وقد مكث هذا الرسول النبيل يصدع بأمر الله ، وينقذ الناس من أهوائهم ومظالمهم ، ثم ذهب إلى الرفيق الأعلى تاركاً فيما تراثه الجليل من كتاب وسنة . . . فليتعلم الدعاة من حياة سيد الدعاة أن أجر الحق المبذول لا يعجل في الدنيا ، وأن المقام المحمود موعداً في غير هذه الدار ، يتعلق به وحده الدعاة الأبرار .

عظمته الرسول في شخصيته

● أنوار النبوة:

على حداثة عهدي بدراسة السنة المطهرة ، كانت تستوقفني عبارات طريفة لنقاد الحديث ، أولئك الرجال الأذكياء الذين صانوا تراث النبوة عن أن تزييد فيه الأهواء ، فقد كانوا إذا ما رأوا حديثاً دخيلاً ، يكشفون زيفه ثم يقولون عنه : إنه لا تلوح عليه أنوار النبوة !! كنت أبتسم ابتسامة ريبة وأنا أطالع هذه العبارة .

حتى مرت على سنوات طوال وأنا مكب على قراءة السنة الكريمة أنتقل بين صحائف شتى من أدابها المشرقة ، وتجيئاتها الحية ، وعظاتها النفادرة .

وأجل الطرف في آفاق لا نهاية لرحمتها ، ولا شائبة في رفعتها ، ولا حد لسنائها وسموها .

فلما عدت إلى نفسي بعد هذه الرحلة الطويلة كان عقلى وقلبي يتسابقان إلى الإقرار بأن على معالم السنة الصحيحة أنواراً لم تزل تتلألق على مر القرون ، ولم تزل تحمل من نفس صاحبها طابع الهدى وعمق الأثر ، ولم يزل يرف عليها من صادق الوحي ندى يفيض بالحياة ويهز الأفءدة .

ولم تزل كنوز خير وفير ، وبر مذخور ، لمن شاء ذلك كله .

ليس هذا ما ننوه به ، فكم في آثار الزعماء من تعاليم نقية الجوهر رائعة الرونق ، ولكنها مع ذلك تعاليم فقط .

أما آثار السنة فهي تعاليم وتربيه معاً .

فيها ما يقنع العقل ويشبع العاطفة .

تحس عندما تطالع صحائفها أنك في حضرة جليس صالح يؤثر فيك وتتأثر ويدخلك تهيب وجلال ؛ إذ تحس إحساس الولد نحو الوالد ، والتلميذ نحو الأستاذ ، والجندي نحو القائد ، والعاصي نحو الفيلسوف .

وذلك إحساس قاهر تفتح له أقمار النفس طوعاً أو كرهاً .

قد أقف أمام السنة ، وفي القلب جمود وعليه غشاء ، فما هي إلا سويقات حتى يتصل بي تيار الشخصية التي أودعت بعض عظمتها في أحاديثها ، فإذا القلب يزكيه النفس تطيب ، وإذا أنوار النبوة تسلط أشعتها من خلال الغيب فتمحو ظلمات بعضها فوق بعض .

أجل . إن ذلك فعل النفوس الكبيرة ، هيئات أن ينال من مضائه بعد الزمن! .
 ولقد واجه أثاره من قريب أقوام آمنوا بالله ورسوله ﷺ فالتقوا بصاحب الدعوة الأولى التفاف الكواكب حول أشدّها قوّة وأعظمها سنّي .
 فهل تنتظم في دورة هذا الفلك نحن الآخرين ؟
 من يدرى؟ ! لعلنا لا نخلد إلى الأرض مع أهواننا .
 على أن لنا طموحًا إن لم تواته الأسباب المحس ، فقد يواتيه فضل الله ، وفي جانب الله لا تتوقف عواطف الرجاء .

● سر العظمة:

للله عز وجل رسول كثير قاموا بواجب الدعوة إليه ، وتوارثوا كابرًا عن كابر هداية الخلق ونصرة الحق ، فأنقذوا الناس من أنفسهم وعرفوهم إلى ربهم .
 ولكن محمدًا ﷺ كان بشخصيته ، وطبيعة رسالته ، إمام الأنبياء ، وكان بحق سيد الدعاة إلى الله .

فما سر هذه العظمة ؟ وبم كان هذا الفضل المبين ؟
 السر في هذا أن محمدًا الرسول كلف أن يغرس في قلوب من حوله إيمانًا لا تستخدم في غرسه إلا الوسائل المقدورة لطاقة البشر .
 وقد استطاع ذلك من غير أن تبدل الأرض غير الأرض .
 على عكس ما حدث على عهد موسى مثلاً؛ إذ رفع الطور فوق رءوس الناس ليؤمنوا بالله ويعطوا على ذلك الموثق !

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَادْكُرُوا مَا فِيهِ لَعْلَكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (١) .

وكما كان نبينا بين أتباعه بشرًا رسولاً ، فقد كان كذلك مع أعدائه ، لم تسخر ضدهم قوى السماء على كثرة ما لحقه منهم من إيذاء .
 على عكس ما حدث لموسى فقد نكل الله بأعدائه تنكيلًا قاهرًا؛ إذ مسخهم قردة وخنازير :

(١) البقرة : الآية ٦٣ .

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُ الَّذِينَ اعْتَدُوا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ *
فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدِيهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٢).

وليس يفهم من ذلك أن حياة الرسول ﷺ كانت خلواً من الخوارق . لا ، فإن النبوات قائمة على أن تقترب بالخوارق في الكثير من مظاهرها .

إنما المهم أن تأسيس اليقين في قلوب المؤمنين ، واستئصال العدوان من نفوس المعتدين ، كان العامل الفعال فيه بشرًا اكتملت في خلقه وخُلقه عناصر الكمال الإنساني ، وانتهت إلى شخصيته أمجاد الفطرة البشرية الناصعة ، فكان أتباعه من أعمق الناس حبًا له ؛ لأنّه أهل لكل حب . وكان أعداؤه من أشد الناس تهيئًا له ؛ لأنّهم يدركون أنّ أمّا لهم بطولة يعزّ تناولها ويصعب الكيد لها .

وكان هو في محبته للمؤمنين برأًّا ودودًا تنبثق من فؤاده النبيل عواطف جياشة لا ينضب معينها ، ولا يتعكر صفوها .

اتسعت للسابقين واللاحقين من أمته ، من رأهم ومن لم يرهم .
سمعه أصحابه يقول : «وَدِدْتُ أَنَا قَدْ رَأَيْنَا إِخْرَانَا» ، قالوا : أولئك إخوانك يا رسول الله !؟

قال : «أَنْتُمْ أَصْحَابِي ، وَإِخْرَانُنَا الَّذِينَ لَمْ يَأْتُوا بَعْدَ» .

فأى حب هذا الذي يتداوم العصور المستقبلة ليرتبط بقلوب بناتها في ضمير الغيب .

أما أعداؤه فحسبك من نقاء صدره أن ابن أبيه - الذي طعن الرسول ﷺ في شرفه وافتري الإفك على أهله - كفن يوم مات في قميص الرسول ﷺ .
وأن النبي ﷺ السمح لم يرفض الاستغفار له حتى أمر بالكف عنه ...

● هذه الرسالة الإسلامية:

ذاك أمر يتصل بشخصية الداعية الموفق الأريب الذي تخيرته العناية لحماية الأمانة العظمى ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حِيثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ (٣) .

(٢) الأنعام : الآية ٦٥ ، ٦٦ .

(٣) البقرة : الآية ١٢٤ .

وهناك أمر آخر يتصل بطبيعة الرسالة الإسلامية نفسها ، فقد شاء الله أن يكون كتابها مسك الختام ، وأن تغلق من بعده أبواب السماء ، فلن ينزل ملك بوحى ، ولن ينزل من الملأ الأعلى نبأ .

وعلى الناس من كل جنس ولون أن يستمعوا في هذا القرآن إلى الكلمة الأخيرة من هدى الرحمن :

﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾^(٤) .

هذه الرسالة إذن باقية مع الزمن ما بقى الزمن ، فصاحبها نبى الخلود . وإذا علمت أنها استواعت كل ما فى الرسالات الأولى من أصول ثابتة بعد أن نفت عنها خرافات الجهلة من الأتباع ، وأكاذيب الدجالين من رجال الدين ، علمت أن الإسلام فى جوهره النقى دين الأزل والأبد ، وأن نبى الإسلام هو إمام الأنبياء ، وحامل لواء الحق من بداية أمره إلى نهاية مستقره

ولئن كان نبى القرآن عربياً بحكم المولد واللسان ، إنه ليس وقفاً على أمة دون أمة . من حيث التعاليم والشاريع وميراثه ملك الناس جميعاً على سواء .

وحق القيام على دعوته يجب على كل من تبلغه آياتها : ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأَنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾^(٥) .

فإذا افتخرت أمة بأن النبي منها فلتختصر الأم جمیعاً بأن النبي ﷺ لها : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾^(٦) .

ومن الخطأ أن نظن فى عموم الرسالة وخلودها تحكمًا فى عقليات الأجيال ، وتجاهلاً لأحوال الأم وظروفها المتعددة ، ووقفاً لحركات التطور الإنسانى نحو الكمال .

فإن تعميم نبوة محمد ﷺ وتخليدها لم يقصد به إلا المحافظة على ذلك كله لخير الإنسان وحده .

فإن الإسلام أوضح الحقائق الأساسية فى علاقة الإنسان بالله وبالناس وبالكون ، وربطها بهدى الفطرة وضياء العقل .

(٤) الأنبياء : الآية ١٩ .

(٥) الأنعام : الآية ٣٠ .

(٦) الروم : الآية ١٠٧ .

فإن كانت ثمت قيود مفروضة أو صور مرسومة حددتها الإسلام ، فلكيلاً تجتمع الفطرة ، ويستحمق العقل ويخرج الإنسان على نفسه .

إن الإسلام دين الإنسانية الخالصة ، ونبي الإسلام أحق من تلجأ إليه هذه الإنسانية لتأوي في كنفه إلى الإيمان والأمان :

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجٌ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ * وَإِنَّكَ لَتَدْعُهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَا كُبُونَ﴾ (٧) .

● عبداً رسولًا :

تحمل أعباء الحياة – على اشتداد وطأتها واسوداد صورتها مع بقاء القلب موفور الثقة ، والعقل مؤتلق الذكاء – أمر لا يستطيعه إلا القليلون .

ذلك أن كابة المنظر في الأهل والمال تلقى على النفس ظلاماً محزنة ، وترك في الفكر شروداً يقصر به عن المساهمة في الحياة العامة بقسط معقول .

فكيف إذا كان الرجل مكلفاً أن ينشئ الحياة ، ويغير الطبائع ، ويؤدي رسالة تغير مجرى التاريخ ؟

إنه يريد أن يؤمن حياته الخاصة حتى يطيق تحمل أعبائها مع أعباء الناس ، وقد رأينا من الأنبياء من طلب ذلك وعنى به ، فكان سليمان ملكاً رسولًا :

نبى فهو عدل حيث يقضى وملك فهو يفعل ما يشاء
إلا أن نبينا رزق من سعة الطاقة على حمل الأعباء الخاصة وال العامة الشيء الكثير ،
فلقى أعمت ما يلقاه المجاهدون من آلام ، وأدى مع ذلك أعظم وأوسع ما أداء النبيون من رسالات ...

وقد كان لرقة مشاعره يحس بوخز الآلام إحساساً مضاعفاً ، وتلك ضريبة العظمة أبلغة ، شاء الله أن يفرضها عليه وحده ، وليس يستطيع أداءها إلا عظيم مثله .

روى أنه قال لجبريل : «والذي بعثك بالحق ما أ Rossi لآل محمد سفةً من دقيق ولا كف من سويق !»

(٧) المؤمنون : الآية ٧٢ - ٧٤ .

فأنزل الله أحد ملائكته يقول له : إن الله سمع ما ذكرت فبعثنى إليك بفاتيح خزائن الأرض ، وأمرني أن أعرض عليك أن أسير معك جبال تهامة ذهباً وفضة وزمراً وياقوتاً .

فإن شئت كنتنبياً ملكاً ، وإن شئت كنتنبياً عبداً .

فقال الرسول ﷺ : بلنبياً عبداً .

ولقد آثر ذلك ولم يزل ضجيج المشركين يدوى حوله طالبين إليه أن يكون ملكاً غنياً ، مستنكرين عليه أن يكون عبداً رسولاً .

﴿مَا لِهَذَا الرَّسُولُ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْرَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا * أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنَّ تَتَبَعُونَ إِلَّا رَجُلٌ مَسْحُورٌ﴾^(٨) .

ولكن ما قيمة هذه الصحيحات الخافتة ، وكيف ينتظر من بضعة نفر أو بضع قبائل أن يقفوا أطوار رسالة أعدت لأقطار الأرض قطرًا قطرًا ، ولأجيالها جيلاً جيلاً .

لقد امتد الشعاع الباهر وتزقت من حوله الغيوم .

وها نحن أولاء بعد قرون طوال نسير في ضوئه ، ونمشي على هديه .

أو أننا نستطيع ذلك إن شئنا ، فلم تزل رسالة الإسلام وضاحية الشعاع ، تنبعى على المنتسبين إليها أن يكونوا من سقط المتابع . . .

(٨) الفرقان : الآية ٧ ، ٨ .

الهجرة حقيقة.. وتحية.. وحب.. وفاء

مكث الرسول ﷺ ثلاثة عشر عاماً في مكة يدعو إلى الله على بصيرة ، ويهدى الناس إلى الحق في تؤدة ومهل ، ويفك أغلال القرون الأولى ؛ ليrid على البشر كرامتهم المفقودة .
وما كرامة البشر إلا كرامة الفطرة السليمة ، والقلب المستنير ، والعقل الرشيد .
وكان الرسول ﷺ في دعایته لدینه ، سهلاً واضحاً مطمئناً إلى نصاعة الحق الذي شرفه الله به ، فهو لا يطلب من الناس إلا أن يمكنوه من شيء واحد .
أن يتركوه يلقى ما معه بين أيديهم ، وأن يسلطوا عليه أفكارهم وحدها !
فإما قبلوه بعد ، وإما رفضوه .

وهو لم يجنب في سبيل الانتصار لدینه إلى أساليب الدعاية الملتوية ، ولم يتكلف في تأليف أنصاره أو رد خصومه ، وسائل الإغراء والإغواء ، فإن ذلك ليس شرفاً للدعوات المعتادة ، فما بالك بدعوة أودع الله في تعاليمها عناصر الديانات السابقة ، وأودع في قواعدها حاجات العصور المتلاحقة ؟
لا جرم أنها أسمى مكاناً من أن تقوم إلا على الحق وحده .
وأين يستطيع الناس ميز الحق من الباطل ؟ في جو الحرية النقي من شوائب الضغط والقسوة والاستبداد .

في هذا الجو تتنازع المبادئ ، وتتدافع المذاهب ، ولكن النتيجة محتملة .

﴿... فَآمَّا الزَّبَدُ فِيذَهَبُ جُفَاءً وَآمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ...﴾^(١).
والأغبياء والطغاة يكرهون أبداً حرية الرأي ؛ لأنهم يعيشون في ظلال الجدران التي تسجن وراءها كرامة البشر النفسية والفكرية .

وطالما قال الرسول ﷺ للمشركين : ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾^(٢) . فأبوا إلا أن يقولوا له : لنا ديننا وليس لك دينك !

(٢) الكافرون : الآية ٦ .

(١) الرعد : الآية ١٧ .

ومن ثم سلطت القوة الجائرة لمحاولة إسكات الألسنة التي تجهر بالقرآن - والقرآن هو يومئذ صحافة المسلمين التي تنطق باسمهم وتنافح عنهم - واتبعت الطرائق الصبيانية للتتشويش عليه وفض الناس عنه :

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾^(٢) !

وكذلك سلطت الفتنة القاهرة على المستضعفين من المؤمنين ، فشرد من شرد ، وقتل من قتل ، وشعر المؤمنون الباقون على عقلاً لهم ، بالمعارم الفادحة التي تحل بهم ، ولكنهم صبروا على المكاره إيماناً واحتساباً ، وتطلعوا إلى ما عند الله .

هل كان القرآن جديراً بهذه المواجهة العنيفة التي قوبل بها ؟

لقد كان شديد الحملة على خصومه حقاً ، مبيناً في تزييفه لأباطيلهم ، ولكنه سلك في ذلك سبيل القوة الممزوجة بالنبل .

والرجل النبيل إذا صرع خصميه لم يتركه على الأرض متعرضاً في أذىال هزيمته ، بل يسرع إلى الأخذ بيده قبل أن يستولى عليه شعور الخزي والميرة في سقطته .

وهكذا فعل القرآن بأعدائه ، فهو يلفت نظرهم إلى ضلالهم ، ويضع أيديهم على أخطائهم ، ثم يأبى - أبداً وتكراهاً - أن يقول - في شماتة - للضال : إنك ضال ، أو للمخطئ : إنك مخطئ والآخر مصيبة :

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدَى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * قُلْ لَا تُسَأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسَأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾^(٤) .

على أن هذا كله لم يرق في نظر قوم يأبون الاعتراف بطرق الإقناع والاقتناع ، ويجتمعون إلى جريمة الكفر ، جريمة الصد عن سبيل الله ، فكانت خاتمة ثلاثة عشر عاماً في الدعوة إلى الله أن تشاور رؤساء قريش في نفي الداعي أو حبسه أو قتيله ! ثم يستقر رأيهم على أن يقتلوه بطريقة يهدرون فيها دمه ويضيع بها ثأره .

● هجرة بدین لا فرار من موت:

وأصبح أهل مكة وهم يرقبون صوت الناعي - أخزاه الله - ليبشر دوله اللؤم والغدر والطغيان ، أن عدوها الأول قد لقي حتفه قبل أن يوردها حتفها ، وهيهات ، لقد خرج

(٤) سبأ: الآية ٢٤ ، ٢٥ .

(٣) فصلت: الآية ٢٦ .

محمد ﷺ لم يمسيه سوء ، فإن الله العلي القدير لا يترك الحقائق العظمى تذهب قبل أن تأخذ مداها ، وقبل أن ترك على تاريخ الأرض طابعها العميق .

والدين الذى بعث به إمام الأنبياء هو أبو الحقائق العظمى وأمها ، فهو باق وأسباب حياته باقية معه مادامت السموات والأرض .

نعم لقد أخرج محمد ﷺ ليكمل الله به الرسالة التى لم تكن قد استوفت بعد جملة حقائقها ، وعلم الطغاة الذين أجلاؤه إلى الهجرة مدى الخطر المبئى لهم ، وشعروا من الهواجس المنبعثة من أعماق نفوسهم ، أن الدائرة سوف تدور قريباً عليهم .

لقد هاجر الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة ، ومن قبله هاجر أكثر المسلمين ، فهل كانت هذه الهجرة تهرباً من لقاء الموت ؟

كلا ، يدل ذلك على ذلك أن هؤلاء المهاجرين كانوا وقود الغزوات والمعارك الكبرى التى دارت رحاها لهدم كل السلطات المستبدة ، عربية كانت أو غير عربية ، ولم يؤثر عن مهاجر أنه تردد في مواطن الموت لحظة .

إذن لم كانت ؟ كانت لأن الإسلام فى هذه الفترة من تاريخه ، يتطلب أن يعيش له وأن يحيا من أجله كل فرد من أبنائه ، فضلاً عن الرجل الأول فيه محمد ﷺ .

كان الإسلام يفرض عليهم أن يعيشوا من أجله حتى يكونوا له على ظهر الأرض أمة راسخة البناء ، ودولة سامقة اللواء .

فإذا استقامت للدين الجديد أمته ودولته ، سفكت حياطتها الدماء ، وقدم للدفاع عنها الفداء !!
لقد كانت حياة كل مسلم قدّى في عين الكفر والكافرين ، فضلاً عن حياة المسلم الأول ﷺ .
إذن فليتمسك المسلمون بحياتهم حتى يغرسوا نبت التوحيد في أرض الجزيرة وفيما حولها ، ولا عليهم بعد إذ غرسوه ، أن يرووه بدمائهم .

فما كانت الهجرة فراراً ولكنها كانت انتصاراً ، وكذلك سماها القرآن الكريم :

﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْفَارِإِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٥) .

(٥) التوبة : ٤٠ .

● لماذا أرخوا بالهجرة؟

إن المسلمين اعتبروا الهجرة بداية تاريخهم في الحياة ، ولم يعدوا ميلاد نبيهم ولا مبعثه مبدأ لذلك التاريخ الحافل بعيد .

ولم يكن هذا التصرف إلا فقهاً منهم في دينهم ، وبصراً نافذاً في معرفة حقيقته وتقديس روحه ، فالهجرة - سفراً من مكة إلى المدينة - حادث لا يذكر ولا يقدر . فكم في الدنيا من أسفار أطول أمداً وأبعد شقة من هذا السفر القاصد .

إنما روعة الهجرة أنها عقيدة وتضحية وفاء وكفاح ، وإصرار غريب على مغاضبة الدنيا الشائرة الحاقدة ! والتذرع بالوسائل التي في مقدور البشر مغالبتها ، فاما موت كريم وإنما نصر كريم .

هذه الخفنة من المؤمنين الذين خط الشيب رءوس قادتهم ، والذين عانوا آلام الغربة الروحية ، والقلة المادية سنين عدداً فما وهنوا ولا استكانوا ، بل خلفوا في اللحظة الأخيرة دورهم وأموالهم ونذروا عنها .

هؤلاء المؤمنون الأبطال ، هم الذين أعطوا الهجرة بأعمالهم الخالدة روح الخلود ، وعلموا الحياة كيف ترجع المبادئ بكل ما توزن به من مأرب أو متاعب ، وكيف تتخطى كل ما يعوقها من صعاب .

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾^(٦).

ولو أدرك المسلمون من التاريخ بالهجرة هذا المعنى السامي ، ما اضطررت أحوالهم هذا الاضطراب المؤسف ، فلا هم الذين حرصوا على الحياة لدينهم في أية بقعة من بقاع الأرض ، ولا هم الذين ماتوا دون أن ينال أعداؤهم منهم ما نالوا :

﴿وَلَوْ أَنَا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوْ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَنْهِيَّاً﴾^(٧).

(٧) النساء : الآية ٦٦ .

(٦) البقرة : الآية ٢١٨ .

● مبادئ لابد منها:

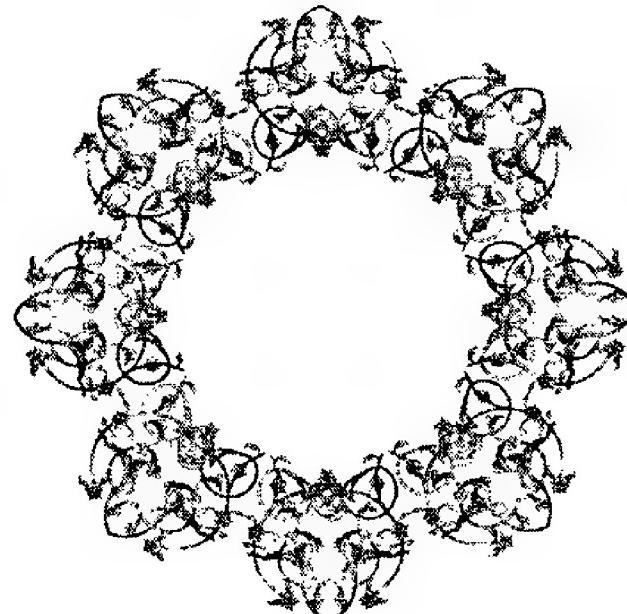
مبادئ الإيمان في الساعات الحرجة والأوقات العصيبة تجدها عندما يقول أبو بكر : نظرت إلى أقدام المشركين - ونحن في الغار وهم على رءوسنا - فقلت : يا رسول الله ، لو أن أحد هم نظر إلى قدميه لأبصرنا ، فقال ﷺ : «يا أبا بكر .. ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟» .

ومبدأ التضحية الواجبة تلمسه في مبيت «علي» على فراش الرسول ﷺ قرير العين ، وهو موقن بأن السيوف توشك أن تخالط صاحب الفراش وتمزق لحمه وعظمته .

وعظمة الحب الكبير وتقدير المصلحة العامة ، وافتداها بالنفس ، تراها فيما يروونه من أن أبا بكر حين انطلق مع الرسول ﷺ إلى الغار ، جعل تارة يمشي بين يديه وتارة يمشي خلفه ! فقال له الرسول ﷺ : مالك يا أبا بكر ؟ فقال : أذكر الطلب فأمشي خلفك ، وأذكر الرصد فأمشي أمامك ، فلما انتهيا إلى الغار ، قال : مكانك يا رسول الله حتى أستبرئ الغار ، فدخل ، فاستبرأه ، ثم قال : انزل يا رسول الله ، فنزل وأبو بكر يقول له : «إن أقتل فأنار جل واحد من المسلمين ، وإن قلت هلكت هذه الأمة» .

إن الهجرة حقيقة بأن تكون علمًا على الإسلام ؛ لأنها كانت بما حدث فيها وبين يديها وخلفها ، المظهر العملى الصحيح للإسلام ، مظهر العقيدة والتضحية ، والحب ، والداء .

لكننا - للأسف - نسينا الهجرة ، بل أهملنا التاريخ بها في حياتنا ؛ لأننا نسينا الجهاد ، وما يذكر به .



أيام في الصحراء^(١)

تعالت الشمس ، وتقلصت ظلال الدور الجاثمة في بطحاء أم القرى ، واستطار الحرور من وهج الظهيرة ، فاستخففت الوجوه من لفحة .

ولف مكة مع هذه الهدأة المفروضة ، سكون اللغوب من كفاح الدعوة التي بدأ أصحابها يتخلون مسلكاً جديداً في خصومة أعدائها ، كما بدأ أعداؤها ينتهجون خطوة جديدة في العدوان على أصحابها .

وكان هذا السكون المترامي على مضارب الخيام ومساكن الخضر يوارى تحته نيات هائلة وأملاً بعيدة .

وضغطت أشعة الشمس على صدر الرمال ضغطة محت عوامل البرد والسلام ، وأرسلت الحرارة التي تهيج العزم والتصميم ، وتشير دم النضال القوى الدافق .

وفجأة ظهر شخص رائع السمت ، تصبح ملامح وجهه مساحة ساحرة ! وكان يتحدر في سيره لا تكاد تلفت انتباهه هذه الطبيعة المستعلة المتراءفة اللهب فوق طيات الثرى .

لقد كان مستغرقاً في فكر عميق ! وكان يتجه في صلابة نحو كثيب أحمر تقوم إلى جانبه دار طالما انبعث من جوفها صوت يرتل القرآن ترتيلًا تهتز له الأفئدة !

كانت تلك الدار المؤمنة دار أبي بكر ! .

واستشرفت السماء والأرض لطلاعة القادم المهيّب ، وإذا قائل يقول : هذا رسول الله متقنعاً . إنه لم يكن يأتيانا في مثل هذه الساعة .

فوشب أبو بكر يهتف : «فداء له أبي وأمي ، والله ما جاء به هذه الساعة إلا أمر ذو بال» .

واقربت الخطوات الوئيدة ثم استقبل أبو بكر الزائر الكريم صلوات الله عليه وسلمه .

● دليل كافر...!

- «أخرج من يكون عندك !» .

- إنما هم أهلى يا رسول الله ؟

(١) وصف دقيق لأحداث الهجرة ، مستقى من كتب السيرة .

- «فإنى قد أذن لى فى الخروج !» .
- الصحبة إذن بأبى أنت وأمى ؟
- «نعم يا أبا بكر !» .
- فخذ إحدى راحلتي هاتين ؟
- «بالشمن إذن !» .

ونهضت عائشة وأسماء تهيئان الجهاز وتصنعن الزاد وتضعانه فى جرابه ، ومزقت أسماء قطعة من نطاقها ، وأوثقت به فم الجراب حتى يحفظ ما فيه ، وانطلق أكرم أصحابين إلى جبل ثور فكمنا فيه ثلاثة ليال ! كانت قريش خلالها تذرع السبل والمنافذ ، وتبت العيون والأرصاد ، وتکاد توصد الفجاج على الذاهب والآيب فلا يتحرك أحد إلا بقدر ، ولكن هيئات !

وكان عبد الله بن أبى بكر غلاماً شاباً ذا ثقافة ولقانة ، يبيت عند الغار ، ثم يدلل بسحر تاركاً المهاجرين العظيمين ، فيصبح مع قريش كأنه مقيم بينهم ، فكانت أخبار المطاردين واتجاهاتهم تصل إلى أهل الغار كل مساء ، يعيها الشاب الذكي ، حتى إذا جن الليل ، واختلط الظلام أخذ طريقه خفية إلى الغار فأفضى بها .

وفي صبيحة اليوم الموعود كانت الراحتان من اختين استعداداً للسفرة البعيدة ، يقودهما دليل ماهر خبير بدروب الصحراء ومتاهاتها ومشابها .

هذا الدليل وإن كان رجلاً كافراً ، لما ينزل على دين قريش ، لكنه استؤمن على سر فكان ثقة ، وعلى وعد فكان وفياً وعلى عمل عظيم فكان عند الظن به ! .

● إن الله معنا:

قال أبو بكر : أسرينا ليتنا حتى قام قائم الظهرة وخلا الطريق فلا يمر فيه أحد ، وظللنا نمشي حتى لاحت لنا صخرة طويلة لها ظل لم تأت عليه الشمس بعد ، فنزلنا عندها ، فأتيت الصخرة وقصدت ناحية من الظل ، فسويت مكاناً ينام فيه رسول الله ﷺ ، ثم بسطت عليه فروة ، ثم قلت : نم يا رسول الله ، وأنا أرقب ما حولنا ! وإذا رأى مقبل على الصخرة في عنيزات له يريد منها الذى أردنا ، فقلت له : من أنت يا غلام ؟ .

فقال : لرجل من هنالك .

- أفي عنزك لبن؟

- نعم.

- أفتطلب لى؟

- نعم!

فأخذ شاة فقلت : انفض الضرع من التراب والقذى ، ففعل وحلب فى قعب معه كثبة من لبن ، فأتيت النبي ﷺ ، وهو نائم ، فكرهت أن أوقظه ، فوقفت حتى استيقظ فصببت على اللبن من الماء حتى برد أسفله وقلت : اشرب يا رسول الله ، فشرب حتى رضيت ، ثم قال : «ألم يأن الرحيل؟» فارتحلنا بعد ما زالت الشمس واستтелиنا نطوى مراحل الطريق ، فإذا نحن ندخل فى أرض غليظة صلبة ما إن استوينا عليها حتى أحسست بخطر داهم يدنو رويداً من ورائنا ، فقلت : يا رسول الله ، أتينا وسيحاط بنا ، أترى هذا الفارس الذى يتبعنا؟ فقال الرسول ﷺ : «لا تخزن إن الله معنا» .

ثم دعا عليه الرسول ﷺ فارتطممت يدا فرسه إلى بطنها وخر راكبها على وجهه بعد أن ساخت فى الأرض قوائمهَا ، ولكنه لم يلبث أن قام بين دهشة الحادث الذى أصابه ، وسورة الطمع الذى خرج به ، فزجر فرسه يريد حملها على المضى فعجزت تماماً ، فترجل ونادى مستأمناً : لقد علمت أنه نالنى منكم شيئاً فاتركانى وادعىالي . والله لكمما أن أرد عنكمما الطلب! فدعاه الرسول ﷺ ، فقف راجعاً لا يلقى أحداً إلا قال له : حسبك لقد كفيتك ما هنا .

وسار أبو بكر وقد أثلج فؤاده أن رأى كيف صار الطالب مطلوبًا! وتذكر عندما كان في الغار ، فأصاخ إلى خفق أقدام المشركين ، وهم ينقبون ويفتشون ، وتسكين الرسول ﷺ لروعه عند ذاك .

● في الطريق:

كانت النجوم تطلع فترسل نورها الباهت على الأديم الأعفر المنبسط ، وموحات النسيم البارد تتحقق من كل مهب فلا يردها بناء قائم ، وثم ساريان يضربان في الفلاة ترمي أعينهما نجوم السماء ، وترد صدورهما خفق الرياح .. على أحدهما جلال النبوة ، وعلى الآخر جمال اليقين ، فإذا انقضى الليل رأت الشمس الرجلين كليهما ميممين

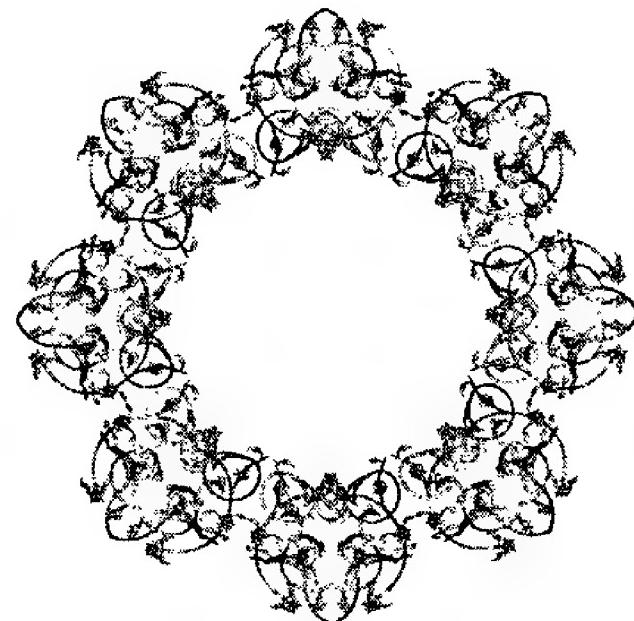
إلى غايتها من نهاية الطريق ، ترمضهما وقدة الجو ، وسطوة العدون ، وهوام الأرض من إنسان وحيوان ، فلا يسقط ذلك كله إلا عند أقدام الأينق التي تستحث الخطوه إلى يشرب تحدوها آى القرآن من صاحب الوحي ، ومن صاحبه الأمين .

ومرت الأيام وهو ماضيان فى سبيلهما ، وشاء الله أن تقع فى أثناء السير مفارقة طريفة ، فقد أقبلت من الشام قافلة فيها الزبير ، وركب من المسلمين جاءوا بتجارة كبيرة ، فكسا الزبير رسول الله ﷺ وأبا بكر ثياباً بيضاً !!

● يا عشر العرب:

وسمع المسلمون بالمدينة مخرج رسول الله ﷺ من مكة ؛ فكانوا يعدون كل صباح إلى الحرة فينتظرونـه حتى يردهم حر الظهيرة ، فانقلبوا يوماً بعد ما أطّلوا انتظارهم ، فلما أتوا إلى بيوتهم أوفى رجل من اليهود على ظهر أطم عال يبحث عن شيء له ، فأبصر رسول الله ﷺ وصاحبـه يتقدّـفـهـما السراب الـلامـعـ علىـ مدـىـ الطـرـفـ فـلـمـ يـتـمـالـكـ أـنـ صـرـخـ : يا عـشـرـ العـربـ هـذـاـ جـدـكـ .. الـذـىـ تـنـتـظـرـونـ ، فـشارـ المـسـلـمـونـ إـلـىـ السـلاـحـ ، وـسـالـوـاـ بـظـهـرـ الـحرـةـ حتـىـ التـقـواـ بـصـاحـبـ الرـسـالـةـ الـعـظـمـىـ ، فـقامـ أـبـوـ بـكـرـ لـلـنـاسـ وـجـلـسـ الرـسـولـ صـامـتـاـ ، فـطـفـقـ مـنـ جـاءـ مـنـ الـأـنـصـارـ مـنـ لـمـ يـرـ رسـولـ اللهـ ﷺ يـحـيـيـ أـبـاـ بـكـرـ !! حتـىـ أـصـابـتـ الشـمـسـ رسـولـ اللهـ ﷺ ، فـأـقـبـلـ أـبـوـ بـكـرـ عـلـيـهـ يـظـلـلـهـ بـرـدـائـهـ ، فـعـرـفـ النـاسـ رسـولـ اللهـ ﷺ عـنـ دـلـلـهـ !!

وـسـعـدـتـ المـدـيـنـةـ بـالـقـادـمـ الـذـىـ كـتـبـ لـهـ الـخـلـودـ ، وـسـجـلـ بـهـاـ معـنىـ الـوـفـاءـ فـىـ الـحـيـاةـ وـالـمـاتـ .



الهجرة فكرة لا رحلة

قد يكون الشيء الواحد عملاً شاقاً مضنياً . أو لعباً مريحاً مسليناً ، وهو لا يتغير في مظهره ، وإن تغيرت بواعثه وملابساته !!

فصيد السمك رياضة مرحة يلهم بها بعض المترفين الناعمين ، وهو كذلك حرفة يرتزق من مكابدتها ألف العمال الكادحين !

والرحلة من قطر إلى قطر قد تكون سفراً قريباً أو بعيداً للاسترخاء والتنعم ، وإنفاق الفائض المخزون من الوقت والمال ، وقد تكون كذلك شيئاً في مناكب الأرض لتحصيل علم ، أو تقريب رزق ، أو فراراً من شر محظوظ إلى خير منظور .

والهجرة التي يحتفل المسلمون بها ، ويجددون ذكرياتها ، ويكبرون أصحابها ، هي في مظهرها سفر من مكة إلى المدينة يقطع فيه الإنسان نحو أربعين ميلاً في طريق وعرة موحشة .

ولكن الهجرة - كما عرفنا - لم تكرم لأنها سفر - فما أكثر المسافرين قديماً وحديثاً بين مكة والمدينة .

وما أكثر الذين يقطعون مسافات أبعد في آماد أطول وأشق .

بل لقد حدث على عهد النبي ﷺ نفسه أن رجلاً كانت له في المدينة عشيقه يهواها ، فلما رأى طريق الأبطال يزدحم بالفدائيين من حملة العقائد وهم يتركون البلد الذي اضطهد دينهم فيه ، يبغون في مهجرهم أماناً لإيمانهم ومتنفساً ليقينهم ، مشي العاشق الولهان بينهم يبغى المدينة كذلك معهم !

وشتان بين هذا وذاك ، هذه خطوات القلب المؤمن تتحرك في الحياة فتتحرك في ركابها الثقة الغالية والتضحية النبيلة .

أما تلك خطوات الشهوة الصغيرة تتحرك بصاحبها فلا تفرق بينها وبين خطوات الدابة التي حملته .

ورب قاعد في بلده أشرف نفساً من هذا المهاجر التافه .

وقد كان تعليق النبوة على هذا السفر : «إِنَّا أَعْمَلُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّا لِكُلِّ امْرٍ مَا نَوَى ، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ امْرَأَةٌ يُنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ» .

ولما كثر أدعية الإسلام والإيمان والهجرة ، واختلطت المظاهر التي يصطنعونها ليعدوا مسلمين مؤمنين مهاجرين ، مع أن حقيقتهم دون ما يزعمون ، وضع النبي ﷺ العلامات المميزة الخامسة لهذه الادعاءات فقال : «الْمُسْلِمُ مَنْ سَلَّمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ ، وَالْمُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَّهُ النَّاسُ عَلَى دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ» . وهكذا ربط حقائق الإيمان بأصول النفس ، وأهدر ما عدا ذلك من عناوين .

فإلى المختلفين بالهجرة من رجال الأحزاب ، وكذبة الكتاب ، وجماهير العامة ،
نوجه هذه الآداب .

● أشد الناس بلاء :

قيمة الزمن في عمر أي نبي غير قيمته في عمر أي فرد من البشر .
نحن نضيع علينا أكثر أيامنا سدى ، بين جد قليل ، ولهو كثير ، وسرور واقع ، أو سرور مرجو .
أما الأنبياء فأيامهم يتقسمها الإجهاد ، وتزحمها المتابعة ، ولا تبقى منها الأعباء
المترادفة متسعًا لحظوظ النفس في هذه الدنيا .

وبنينا محمد ﷺ صاحب الرسالة العظمى ، هو بلا ريب شيخ الأنبياء في هذا المعنى .
جعل الله حياته قبل البعثة إعداداً للبعثة العامة التي تنتظره .

وكان من مستلزمات هذا الإعداد ، أن يعيش فريداً يتيمًا قليل المال ، غريباً بنفسه
وفكره عن البيئة الصالحة التي نبت فيها ، تاجرًا يكبح ليكون رزقه من عمل يده ،
قبل أن يكون رزقه تحت ظل رمحه .

فلما أرسل إليه وصدع بأمر الله ، واجه دسائس الضمير الوثني المشرك الذي لم يبال
أن يحارب الرسول بكل سلاح ، ثم دسائس الضمير اليهودي ، الذي لم يبال في سبيل
النكاية بالدين الجديد ، أن يزعم ، بل أن يحكم ، بأن وثنية قريش أفضل من توحيد
محمد ﷺ !! ويزيد بذلك في تأليب عباد الأصنام على أتباع القرآن الذي طالما مجد
موسى وكتاب موسى .

ثم يمكث الرسول ﷺ ثلاثة وعشرين عاماً يستمع إلى صوت الوحي ، وما ظنك
بالجهد الذي يناله من الوحي ؟

لقد كان يأتيه في اليوم البارد فيتركه وجبينه يتصلب عرقاً .

وكان أحياناً يطن في أذنيه كصلصلة الجرس فيتوتر منه جسمه وتتشقّل أطرافه .
وهذا الوحي هو أساس عمله ودعوته .

ثم هذه الغزوات العسكرية بعد الغزوات العقلية الواسعة التي سبقتها .
حتى إذا استتب الأمر وبدأت الجهود المضنية تؤتي ثمرها ينزل الروح الأمين ليخبر
النبي ﷺ أن رسالته على ظهر الأرض قد تمت ، وأن الملأ الأعلى ينتظرون مقدمه ،
ويلقى عليه قول الله عز وجل :

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبَّحَ
بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفَرَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَابًا﴾ (١) .

كان لي صديق ذكي قضى صدر شبابه مدارسة للعلم وتحصيلاً ، وجاز امتحاناته
الكثيرة عقبة من بعد عقبة ، فلما انتهى بنجاح من أعباء الدراسات والامتحانات ،
اختطفه الموت دون أن يرى ثمرة كده ، ذاك الصديق الحبيب ، هو مثل على ضائلته
لصاحب الرسالة العظمى ﷺ .

فما أن رأى بواكيير نجاحه في جهاده الطويل ، حتى حال الموت بينه وبينها ، كأنما
يريد القدر أن تكون حياته للغرس والتعب فقط ، ثم يولي تاركاً للناس الخير والقطاف .

● في الطريق إلى يشرب:

ترك النبي مكة إلى المدينة وعمره ثلاث وخمسون سنة ، ولا ريب أن حالي النفسية كانت
تتوج بعواطف بعيدة الغور ، وذكريات عزيزة جياشة ، فيها من الحب بقدر ما فيها من الأسى .
هذه البلدة نشأ فيها طفلاً محفوفاً بعنابة الله ، ثم شاباً مطهراً مرقوماً بالتجلة والوقار
من الرجال والنساء ، ثم رجلاً لا ترقى إلى سيرته ريبة ولا تعلق بخلقه ظنة ، ثم نبياً
يحلم على الجهال ، ويدفع السيئة بالتي هي أحسن .

وها هو ذا بعد أن خط الشيب رأسه ، يخرج من موطنـه ، يتنكر له الأقرباء والغرباء ،
وتبتـ في طريقـه الأرصـاد ، وتوضعـ المكافـات لـ من يـسفـك دـمه !

(١) سورة النصر .

أتكون هذه خاتمة حياته الحافلة بمكة ، أم تراه سيرجع إليها كرة أخرى ؟ وهل سيترك
أهل مكة نكيرهم عليه ، ويؤمنونه على دينه ؟
ويختلج في نفسه الأمل العذب ، هل سيعود إلى مكة ؟

وهنا يتنزل الوحي : ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِرَادُكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٢) .

ولكن الجبارين الذين أقاموا بمكة يكفرون ويكرهون الناس على الكفر ، ماذا يكون
حالة معهم ، أو ماذا يكون مصيرهم ؟

وهنا ينزل الوحي مرة أخرى : ﴿وَكَأَيْنَ مِنْ قَرِيَّةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرِيَّتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتَكَ أَهْلَكَنَا هُمْ فَلَا نَاصِرٌ لَهُمْ﴾ (٣) .

ولقد صدق الله وعده ، فخط بجباري مكة مصارعهم الواحد بعد الآخر ، ومن بقي
منهم حياً ، فقد بقى ليوقع صك التسليم النهائي ، ولعيش في ظل العفو العام الذي
أعلنه الرسول عليه الصلاة والسلام بعد أن رجع إلى مكة رجعة عزيزة ، تذكر له آخر
الدهر ، أنه كان عظيماً يوم أخرج ، عظيماً يوم عاد .

● منطق العقيدة :

تنتصر العقائد بين الناس بعد ما تنتصر في نفوس أصحابها .

هذه حقيقة يجب أن يعرفها حملة المبادئ .

وأن يطمئن إليها نقلة المثل العليا إلى الناس .

فإذا حدث أن وازن الإنسان بين عقيدته ونفسه فرجحت نفسه ، أو بين عقيدته
وماله ، فرجح ماله ، أو بين عقيدته وتمتعه الخاصة ، فرجحت متعه الخاصة ، فمعنى
ذلك أن العقيدة أهون لدى صاحبها من كل ما يملك أو يهوى ، وسوف يبيعها في أول
مساومة ويتخلل عنها في أول صدام ! .

أما إذا غالى الإنسان بعقيدته ، فسفك دونها دمه ، وبذل قبلها ماله ، وضحى في
سبيلها براحة البدن ، وسكرة اللذة ، وطيب العيش ، فقد صدق في إيمانه ، ووفى
لعقيدته ، ونجح في محنته ، وكسب النصر لدينه ، والخير لنفسه معاً .

(٣) محمد : الآية ١٢ .

(٤) القصص : الآية ٨٥ .

تأخرت أستبقى الحياة فلم أجد لنفسي حياة مثل أن أتقى
وذلك المعنى الرائع هو الذي ملأ نفوس المؤمنين قبل الهجرة ، فلما دخلوا مع العالم
كله في «معركة المصحف» بدأت الخسائر تنزل بهم متلاحقة ، وظلوا مروعين في
أنفسهم وأهلיהם بضعة عشر عاماً ، وكانت دورهم وأموالهم بمكة آخر ما نزلوا عنه
في سماحة ورضا . دون أن يفرطوا في ذرة من إيمانهم ، أو يقبلوا الدنيا في دينهم ،
أو يميلوا قليلاً مع تيار الكفر المناوئ لهم ، حتى لقد فهم المشركون أن ارتداد الشمس في
مدارها أقرب إلى الواقع من ارتداد مسلم عن دينه .

لقد انتصرت العقيدة في نفوس هذه الفئة المكافحة انتصاراً حاسماً ، وفداها أهلها
بكل غال وثمين ، فلم يبق إلا أن تأخذ جزاءها الحق ، وأن ترفق أعلامها بين الناس
أجمعين ، وأن تحنى لها الهمات إجلالاً وإكباراً .
ولو كانت همامات الخصوم والمكابرين .

إن هذه الحقيقة - انتصار العقائد في نفوس أصحابها - تكملها حقيقة أخرى ،
وهي أن أهل الخير ، إن فاتهم تأييد أهل الأرض بعد ما يبذلون كل ما لديهم من طاقة ،
فلن تخذلهم في كفاحهم المقدس قوى السماء !

وذلك سر التحدى في قول الله تعالى للناس : ﴿إِلَّا تَصْرُوْهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ (٤) .

أجل ! فما كان الله ليذر الخلصين من عباده دون أن يشرفهم بالنصر الموعود .

بيد أن للقدر الأعلى أسلوباً في سوق النصر يعلو على مستوى العقول ، فما تقول في
أمر ظاهره هزيمة وفرار ، وباطنه تأييد وانتصار ؟

لقد كانت الهجرة خاتمة سيئة لجهاد طويل في مكة هكذا بدا للسطحين من
الناس ، ولكن القدر العزيز جعل من هذه النهاية المحزنة نقطة التحول في تاريخ الدعوة
الإسلامية كلها ، وبداية الفوز المكين ، والغلب الساحق ..

ذلك أسلوب القدر الحكيم ! لا يزال يتكرر مع الزمن ! شر في باطنه خير ، وقتل في
أعقابه حياة ، وتراجع يتبعه التقدم والانطلاق .

(٤) التوبة : الآية ٤٠ .

لماذا حرب؟

كان لدى المشركين أكثر من سبب لعداوة الإسلام والتجهم لرسالته ومخاضة أتباعه ، ولسنا نظن الاقتناع بصلاحية الوثنية والاطمئنان إلى ما فيها من جهالة وخرافة ، أحد هذا الأسباب .

بل إننا نستبعد ذلك من رجال اشتغلوا بشئون التجارة ، وطوفوا في آفاق الدنيا ، واستعرضوا الآراء والأفكار ، وقاموا برحلات عظيمة الأثر في رفع المستوى العقلي . . . ثم استمعوا بعد ذلك لمحاجة القرآن وأسلوبه الناصع في عرض الدعوة وبسط آياتها . . . أترى أولئك النفر من قادة قريش وساستها كانوا يتغيبون للأصنام ضد الإسلام عن فقه واعتقاد ؟

إن سر التكذيب والخصومة أبعد من ذلك ؛ إن التعصب لهذه الحجارة المعبدة لم يكن إلا ستاراً للحرص على المنافع المبذولة في ظلها ، والشهوات المنطلقة برضاهَا ، والسيادة المقرونة باسمها .

إنه حرص أصحاب الأوضاع القائمة على ما يستفيدون منه ، ويرون ضياعه ضياع مجدهم وسقوط منزلتهم .

والدعوة إلى الإسلام لم تكن دعوة لهدم الأصنام فقط ، بل لهدم الرجال الذين ربوا كبراءهم ومصالحهم ببقائهما ، وهاجت في نفوسهم مشاعر الحقد والغطرسة ضد من يهاجمها ، ونظرت إلى الدعوة الجديدة ورجالها من زاوية خاصة ! زاوية المنافسة والاستكثار والاستنكار . . . وانظر إلى هؤلاء المشركين يكتشفون عن عواطفهم الدفينة ، وأسباب تكذيبهم لصاحب الرسالة العظيم فيصيرون :

﴿وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعُ الْهُدَىٰ مَعَكَ نَتَخَطَّفُ مِنْ أَرْضِنَا . . .﴾ (١)

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرِيتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (٢) .

﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَنِ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ . . .﴾ (٣) .

(١) الأنعام : الآية ١٢٤ .

(٢) الزخرف : الآية ٣١ .

(٣) القصص : الآية ٥٧ .

﴿أَوْنَزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِ أَيْمَانِهِ﴾ (٤).

ماذا ترى في هذا التساؤل والاعتراض .

أليست تسمع فيه صرخ الهوى والأثرة ضد الحق المبين ، لا لشيء في هذا الحق غير الحسد لمن جاء به ، والشعور بأن انتصار الحق سوف يقوض دولة الظلم ، ويزيل زل عظماءها ، ويتحطفهم من أرضهم ، ويحوّل كافة مالهم من امتيازات باطلة ؟

ذاك سر كراهية الجبارين والطغاة للإسلام ودعوته الجليلة في كل زمان ومكان . إن فرعون لما توقع على موسى وألب حاشيته ضد رسول الله لم يكن يعلم من نفسه أنه إله ، وما كان أتباعه يحسبون أنفسهم عبيده الذين خلقهم من عدم . . . إنه الكبر والاستعلاء .

﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنُتُهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ (٥).

وإنه ليستنهض الهمم في مقاتلة عباد الله بهذا الأسلوب العاتي المغرور :

﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشَرُّذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ * وَإِنَّا لِجِمِيعِ حَادِرُونَ﴾ (٦).

أتري في هذا الأمر الفرعوني إلا السفه والجبروت ؟

أتري فيه أثارة لعقل أو حق . . . ؟ كلا .

في هذا الطريق الجائر مشت العلاقة بين رسول الله إلى الناس ، وبين حراس الصلاة والفووضى بين الناس . ما أن يدور النقاش على هذا النحو الذي رأيت حتى يضيق المبطلون بما يسمعون ، ثم يبدأ النفي والاضطهاد ، وتبدأ الهجرة والفرار .

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مَلَكَتِنَا فَأَوْحِيَ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنَهْلِكَنَ الظَّالِمِينَ * وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ (٧).

(٥) النمل : الآية ١٤ .

(٦) إبراهيم : الآية ١٣ ، ١٤ .

(٤) سورة ص : الآية ٨ .

(٧) الشعرا : الآية ٥٣ - ٥٦ .

إن الخبراء بأحوال المجتمعات الفاسدة يعرفون بفطرتهم ما سيلقاه مصلحوها من عناء . وقد كان ورقة بن نوفل صادق الحدس عندما قدر أن مكة سوف تتمرد على رسول الله ﷺ ، وتأبى مقامه فيها ، وجاش في نفسه حب النجدة والانتصار للحق المستضعف ، فقال : ليتنى فيها جذعاً إذ يخرجك قومك . فتساءل النبي ﷺ دهشاً : «أو مخرجى هم ..؟!

إنه تساؤل الرجل الشريف ، البعيد عن خواطر الشر ووساوس السوء ، لا يمر بفواده السمح ظل للعدوان فهو لا يفترضه في غيره ! ثم هو بأمانته ومرءاته وطيد المنزلة بين الناس ، فما الذي يؤلب الناس عليه ويحملهم على إخراجه ؟

بيد أن ورقة يؤكّد ما يقول : «ما أتى رجل قومه بمثل ما جئت به إلا أخرجوه ، ولئن يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزراً» .

وقد حدث ما توقعه ورقة ، بل تخضت الأحداث عن عدوان أشد . فلم يخرج الرسول ﷺ فقط ، بل وضعت الجوائز المغربية لمن يأتي به حياً أو ميتاً بعد ما أخفقت المؤامرة البيتية على سفك دمه !

إن كبرىء السادة ، وملق الأتباع ، يضع أمام المصلحين عقبات جساماً دون تحطيمها جهاد وجلاّد ، وينبغي أن يتهدأوا بذلك حتى لا تروعهم المفاجأة وما أحسن قول المتنبى :

عِرْفَنَا الْلَّيَالِيْ قَبْلَ مَا صَنَعْنَا بَنَا فَلَمَّا دَهْتَنَا الْمَ تَزَدَنَا بَهَا عِلْمًا

إن العداوة بين التوحيد والشرك بدأت عنيفة جداً ، برغم أن النبي ﷺ حاول جاهداً أن يلطف من حدتها ، وأن يتتجنب مضاعفاتها ، وأن يضفي من فضله ونبله على ما حوله ، فهو يصل من قطعه ، ويعطى من حرمه ، ويعفو عن ظلمه ، ويصابر السفهاء ، ويلين للمشاغبين .

لَكُنْ ذَلِكَ كُلُّهُ لَمْ يَجِدْ فَتِيلًا مَعَ مَا اتَّخَذَ إِلَهَهُ هُوَاهُ . . . !

وهكذا أثبتت تاريخ «العنجهية الوثنية» أن ترويضها مستحيل ، وأن تلطف الأنبياء معها لم يزدها إلا ضراوة ، وأن وحشيتها لا علاج لها إلا تقليم الأظافر وتحطيم الأنابيب ، وأنها لو استطاعت سفك الدم الحرام قتلت ، ولو استطاعت كبت الحرريات فعلت ، لا يثنىها شيء أبداً .

والعداوة الأزلية الأبدية بين المحقين والمبطلين ليست مما يأسف للإنسان له أو يستوحش منه ما دام يحمل عليها حملأ .

بل لقد كان الرجال أصحاب المبادئ يفخرون بها ويرونها آية الصدق والاستقامة .

أصحاب الرسالات

الرجل صاحب الرسالة يعيش لفكرته ويعيش في فكرته .. !
فحياته فكرة مجسمة تتحرك بين الناس ، تحاول أبداً أن تفرض على الدنيا نفسها ،
وأن تغرس في حاضر الإنسانية جذرها ليمتد على مر الأيام والليالي فروعًا متشابكة
تظلل المستقبل وتتغلغل فيه .. .
ومن ثم تبدأ الدعوات والنهضات الكبرى برجل واحد ، هو - في بداية أمره -
أمة وحده .

أمة يتخيل حقيقتها في رأسه ، ويحس ضرورتها في دمه ، ويبشر بها في كلامه ،
ويحمل أثقالها على كاهله .

ولا يزال يجمع الرجل على الرجل ، ويضم البيت إلى البيت ، ويرسم المبدأ والوسيلة
والهدف ، وينفح من روحه فيمن حوله .. فإذا الأمة التي كان يتخيلها وحده قد أصبحت
حقيقة واقعة تطلع الشمس عليها ، ويعرف الناس بها ، ويسجل التاريخ قيامها .
وهكذا بلغ النبيون رسالات ربهم ، وصنعوا بأيديهم الأمم التي انتقلت بها الإنسانية
من طور إلى طور .

وهكذا فعل العظماء من قادة الفكر الناضج ، وأصحاب المذهب الفعالة والتيارات
العقلية الكاسحة . إن أحدهم يضع «تصميم» المجتمع الذي ينشده كما يرسم المهندس
على الورق تصميم القصر الذي يريد .. . ثم لا يزال يرفع القواعد ، ويشيد الشرفات ،
ويستحدث الفعلة ، ويستكمل الأدوات ، حتى يستوى البناء قائماً شامخاً ، عليه من
روح منشئه طابع وبرهان .

وإن أحدهم ليقول الكلمة في الإبانة عن دعوته فتتلتف بها النفوس والعصور تلتف
الأرض الخصبة للحبة التي أودع الله فيها سر النماء والازدهار .. فإذا هذه الكلمة
المرسلة تنشئ رجالاً وتخلق أبطالاً . بل تنشئ أجيالاً وتنزل جبالاً .

وإن أحدهم ليولد وفي الدنيا دول قائمة ، وأراء سائدة ، وتقالييد مقررة ، وجمahir تحيا
على ذلك وتموت ، كأنها فقاعات الموج ، تظهر وتحتفى ، لا وزن لها ولا غباء .. فإذا الدنيا

تميد تحت قدمي صاحب الرسالة الناشئ وهو ينظر إلى الأوهام السائدة ، والممالك القائمة ، والأحزاب المتألبة ، ثم يبتسم في قلة اكتراث ، ويقول قوله النبي العظيم قبيل موقعة حنين . وقد وصفت له تجمعات أعدائه وعدتهم : « تلك غنيمة المسلمين غداً إن شاء الله » !!

أولى صفات صاحب الرسالة أنه يؤمن بنفسه ، ويُكفر بخصومه ، ويغالى بفكرته ، ويُحقر ما عدتها ، ويُزحِّز غيره ، ولا يتزحَّز أبداً ، وينزل الناس على رأيه إن استطاع ، ولا ينزل على آرائهم أبداً . ويثبت على شدة الكيد ، ويصبر على مرارة الهزيمة ، ويعيش في وطن يعلى من دعوته إن نبا به وطنه ، ويُدوس الأمجاد الزائفة والدنيا الزائلة ، ويُستهزئ بعروضها ، ولا تستخفه كثرة طلابها ، ولا تفجعه قلة الزاهدين فيها .

وفي حياة « محمد بن عبد الله » النبي الذي أدب العروبة ليؤدب بها الأُم ، والذي قدم للحياة رسالة لا تزال الإنسانية تتلقى بها وتتألق ، وتشرف بها وتزدان .. في حياة هذا النبي النبيل مثل عليا يفزع إليها صاحب كل رسالة فاضلة عادلة ليرتوى منها إذا صدِّى ، ويُسعد بها إذا شقى ، ولقيتيس منها دروساً مجده في طرائق الجهاد المضنى عندما يتجرد الحق إلا من إشراقه ، ويتشدد الباطل لكترة عدته وعتاده .. !!

بدأ هذا الرسول الكريم فوضع فواصل غليظة بين الحق الذي اهتدى إليه ، وبين الباطل الذي توارث الناس العمل به والاحتکام إليه .

إنه من ناحية العدد قليل بنفسه وآخوانه ، وهؤلاء كثير بأنفسهم ونظمهم المألوفة وأفكارهم القديمة وأوضاعهم العتيدة . فلا بد إذن من قطع كل أمل في أن يتفق معهم أو يخضع لهم ؛ لقد سلك نهجاً غير الذي ألفوا ، ولن يجمعه بهم طريق ما داموا على معتقداتهم الأولى .

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾⁽¹⁾.

في هذه السورة تسمع صرخة الحق العنيد عندما يفترض أن الباطل سيلج في غوايته ، وأن هذه الحاجة لن تشنى لأصحاب الحق عزماً ، أو تقييد لهم قدماً . وأيات هذه السورة ترمى إلى مجاهرة الكافرين بهذه الحقيقة الرائعة ، وهي أن كتبة الله

(1) سورة الكافرون .

انطلقت لأداء رسالتها ، وعرفت أنها متمرة على الأوضاع الباطلة ، ثم هي مسرورة بهذا التمرد ، أنسة به ، وأنه يزداد سرورها عندما يعلم الكفار ذلك ، وعندما يوقنون بأن الكتبية المؤمنة قد بنت حاضرها ومستقبلها على ذلك ، فلن ترجع إلى الكفر حتى يلجم في سم الخياط ..

والرسول العظيم في هذه الخطة يقتفي أثر جده إبراهيم لما نابذ قومه بالخصوصة ، وجعل من أهله المؤمنين حزبًا يمثل الحق وينافح عنه .

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنِّي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِنِي * وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٢) .

على أن الصبر على أعباء الرسالة التي تدبر للإنسانية حدثاً ضخماً ، يعارضه من الناحية المقابلة صبر من الجامدين على موروثاتهم المقدسة واستماتة في الدفاع عنها .

وهنا يدخل الفريقان في مبارزة بالصبر أقسى وأنكى من المبارزة بالسلاح ، والفاائز فيها أطول الفريقين إصراراً ، وأشدتهم تحملًا ، وأكثرهم بذلاً ، وأرضاهم بتقديم التضحيات الجسيمة ، وأجرؤهم على اقتحام الأهوال العظيمة .

ولن يكتب النصر للإيمان إلا إذا توفرت هذه الشرائط كلها لأتباعه ، فإن الباطل سيسخر من الحق سخرية لاذعة طويلة اللسان :

﴿وَإِذَا رَأَكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوا أَهْذَا الَّذِي يَذْكُرُ آهْتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ (٣) .

وسيبدى الباطل أنه لم يأبه للصيحات التي تناولته ، وأن هذا الحق الجديد وأصحابه المغورين به ليسوا إلا سحابة صيف عن قليل تنقشع ، وأنها لم تغير شيئاً مما كان ، ولن تستطيع ذلك .. ويقولون في عناد :

﴿وَإِذَا رَأَوكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوا أَهْذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً * إِن كَادَ لَيُضْلِلَنَا عَنِ الْهَتْئَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ (٤) .

(٢) الزخرف : الآية ٢٦ - ٢٨ . (٣) الفرقان : الآية ٤١ . (٤) الأنبياء : الآية ٣٦ .

وسوف يجذب الكفار إلى المال - وما أقوى سلطان المال - يستغلونه للرشوة وشراء العقائد وتخريب الذم ، فإن عجزوا عن ذلك استغلوه في إشعال حرب مهلكة لتأديب الشائرين - كما يقولون - وإعادة المياه إلى مجاريها !

والعدل في البيئات الظالمة كالنور في الليالي المظلمة ، كالتوحيد في الأمم المشركة ، كل ذلك خروج عن المأثور ، فهو ثورة تستنكر ويحارب أصحابها ، وعلى المؤسسين بأنهم ثوار أن يصبروا على هذه التسمية وما تستلزمها من معاملات يفرضها ناموس الأوضاع القديمة إلى أن يأذن الله بزوال هذه الأوضاع ..

وقد كان الرسول الكبير صبوراً على مطالب رسالته ، ناهضاً بأعباء دعوته ، وهو يعالج أمة في أخلاقها وحشة ورعب ، وكأنها ظلال للصحراء التي تسكنها من قديم . وفي كنف هذا الرسول تربى جيل من البشر يهتئ أن يوجد مثله بلاءً ووفاءً وقديرًا لقيم الرسالات وزناً للرجال بمعاييرها الصحيحة .

إنه جيل لم ينكص أمام أي نوع من أنواع التضحيات طلب إليه .. ضحى بكل شيء لكي يسلم له دينه فحسب .

خرج صحيب مهاجرًا فاتبعه نفر من مشركى قريش فنزل عن راحلته ، ونشر ما كان في كناته وقال : والله لا تصلون إلى أو أرمي بكل سهم معى ، ثم أضرب بسيفي ما بقى في يدي .. وإن شئتم دللتكم على مال دفتنه بمكة ! وخليتكم سبيلي . فقالوا : دلنا ! ففعل . فلما قدم على رسول الله ﷺ نزلت فيه هذه الآية :

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾^(٥).

ومن عمل العقيدة العميقه في النفس أنها تهيج أصحابها حتى تجشمها فوق طاقتها من عمل ؛ فإن الله عز وجل عذر في الهجرة من لا يستطيعها من الشيوخ العجوز ، ولكن شيخاً مريضاً من بنى ليث حدثه قوة الإيمان في نفسه ، وأوحى إليه الرسالة الصادقة التي يعمل لها ، أنه أهل للهجرة ، فقال : والله ما أنا من استثنى الله عز وجل وإنى لأجد حيلة .

ولى من المال ما يبلغنى المدينة وأبعد منها .

والله لا أبىت بمكة ، أخرجنى .

(٥) البقرة : الآية ٢٠٧ .

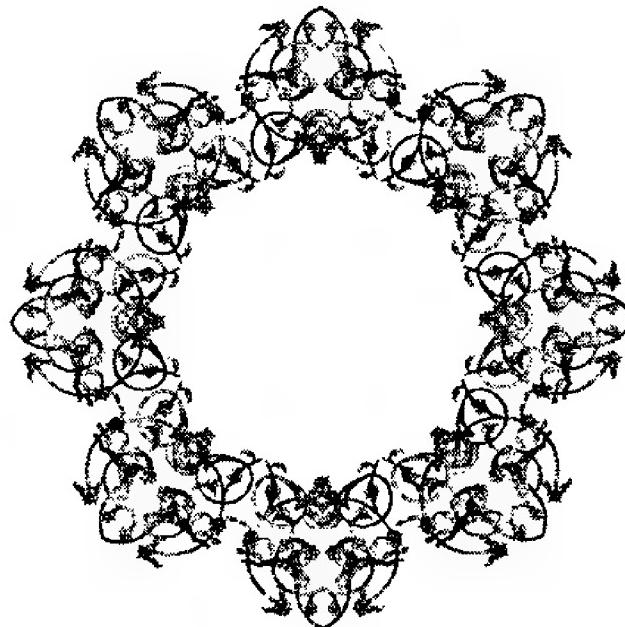
فخرجوا به يحملونه على سرير حتى جاوزوا قريباً من مكة ، فبرحت به العلة وحضره الموت .

فضرب بيمنيه على شماليه - كهيئة المبايعة - ثم قال : اللهم هذه لك .
وضرب مرة أخرى وقال : وهذه لرسولك ، أبأيتك على ما بائع رسولك ..
ثم مات ...

وبلغ خبره أصحاب رسول الله ﷺ ، فتمنوا لو أن الرجل وافى المدينة ! فنزلت الآية :
﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (٦) .

إن الرجل صاحب الرسالة يؤثر في الحياة ولا يتأثر بها ، ويوجه الأمة ولا يندرج مع تيارها .

وكل عام يلوح هلاله في الأفق ، يذكر المسلم الحر ، بآن النفس والمال والأهل والوطن ، فدى للإيمان الصحيح ، والإخلاص لله ورسوله .



(٦) النساء : الآية ١٠٠ .

المُنْقَذُ الْمُجْهُول

تختضت متابعت المسلمين في مكة عن الهجرة منها .

فغادرها الرسول ﷺ وصحابته إلى يثرب ، وهناك استطاعوا بناء الأمة التي ي يريدون ، وإقامة الحكم الذي يبتغون . ولكن المسلمين - كبقية الأمم - لا تنتهي أمامهم سلسلة المتابع ، بل لا بد من أن يواجهوا شتى الصعاب التي شرعت من أجلها فريضة الجهاد ، وقررت عقيدة الكفاح .

ولما كانت مراحل التاريخ الفسيح لآية أمّة تتراوح بين الضعف والقوة ، والهبوط والرفع ، فقد لاحظ العلماء أنّ الأمّ - إبان ضعفها وذلتها ، وتنكر حاضرها لها وسير أمورها على غير ما تهوى - تؤمل أبداً أن يكون غدّها أكرم وأعز ، وترتفع في هذا الغد الزعيم الذي يحقق أمالها ، ويبدد آلامها ، ويدرك لها ثأرها من عداتها .

وربما تطورت هذه الأمّية التي تتنفس فيها الرغبات المكبوتة إلى عقيدة عميقـة يصاحبها الانتصار الطويل أو القصير !

وليس يهمنا الحكم على هذه الملاحظة من الناحية النفسية ، ولا من الناحية التاريخية ، إنما يهمنا أن يطمئن القراء إلى قيمتها من الوجهة الإسلامية ، فقد صح عن صاحب الرسالة العظمى إخباره : أن الله يرسل لهذه الأمة كل قرن من يجدد لها أمرها !

لست أقتنع بقصة المهدى المنتظر كما يتصورها بعض المسلمين من أنه متربص فى محبسه من اثنى عشر قرناً ينتظر أن يؤذن له فى الخروج فينطلق فى فجاج الأرض يملؤها عدلاً كما ملئت جوراً . . . !!!

إن هذا الاحتباس الغريب شيء يعز على التصديقات . . .

ولكنى أرجب بفكرة المهدى على أنه أى امرئ مسلم يغضب لله ، ويغار على دينه وعباده ، ويزدرى الضلال السائد بين الخاصة وال العامة ، والركود الذى يوهن المسلمين ويسلط عليهم عدوهم ؛ فيقوم الله قومه مؤمن خالص القلب صادق الجهاد ، ولا يزال ينفح من روحه المقدام فى أرواح من حوله حتى يجعل ريح الإسلام تهب بعد ذهاب ، وتنتشر فى آفاق الأرض بعد طول غياب .

ومن ثم لا ينبغي أن يقنط المسلمون فيتركوا التفكير العملي في شؤونهم ، فإن الله¹
يتعهد لهم بين الحين والحين بمن يدفع نهضتهم إلى الأمام ، وينفح فيها من روحه حتى
لا يخبو لها ضرام .

وقد يقال : إن هذا المعنى يدعو إلى الكسل لا إلى العمل ! وهذا خطأ وقع فيه المسلمين ؛ لأنهم لم يحسنوا فهم كثير من العقائد والتعاليم على وجهها الصحيح .

ألا ترى أن عقيدة القدر كان يجب أن تترك في كل نفس آثار الشجاعة التي لا ترهب أحداً، والتضحية التي لا تبقى على شيء؟

ولكن الحمقى جعلوها أساساً للنكوص والتواكل وسقوط الهمة .

كذلك أراد الإسلام ألا نستعين لضيئم ، وألا نستكين لهوان ، بل يجب أن يبقى الشعور بالظلم كميناً بين الجوانح ينتظر العاصفة التي تلهبـه ، فيستطيع كل زعيم قوى المنهـاج أن يستغله وأن يوجهـه .

حتى إذا وجد هذا الشعور ، وتوافق معه التطلع إلى هذه القيادة المنقذة المجددة من بين أصحاب الموهب النابغة ، عاد ذلك كله على التاريخ الإسلامي بالخير الجزيل .

ونحضرنا قصيدة لابن الرومي يصف بها عدوان الحكومة في عهده ، واصطهادها للمطالبين بتغيير «بني العباس» فهو يتهددها قائلاً :

وخلوا ولاة السوء منكم وغיהם
نضار لكم أن يرجع الحق راجع
على حين لا عذر لمعتذر يكم
فآخر بهم أن يغرقوا حيث لجعوا
إلى أهله يوماً فتشجعوا كما شجعوا
ولا لكم من حجة الله مخرج
ثم هو ينتظر مع المنتظرين هذا المنفذ المجهول ، ويصف الجيش الذي يكون على رأسه
وصفاً يستغرق نحو سبعة عشر بيتاً من عيون الشعر العربي تدلّك على مبلغ هذا الأمل
من القلوب وشدة تعلقها به :

لعل لهم في منطوى الغيب ثائراً
بجيش تضيق الأرض عن زفاته
فيدرك ثأر الله أنصار دينه
ويقضى إمام الحق فيكم قضاءه

١) صيغة عالية .

ثم تراه يشفق على الإسلام من تصرفات حكامه الحمقى في ذلك العهد ،
ويحذرهم عاقبة المضي في هذه الطريق التي تنكر لدين الله وأحكامه فيقول :

وإنى على الإسلام منكم لخائف بوائق شتى بابها الآن مرج
لعل قلوبًا قد أطلتم غليلها ستظفر منكم بالشفاء فتلتج
ونحن مع تشجيعنا لهذه الفكرة ، في حدود ما أوضحنا ، نريد أن نذكر نوعاً من
الدجل أبي إلا أن يسايرها حتى كاد يذهب بحالها ويحوّلها . ذلك أن كثيراً من
شيوخ الطرق أو قطاعها أعطوا أنفسهم لقب المهدى ، وارتدوا ملابس الزعامة
الإسلامية ، فانقلبوا فيها مثلين عقوتين ، وانقلبت أعمالهم مساخر لا آخر لها .
وتلك من نكایات الزمن ب المقدسات هذه الأمة في دينها ودنياه .

إن أمتنا تتجدد كل قرن لتعالب عوامل الفناء ، فلنواجه ، نحن المسلمين ، مستقبلنا
بقلوب جديدة العزم ، وعقول جديدة الفكر ، ولنننظم في صفوف الحياة الراकضة لنكون
أبداً طلائعها الأولى .

إن كياننا راسخ تميد الجبال ولا يميد ! ونحن في حراسة الحفظ الإلهي ما بقينا أبناء
القرآن ! فاحرصوا على رسالتكم أيها الأئمة .

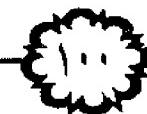
من يدرى ؟ لم لا يكون من بينكم هذا المنقد الكريم . هيا . . . ركضاً إلى الله .

● القلة.. والضعف:

حرم الإسلام على بنية الذل ، كما حرم الخمر ، وكما حرم سائر الفواحش والمناكر .
وليس يغض من قيمة هذا التحريم الحاسم أنك تجد أفراداً من المسلمين مخمورين
لتعاطيهم المسكر ، أو أنك تجد شعوباً من المسلمين مظلومة «لتعاطيها» الذل وتخبطها
في سكرته !! .

وتحريم الذل بعض ما أوحى بالهجرة إلى المدينة ، ومن قبل المدينة إلى الحبشة ، ولم
يكن الذين أقاموا بمكة إلى حين الهجرة العامة مستكينين إلى ضيم يراد بهم .

كلا ! فقد كانت الكرامة الإسلامية مثلاً في الأنفة والترفع والاعتزاز ، وكانت
المبادئ الإسلامية تجعل أصحابها في الذروة من الروح المعنوية الغلابة .. ولكن
ال المسلمين كانوا قلة في العدد ، وقلة في المظاهر المادية التي لابد منها للانتصار المادي .



ومن ثم استضعفهم أعداؤهم حتى اضطروهم إلى التحول عن وطنهم ، فتحولوا تحول العزيز الذي يكره أن يكون ضعفه ذلاً ، وتحول الأبي الذي أعزته أسباب النصر في ميدان فذهب يبحث عنها في ميدان آخر ، وتحول المصمم الذي قد يدور في طريقه مرة ومرة ولكن عينيه شاخصتان أبداً إلى هدفهم الفريد !! .

ولو كان المسلمون في مكة كثرة نسبية ، أو كثرة ذاتية ، لأصبح رأس أبي جهل تلاعب به أقدام صبيتهم ، ولطاحت رءوس ت يريد أن تفتن المسلمين بجبروتها وسطوتها ، وأن تطفئ نور الله بجهالتها وغفلتها .

أجل ! فإن نعمة الإسلام على المستكبارين لا تعدلها إلا نعمة على المستضعفين .
وفي عصراً هذا طرأ على المسلمين محن قاسية .

فمنذ سقطت خلافتهم الكبرى ، وانتقض شمل الجميع . وعربدت القوى الساطية في أرجاء الإسلام وأهله - صحا نفر من المسلمين فوجدوا أنفسهم قلة في دول صنعت صناعة ليكون السلطان فيها بعيداً عن أيدي المسلمين ..

ووضع هذه القلة شائق .

فهي تهفو بروحها إلى الالتحاق بالكيان الضخم الذي سلخت عنه ، ولكنها لا تستطيع ذلك ، ثم هي تحاول أن تقيم مجتمعاً تبرز فيه ملامح الإسلام ، وتنفذ شرائعه ولكنها لا تستطيع .

وقد تحيى في جو من الفتنة والإرهاب يستهدف إذابة عقائدها ، ومحو معالمها
فماذا تصنع ؟

إن العبء ثقيل على كل قلة إسلامية فرضت عليها الأقدار الاضطهاد والغربة .
والرأي أن تبقى حيث هي إذا كانت كثرة ذاتية ، فإن الأمل أن يؤدي بقاوها على دينها إلى توطن الإسلام في تلك المنطقة ، وأن ترسخ في ثراثها شعائر التوحيد ، من أذان وصلوة وتوافق بالحق والصبر .

ومن يدرى لعلها تكون المفتاح لخير واسع يصيب بقية الأرجاء المحرومة من أنوار الإيمان .
أما إذا كانت قلة تخشى على نفسها أو على أعقابها التنصر أو الارتداد إلى أية نحلة ، فمن حقها ، بل يجب عليها أن تنزع إلى دار الإسلام ، وأن تلحق بالجمهرة العظمى من المسلمين ؛ كي تأمن على صلتها بربها .

ونحن نعتبر جماهير المسلمين في روسيا وفي يوغوسلافيا كثرة ذاتية .
وكذلك في الهند والصين ..

وهم كثرة في الحبشة وغانا وأوغندا وغيرها .

ذلك ، وقد وضع الإسلام حدًا للكثره وللقلة التي تترتب على بيانها الأحكام
الأنفة . فما ينقص عن اثنى عشر ألفاً يعتبرون قلة ، وعلى هؤلاء القلائل أن يتركوا
بلادهم إذا ما اضطهدوا واعتدى عليهم ، وفي أمثالهم يساق الآيات :

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمٍ أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَا كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعِفِينَ فِي
الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتَهاجِرُوا فِيهَا﴾ (٢) .

أما ما يربو على اثنى عشر ألفاً فلن يهزم اثنا عشر ألفاً من قلة ، فعلى أولئك أن
يستقتصوا في الدفاع عن دينهم وعن وطنهم ، وأن يتfanوا في الحفاظ على البقعة التي ارتفع
فيها لواء القرآن ، وفي ذلك يساق الحديث : «لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونية ،
وإذا استنفرتم فانفروا ..». وليس هناك موقف بين عزة الكاثر وقلة الضعيف إلا موقف
المسلمين اليوم ، ذلك الموقف الذي يجب إرجاعه إلى واحدة من الحالتين السابقتين .

● علم أم جهل :

التصرفات التي تملتها البداهة كثيرة لا يتتسائل عن عملها ، بل يجب أن يتتعجب
من تركها ؛ لأن تركها جرى على غير السن المأثور !

وللإبان الصحيح تصرفات يجب أن تصدر عنه صدوراً لا تكلف فيه ولا افتعال ؛
لأنها أثره الذي لا يتخلف ولا ينقطع . وقلما يجهل اتجاه المؤمن في آية ناحية تعرض
له ؛ لأن قلبه «يشير» دائمًا إلى جهة محددة معروفة .. وإن لم يحدددها له أحد
أو يعرفها له معلم :

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهُدِّيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ (٢) .

وعلى ضوء هذا الكلام تستطيع أن تعرف عمل كل مؤمن حق في هذه الفترة من
تاريخ الإسلام السياسي ؛ لأن عمله لا يشتبه ولا ينبعهم .

(٢) يومنس : الآية ٩.

. ٩٧ . (٢) النساء :

فإذا انشغل بغيره فهو إما منافق لا إيمان له ، وإما مغفل لا عقل له ، وكلا الرجلين
لا نسأله عن دنيا ، ولا نستفتية في دين !! .

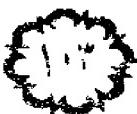
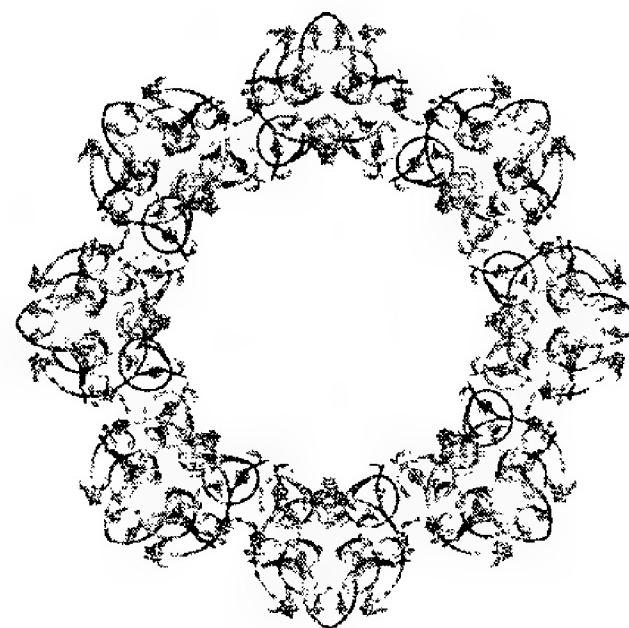
جاءنى أحد الناس يقول : ما رأيك فى هذه المسألة التي اشترى فيها السلف
والخلف؟! قلت : لا أريد أن أعرفها ولا أن أدلى برأي فيها ! قال : كيف وقد خاضت
فيها أقلام ، وألقت رسائل ، وقامت جماعات ، وشغلت المسلمين في هذا العصر ؟!

فقلت له : إن هذا هو المؤسف . لقد شغلت المسلمين في هذا العصر أمور تافهة
جداً ، لقد ألقت رسالة في حكم المسبحة ، وهاجت أقلام في حكم المحراب ، وكانت
جماعات لدفن الموتى كما كانت جماعات لإحياء خلافاتهم العتيبة ! . وربما لا أنسى
الظن بقلوب هؤلاء ، ولكنني أشك في عقولهم .

قال لي : ولم هذا التحامل على البحوث العلمية الجادة ؟!

قلت له : يا صاحبى ، هل تتصور أن أحدها من مسلمى الصدر الأول يرى حال
المسلمين قبل الهجرة ، أو عند إحاطة الأحزاب بالمدينة ، ثم يستبيح لنفسه أن يشير عجاجة
البحث العلمي حول «مسألة المخيرة» في الحيض والنفاس ، أو حول «المسألة الحمارية» في
مشكلات الميراث ، إن هذا سببوا حتماً بأحد الوصفين : النفاق أو الحماقة .. !

إن أى علم يصرف المسلمين عن واقعهم ، وإطالة الفكر فيه ، والعمل له ؛ إنما هو
جهل ، فاعلم هذا جيداً



الوطن الإسلامي الكبير

إن المسلمين المعاصرین يواجهون الدنيا في كبوة من تاريخهم ، وانفصال عن أنفسهم ورسالتهم ، والظروف المفروضة عليهم جعلت بعضهم ينكر بعضاً ، ويظن أنه جنس آخر يغايره في الشعور ، والفكر ، والسلوك ، والهدف ، والألم ، والأمل ...

رواية «القومية» التي ارتفعت على كل شلو من أشلاء هذا الوطن الكبير الممزق ترمي إلى هذه الغربة القاحلة القاتلة ، وتريد أن تمد ظلالها على اليوم والأمس ، لأن لم تربطنا على طول القرون رسالة الإسلام ، وأخوته ، ووحدته الكبرى .. !!

إننا نريد أن نحارب بكل قوانا هذا الإحساس المدمر ..

نريد أن نرسم صورة الوطن الإسلامي في مخطط يستوعب كل جزء من الأرض تحفظ عليه قدم مسلم .

فهذا المجال الربح لا غير هو وطننا ...

أخشى أن تترك الأحوال العامة التي أصابت المسلمين أخيراً أثراً سيئاً في تفكير الأجيال القادمة ، فتشتب وهي تحسب أن اختلاف الألوان على خريطة العالم الإسلامي يدل على اختلاف طبيعي في جوهر هذا الوطن الكبير ، وفي شخصية من يعمرونها من أبناء هذا الدين الخنيف !

عندما كانت الشعوب الإسلامية أسرة واحدة تظلها راية واحدة كان المسلمون أمة متعارفة متعاطفة ، يحنون القريب على بعيد ، ويهتم بشئونه ، ويستمع لندائه . فلما تغلب على بلادنا الغزو الصليبي الحديث مزقت هذه الأمة شر ممزق ، وغرق كل قبيل في مشكلاته الخاصة فهو لا يدرى شيئاً عن أخيه ، ولا يكتثر له .

ومضت السنون العجاف على تلك الحال المنكرة ، ونبتت على أنقاض الأمة الكبيرة أجيال معزولة مستوحشة ، غذى الاستعمار عزلتها النفسية والفكرية ، فلو سئل المسلم في وادي النيل عن أخيه في وسط إفريقيا أو غربها ما أجاب بشيء ، بل لو قيل له لا يوجد مسلمون في هذه البقاع لصدق !!

ومن أدراه وهو الذي تربى في مدارس أنشأها الاستعمار لتفصيم عراه بدينه وأمته وتاريخه .

وأنت خبير بأن هناك وحدة - من صنع الله لا من صنع البشر - تربط بين المسلمين كافة من شيطان المحيط الهدى إلى شيطان المحيط الأطلسي ، وأن حقيقة هذه الوحدة تجعل مصور الخرائط الجغرافية يصيغها بلون واحد ، ويجمعها في نسق واحد ، ويحقق بذلك آية القرآن :

﴿ صِبَغَ اللَّهُ وَمَنْ أَحْسَنْ مِنَ اللَّهِ صِبَغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴾^(١).

ولكن لأمر ما تقسم الألوان : السود والصفر على المجموعة الموحدة ، ثم تشيع بين الناس على هذا الشذوذ الذي بها !!

والذى أقتربه أن ترسم خريطة الوطن الإسلامى الكبير رسمًا موضحًا بالنسبة الصحيحة للسكان ، مُذَيَّلاً بشرح موجزة عن العواصم والبلدان ، ثم نجتهد فى نشر هذه الخريطة فى حجرات الدور ، وفصول المدارس ، وأمكنة العمل ، وفي صدور الاحتفالات والمجتمعات ... إلخ .

وبذلك نغالب النسيان أن يطغى ، وروح الانفصال أن تسود ، ونضع بذور الوحدة الكاملة التى نرويها بأعمالنا وجهودنا ، حتى تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها .

هذا مظهر شكلى من مظاهر إخلاصنا الواجب لدينا العظيم ، ولكنه بعيد الأثر إذا حققناه .

● لابد من أعداء:

هل يستطيع امرؤ مهما بلغ من صفاء النفس ، ورقة الخلق أن يعيش فى هذه الحياة من غير أعداء يضيقون به ، ويقيدون له ؟
أظن ذلك لا يحدث !

نعم قد يوجد أشخاص يعيشون ويموتون من غير أعداء ، ومن غير أصدقاء كذلك ، وهؤلاء وأمثالهم إنما يقضون أعمارهم فى الدنيا كالضيف العابر لا يهوى لنفسه قراراً ، ولا يترك خلفه أثراً .

وموقفهم بإزاء الأمور سلبي لا يحسب له حساب .

وقد قال شاعر جرى لواحد من هؤلاء :

إذا أنت، لم تنفع فضر فإنما يرجى الفتى كيما يضر وينفعا !!

(١) البقرة: الآية ١٢٨ .

أما أصحاب المawahب الكبيرة ، والرسالات الخطيرة ، فيستحيل أن يخلو طريقهم من الأعداء المتربيسين ، والخصوم الحاقدين الذين إن وجدوا خيراً دفونه . أو لحظوا شرّاً أذاعوه ، وإن استطاعوا إدارة خصومتهم على غير قانون من خلق أو شرف فعلوا غير مبالين ؛ إذ لا هم لهم إلا إشباع نفوسهم المحرجة ، وإرضاء صدورهم المغرة . وقد يكفي كفر قوم بالله واليوم الآخر ، لا لشيء إلا لأن قلوبهم أكلها الغل الكامن فأصبحوا يحيون من غير قلوب !! .

وفي هذا يقول الله عز وجل : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًّا وَنَصِيرًا ﴾^(٢) .

وفي آية أخرى يقول الله جل شأنه : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًا شَيَاطِينَ الْإِنْسَانِ وَالْجِنِّ يُوحِي بِعِضُّهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾^(٣) .

إن لرسالات السماء أعداء موغلين في الخصم ، لهم بيان حسن ومقالات مزخرفة ، واغترار بالباطل ، وتأميم في نجاحه وكسب المعركة به . وأعداء الإسلام من هذا القبيل لن ينقطعوا ، ولن يهادنوا .

ترى أيغني في لقائهم الإحساس البارد ، والقلب الفارغ ، والابتسام المبذول ؟ .

هيئات ﴿ فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ * وَدُوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾^(٤) .

والواجب ألا نتوjos من هذه الخصومات ، أو نعتبرها عقبات كئوداً أو نتشاءم من الحياة ، لأنها اتسعت لنذالة الحاسدين والشانعين ، بل الطريقة المثلثي أن نأخذ من ذلك مددًا ندعم به أنفسنا ، ونذكرى به مشاعرنا ونحكم على ضوئه أمورنا ، ويعجبني في ذلك قول الشاعر :

وَقَدْ زَادَنِي حَبَّ النَّفْسِيْ أَنَّنِي
 بِغِيَضِ إِلَى كُلِّ امْرَئٍ غَيْرِ طَائِلٍ
وَأَنَّنِي شَقِّيْ بِاللَّئَامِ وَلَا يَرِي
 شَقِّيَا بِهِمْ إِلَّا كَرِيمَ الشَّمَائِلِ

ثُمَّ لَنْمَضَ بِعَدَئِذٍ إِلَى غَایتِنَا الْمَرْسُومَةَ ، لَا نَفْكَرُ فِي أَعْدَائِنَا إِلَّا يَوْمٌ يَعْتَرِضُونَ سَيِّرَنَا ،
وَلَا نَتَعَرَّضُ لَهُمْ إِلَّا لِكَى نَوَاصِلُ هَذَا الْمَسِيرَ إِلَى نَهَايَتِهِ الْمَشْوَدَةَ .

(٤) القلم : ٨ ، ٩ .

(٣) الأنعام : الآية ١١٢ .

(٢) الفرقان : الآية ٣١ .

نقد و توجيه

● التربية الجميلة:

لم يفلح رجال الدين في تكوين جيل من المؤمنين ذوي العواطف الحارة والمشاعر المشبوبة ، التي تتصل بالله عن حب ورغبة وإعجاب ، فقد كان جهدهم موجهاً إلى تخويف الناس من مبدع السماء ، وإفهامهم أن الوصف الأول لله عز وجل أنه جبار السماوات والأرض ، مرسل الأقضية القاسية ، والأحكام المعندة ، والأحوال التي لا تعرف حكمتها ، ولا تفقه علتها .

وتعریف الناس بربهم على هذا النحو لا يكون عقيدة ناجحة ، ولا يؤسس أعمالاً مشمرة ، والأولى أن تربط قلوب الناس بالله عن طريق الحب لذاته . والإعجاب بمجده ، والإحساس بصنعيه ، والاعتراف بما ثراه ... وقد كان الرسول الكريم ﷺ موصول الفؤاد بالله على هذا الأسلوب :

إذا جاءت بواكيير المطر في الشتاء تعرض لها بجسمه وثوبه ، وهو يقول : «هذا مطر حدیث عهد بربه». وهي كلمة تنصح بما في قلب صاحبها من شوق لربه وحبيبه . وإذا طلعت بواكيير الفاكهة قبلها ، لأنها قريبة عهد بن أبرزها ، بدعة الألوان والطعوم وسط حما مسنون .

وعندما حضرته الوفاة هتف في استبشار : «إلى الرفيق الأعلى» .

وعلى هذا الغرار كان الرسول الكريم يربى أصحابه ، ويغرس في قلوبهم بذرة الحب المكين لربهم ولدينه العظيم ؛ فاتسی هذا الحب ثماره اليانعة ، إقبالاً على الخير ، وعزوفاً عن الشر ، وحماية للحق ، وصبراً على المكاره ، ورغبة في التضحية ، ورمانة عند انهمار النعم في السراء ، وعند إدبارها في الضراء .

وهذه النتائج كلها لا نصل إليها ، ولا إلى بعضها ، لو بنينا الإيمان على الخوف المبهم ، والرهبة الخفية .

ولا ننكر أن الدين الحنيف يقرن تعاليمه ، في أحيان شتى ، بالترهيب وسوق النذر وإيقاد الشرر ، لكن هذه الشلة مواضعها المحددة عند تأديب النفس ، وكظم الشهوات ، ومحاربة الجرائم . . .

وليست الأساس الأول الناجع من طرق التربية الصحيحة .

والقرآن الكريم يتآلف النفوس ويطبعها على أن تعرف الله بما يرسل من رحمات ويبث في الأرض من بركات ، ولذلك يطوى ذكر الشرور فلا يصرح بنسبتها إلى الله ، على حين يذكر الأفضال جلية النسبة فيقول :

﴿وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً﴾^(١) .

فليعرف رجال الدين كيف يحبون الله للناس ، فإن طرائقهم الآن تنطوي على تنفير من دينه وإبعاد عنه .

● لو يستريح الدين من هؤلاء :

هناك أقوام يؤدون مظاهر العبادات أداء منظماً ، ويحرصون على أن يعرفهم الناس بهذا حرصاً شديداً ، ولعلهم لا يؤدون هذه المراسيم إلا ليعرف الناس منهم هذا التعبد المريب !!

ولهؤلاء أعمال أخرى يرتكبونها سراً أو علناً ، كلها محادة لله ورسوله ، وخروج عن مبادئ الدين وأدابه ، هم لا يتذرون هذه الأعمال ؛ لأنهم بنوا عليها حياتهم ، وأقاموا عليها معايشهم ، ولكنهم إلى جانب ذلك لا يريدون أن يفرطوا في أداء مظاهر العبادات وصور الطاعات التي جاء بها الدين !! وهنا الداهية التي أحاذرها ..

رأيت أحد هؤلاء يصلى فتمنيت من أعماق قلبي لو ترك الصلاة وخرج من المسجد من غير رکوع ولا سجود ولا محاولة للاتصال بالله ؟ قلت : إن الآية انعكست مع هذا الشخص : إن العبادة لا تطهره ، ولكنه هو الذي يلوث العبادة !

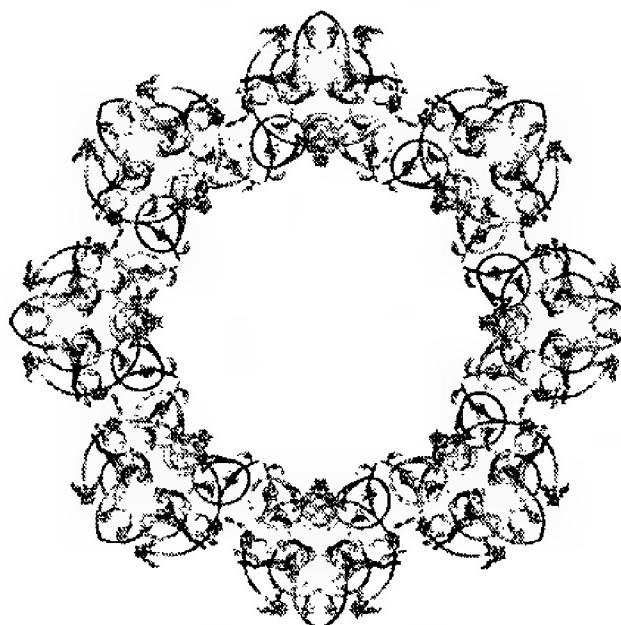
(١) الجن : الآية ١٠ .

وكما تمر المياه العذبة بالأرض السبخة الملحة فتخرج منها وقد فقدت عنوتها وحلاؤتها ونقائها ، تمر العبادات بهذه الطبائع الخبيثة فتتکدر حقيقتها ، ولا تذهب كدراً ، ويغير جوهرها ولا تذهب غيراً ، وإذا أنت تقف أمام عبادة مثقلة بأغراض صاحبها الصغير فلا يمكن أن ترتفع عن الأرض أبداً !!

تنويت أن ينقطع هؤلاء عن عبادتهم ، لا لأنهم لا ينتفعون بها فحسب ، ولكن لأنهم يخلقون جواً من إساءة الظن بالعبادات كلها ، و يجعلون الكثيرين يغضبون من قيمتها وتأثيرها ، وتنويت أن يقل علم هؤلاء بالدين حتى تقل ثرثرتهم بما يعرفون ، ويتساوی جهلهم وعيتهم ، ولا يخدع الناس بما يسمعون منهم !!

سألنى بعض هؤلاء عن أمور في الدين فتجاهلت علمها ، وقلت في نفسي : أحقرهم من التطاول بها في المجالس والخروج عليها بسوء العمل ، وساكتم هذا العلم عنهم كما قال القرآن في أمثالهم : ﴿الأعراب أشد كُفْرًا وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلَا يَعْلَمُوا حَدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٢) .

ولكنهم ، مع الأسف ، سيجدون ما يطلبون ، وسيبقى الدين يعاني المتابع من هؤلاء الدجالين .



(٢) التوبه : الآية ٩٧ .

التشريع الإسلامي.. في متحف !!

«أمر معالي وزير العدل بإنشاء متحف للمحاكم الشرعية يضم الإشهادات والأحكام والحجج الشرعية المنبثة بين أدراج المحاكم للمحافظة عليها ، لما لها من القيمة التاريخية ، وللوقوف على تطورات القضاء الشرعي في مصر» .
قرأت هذا النباء ثم طويت الصحفة عاجباً ساخطاً .

عهدنا بالمتحف أن تضم بين جدرانها آثاراً مما ترك الأقدمون الذين طال عليهم الأمد ، ولفهم الموت في أكفانه ، ولكننا الآن أمام متحف تاريخي من نوع آخر ، هو متحف المحاكم الشرعية الملئ بالوثائق الخطيرة !

إنه يدل على أن هناك ، لتلك المحاكم ، ماضياً مجيداً كان القضاء الشرعي يتولى فيه شؤون القضاء كلها من شخصية ومدنية وجنائية .

الليس هذا اكتشافاً عظيماً ، ومفاجأة تستحق التسجيل ؟

بلـى . فقد بعث من القدم ذكريات اختفت ٦٠ سنة ! وليس ٦٠ سنة قبل الميلاد أو بعده ، ولكنها ٦٠ سنة من يوم الناس هذا - كانت قبلها المحاكم الشرعية هي كل شيء ، ثم جاء بعد ذلك الغزو الشعافي والحربي فأصبحت القوانين الوضعية هي التي تعمل ، وأصبح التشريع الإسلامي في متحف يضارع متاحف الفراعنة البائدين !!

والأمر الذي نريد أن نقف لديه قليلاً هو جهل كثير من الناس بحقيقة التشريع الإسلامي ، فهو إذا ذكر وثبت إلى رءوسهم صور شوهاء عن قطع يد السارق ، وجلد الزانى ، والسكير و ... و ... إلخ ، مع أن هذه الأحكام لا تأخذ من كتاب الفقه الإسلامي الواسع إلا صحائف محدودات ، ويبقى بعدها الفقه كله ، أو الدين كله مليئاً بالنصوص والأصول التي تقيم الأم ولا تقوم بغيرها الأم ..

هذه الحماقة في فهم التشريع الإسلامي هي التي جعلت بعضهم يسوق في معرض الغرابة والدهشة أنه وجدت في متحف المحاكم الشرعية «وثيقة مكتوبة بصفة الأمر من القاضي الشرعي يحظر فيها ذبح الأنثى من البقر إلا بإذن خاص من القاضي ، وذلك محافظة على نسل الماشية كما تفعل وزارة الزراعة الآن ، سواء بسواء» .

ولعل الكثيرين كانوا يحسبون هذا التصرف مدنّياً بحثاً بل ربما ظنوه منقولاً نقلأً حرفياً عن بعض «سلخانات باريس» وهذا من الأخطاء الفاضحة في فهم طبيعة التشريع الإسلامي التي ترد هذا التصرف وأمثاله إلى باب المصالح المرسلة المعروفة جيداً في كتب الفقه القدمة .

كذلك وجدت وثيقة حكم شرعى من قاضى أسيوط خلاصتها «أن القاضى تلقى بلاغاً عن حادثة معينة ثبت من التحقيق فيها كذبها فحكم القاضى على مقدم البلاغ بعقوبة الحبس وتعويض مالى . . .» .

وهذه القضية ، كسابقتها ، رجعت فيها المحكمة الشرعية إلى مصادرها فى الفتوى ، فكان حكمها مشابهاً لما نظنه الآن وليد التشريعات العصرية الحديثة وما هو إلا الإسلام الحكيم يؤخذ منه كل إصلاح ، ولا يحتاج أبناءه إلى تسول الإصلاحات من هنا ومن هناك .

من البداهات أن نعرف أن النصوص الجزئية ليست هي جملة الفقه الإسلامي الآخر ، بل إنه إلى جانب ذاوى توجد الأصول الجامعة ، والقواعد العامة التي تُردد إليها الحوادث المتعددة ، وتعرف منها الأحكام التي لا تتقييد بمكان ولا زمان .

هذه المبادئ الكلية الثابتة في الإسلام من أهم دعائمه التشريعية ، ومن أسباب صلاحيتها الذاتية للعصور كلها ، وهي التي تتيح للقاضي استعمال القياس ، والنظر إلى المصالح فيما يعرض له من شئون الناس ، وهي منبع النظريات القانونية التي تصاغ على ضوئها المواد ، وتصدر المراسيم والقوانين . وقد استند إليها الصحابة والتابعون منذ العصر الأول .

وحيداً لو أضيف إلى متحف المحاكم الشرعية الحكم الذي أصدره عمر بشق ترعة في أرض مملوكة لأحد المسلمين ، وقد اعتمد في حكمه على صاحب الأرض بأن ذلك لا يضره ، على حين أنه ينفع غيره من الناس ، ومرجع الحكم في ذلك إلى المصالح المرسلة !!

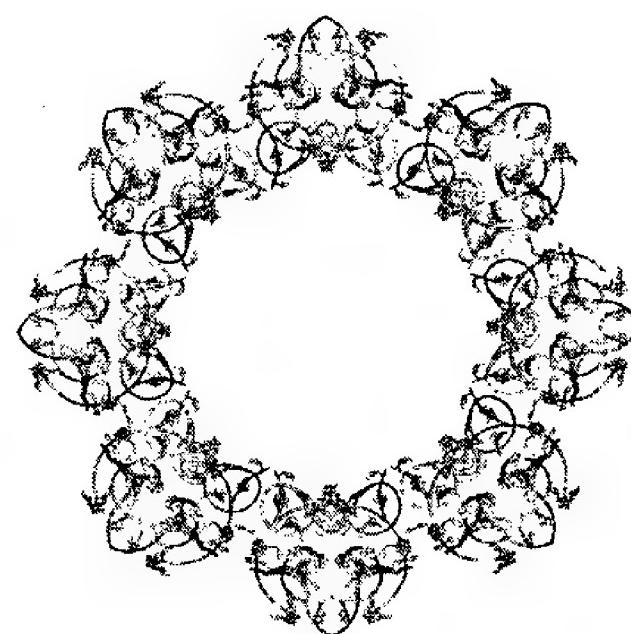
وهي وغيرها ليست إلا مجموعة من المبادئ المرنة أخذت أحدها من كتاب الله وسنة رسوله ، وفي مقدمة هذه المبادئ مثلاً دفع الضرر ، وسد الذرائع ، ورفع الحرج ، وترك الريبة ، وتقرير العدل ، وسؤال أهل الذكر - أي الرجوع إلى المتخصصين - وتحقيق

التعاون وإباحة المنافع ، وتحديد سياسة الحكم ، وتحديد طائق التعزير ، وأنواع العقوبات . . إلخ . ما يبحث عنه في مظانه .

وتشيئاً مع الفكرة التي أوجت بهذا المتحف الفذ ، وإنصافاً لماضي هذه المحاكم ، كان ينبغي أن يُعرض الفقه الإسلامي كله ودعائمه الأولى من كتاب وسنة .. ثم يقال في ذلك : إنه للذكرى والتاريخ !!

إننا نتهيأ لعهد تشريعى جديد يوحد القضاء فى مصر وفي غيرها من الأقطار العربية والإسلامية . فهل تستفيد من إقامة هذا المتحف ما يدفعنا إلى الوجهة الصائبة؟! وهل نتعرف منه قيمة القضاء الشرعى ومدى نجاحه فى معالجة الأمور؟! وهل يرددنا ذلك إلى المحافظة على المحاكم الشرعية بدلاً من سلب اختصاصها وتضييق محیطها؟

وأخيراً هل ندرك نفاسة مبادئنا القانونية ، وتشيئها مع أزهر العصور فنأخذ بها ونترك ما عدتها من قوانين؟!



تمارين على الذل

في فترات الضعف التي أصابت التاريخ الإسلامي انقلب أشياء كثيرة عن طريق الخير المرسوم لها ، فأصبحت قليلة الغناء ، بل أصبحت مثار شر لا ينتقص من خطره أنه شر تولد عن خير مدخول وطيبة مغفلة !!

ومن أمثلة هذه الأشياء المنقلبة على رأسها أن الدجالين من رجال الطرق الصوفية كانوا يربون أتباعهم على التواضع بشتى الطرق المهينة .

فإذا رأوا أنفة في مسلك أحدهم ، أو دلائل عزة وترفع ، جعلوا عليه مهمة حمل أحذية الجماعة ، والمحافظة عليها ، حتى تنكسر نفسه ، وينخفض رأسه وبذلك يكون مرشحًا لعبادة الله كما يجب !

ولم يدر المغفلون أنهم يرشحونه أيضًا ليكون عبدًا للناس جميعًا ، وأن مثل هذا الكائن الممسوخ هو أهل المستعمرتين الذين يقيسون وجودهم على إدلال الأم ، وقتل الشعور بالكرامة في نفوس بنائها ..

ثم هناك مكاتب تحفيظ القرآن التي طالما قمعت نشاط الغلمان ، وحبست حركاتهم المرحة ، وتركـت في مشاعرهم عقداً مبهـمة ، فإذا تخرجوا فيها كانوا من أحـفـظـ الناس لألفاظ القرآن .. ومن أجهـلـ الناس بـروحـهـ وـمعـناـهـ وـسـعـةـ آـفـاقـهـ وـعـظـمـةـ تـوجـيهـاتهـ .

وكانوا العصـاـ الفـقـيـهـ هـيـابـينـ ، ولـعـصـاـ الحـكـامـ أـهـيـبـ ، ولـعـصـاـ الأـجـانـبـ أـشـدـ هـيـبـةـ !

ومن ثم تتحول الأشياء الملابسة لشعائر الإسلام إلى عوامل تعين عليه ، وتنال منه ، أي إلى تمارين على الذل الداخلي الذي يهدى الطريق تمهيداً تاماً للذل الخارجي .

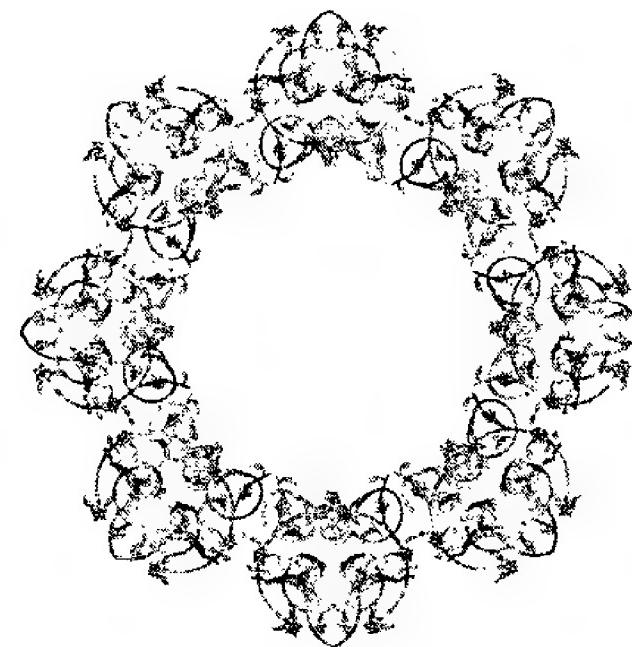
فإذا ضـمـمتـ إـلـىـ هـذـاـ كـلـمـاتـ شـائـكـةـ يـقـعـ عـلـيـهـ المـطـالـعـونـ لـمـثـلـ كـتـابـ الإـحـيـاءـ أوـ لـغـيـرـهـ مـنـ كـتـبـ التـصـوـفـ مـثـلـ «ـاعـلـمـ أـنـ الـمـسـلـمـ لـاـ يـخـلـوـ مـنـ ذـلـةـ أـوـ عـلـةـ أـوـ قـلـةـ»ـ !!

ومـثـلـ «ـإـنـ جـاءـوـنـاـ بـعـلـمـ الـوـرـقـ جـئـنـاهـمـ بـعـلـمـ الـخـرـقـ»ـ !! عـرـفـتـ إـلـىـ أـيـ هـوـةـ نـسـاقـ .

وهكذا يتضاد على هذه الأمة من أسباب الضعف العقلى والخلقى ما يقتل روح الأمل والتثبت فيها ! وقد يصل ذلك إلى كثير من الأحزاب والهيئات الدينية القائمة ، فيزيد الطين بلة ، والداء استفحلاً !

أعجبنى من وزير كبير رفضه أن يقبل يده أحد الموظفين .

وكم أود أن يختفى تقبيل اليد وإحناء الهامة من مجتمعاتنا ، وبخاصة فى البيئات المنسوبة للدين ، لأن ذلك إن دل على الحب والتقدير فى حالة ، فهو يدل على الذلة والزلفى فى ألف حالة !! .



الشّالب من البشر

زعموا أن الشعلب أراد مرة أن يخطف عنقوداً من العنبر فأعياه أمره وأحس بالعجز عنه ، فارتدى وهو يقول : إنه حامض !

وتحقير الشيء الذي لا يستطيع إدراكه شيمة الطبائع الخسيسة في البشر ، وهو الذي أوحى إلى المشركين قديماً أن يطعنوا في المؤمنين ، وأن يستهينوا بقيمة الدين الذي اعتنقوه قائلين :

﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾^(١) أي إنه عنبر حامض !

هذه الشعلبية متفشية بيننا تفشيّاً واسعاً ، ما أن تبرز العمل العظيم حتى تجد نظرات البرود محيطة به ، فإذا أثرت حديثاً حوله وجدت هذا يهز كتفيه استخفافاً ، وهذا يكاد يقول لك : إن كثرة مشاغلي هي التي منعتني عن أن أقوم بخير منه ! وهذا يمسح جبهته الذكية ثم يتضاءب مؤثراً بعد عن هذه التوافة ! . ولو لا أن عظام الأمور تندفع بقوتها الذاتية لما تلت في هذه الأجواء الخانقة .

ليت شعرى ! ماذا يخسر الناس إذا أعطوا كل ذي فضل فضله ؟ لا شيء !! ولكن اضطراب مقاييس الكفاية عندنا أدى إلى فوضى في التقدير تركت طابعها في أعمالنا وأخلاقنا .

فالذين يحترمون الملبس الفخم لا يفتحون عيونهم على غيره ، والذين يخشعون للألقاب الضخمة لا يفتحون مسامعهم إلا لاسم بين يديه لقب ومن وراءه لقب ، والذين يركعون للمال لا يرمقون بالتجلة إلا رجلاً يتكلم معه دخله أو مرتبه حين يتكلم ، وهكذا تتوارى الحقائق في أكفان المظاهر المادية الصغيرة !

ونتيجة هذه الأخطاء المتعتمدة أن كفایات كثيرة تموت في هذه البيئات الحاقدة ، كما تموت الأزهار الغضة في التربة الجدب ، لا تجد خصباً يغذيها ، ولا رياً ينميها ، مع أنها في الشرق الإسلامي بحاجة ماسة إلى موهبة ونبوغ ، ونتيجة أخرى

(١) الأحقاف : الآية ١١ .

لا تقل شرًّا : هي أن القاصرين والمقصرين يفسح لهم المجال الذي خلا من أصحابه الجديرين به ، والويل للأم التي يتقدم فيها أغبياؤها بالوسائل المفتعلة من مال أو جاه ، ويتأخر فيها أذكياؤها المضيعون .

أجل .. البلد الذي يحارب فيه الذكاء لا تقوم له قائمة ، ولا تعلو له راية ، فإن حق الذكاء أن يشجع ويدفع إلى الأمام ، لا أن يخدل ويواري بريقه .

وما لاحظت أنفًا في كثير من المجتمعات والبيئات ظاهرة جدبرة بالتنديد والازدراء ، فما أسوأ الغض من ذوى الموهاب ، وقلة الاكتراش بهم !

وشر من ذلك أن يقلد الرجل فى عمل ثم تجحد مكانته فيه ، ويكون أول من جحدوه هم أول من تعلموا منه وقلدوه .. !

فى ميادين العلم والأدب والفن ، بل فى ميادين التمثيل والغناء واللهو واللعب ، وجدت رجالاً لهم فضل الرواد المكتشفين فى النواحي التى يعملون بها ، ذللوا صعبها ، وقربوا بعيدها ، واستأنسوا غريبها ، وقدموا للجمهور الخير العظيم منها ، وشعرت الأفئدة بمدى جهدهم وإنتاجهم فيها ، ثم ما هى إلا أيام حتى يتبعهم فى هذه الميادين الممهدة -بفضلهم - أقوام أقل دراية ، فيزاحمونهم بالناكب ، ويريدون أن ينفردوا دونهم بالتقدير والتكريم .

من قديم شعر المتنبى بأولئك المزاحمين المهازيل فقال معلنًا سخطه عليهم :

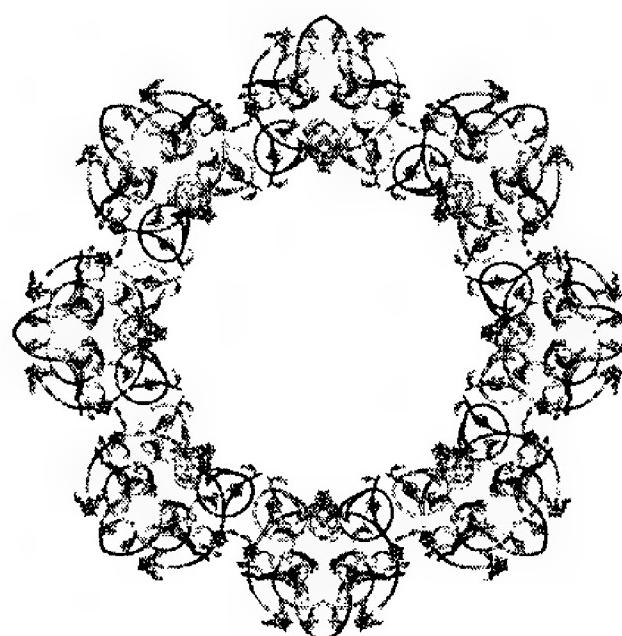
أفى كل يوم تحت ضبني شويعر	ضعيف يقاوينى قصير يطاؤل ؟
لسانى منطقى صامت عنـه عادل	وقلبى بصمتى صاحك منه هازل
وما الكبر دأبى فيهم غير أنسى	بغىض إلى الجاھل المتعاقـل
ثم هو يرى أن يُحرم هؤلاء المزاحمون ما يؤملون فيه من جوائز وأعطـية ، وأن ينـحـ هو	الثمن على ما يقولون من مدائـع ! ولذلك يقول لسيـف الدولة :

أجزنى إذا أنشـدت شـعراً ، فإنـما	بشـعـرى أـتـاكـ المـادـحـونـ مرـدـداـ
ودـعـ كلـ صـوتـ بـعـدـ صـوتـيـ فإنـنىـ	ـأـنـاـ الطـائـرـ الحـكـىـ وـالـآخـرـ الصـدىـ !

وإذا كان لغمط الحقوق مجال بين الطامعين في الدنيا والمتكالبين عليها فينبغي أن يكون المتدينون أبعد الناس عن سوء التقدير وقلة الإنصاف ، فإن أول معالم المجتمع المتدين أنه لا يجحد فضلاً ولا ينقص حقاً ، ومن هنا يخرج الرسول ﷺ من نطاق المؤمنين من مردوا على التنقض والنكران «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يُوقِرْ كَبِيرَنَا ، وَرَحْمَ صَغِيرَنَا ، وَيَعْرِفُ لِعَالَمِنَا حَقَّهُ» .

والواقع أننا لو حللنا البواعث التي تدفع إلى الاستهانة بالفضلاء ، والتطاول على الأكفاء لما وجدناها إلا المشاعر نفسها التي دفعت ابن آدم إلى قتل أخيه ، والتي دفعت إبليس إلى احتقار آدم ، التي لا تزال تدفع كل مغمومص في عقله أو دينه إلى أن يرفع خسيسته على حساب ذوى العقل والدين ، أو ذوى المهارة والخطر .

وهي مشاعر لا قرار لها لإيمان في قلب ، ولا قرار معها لتدين في مجتمع .



رحولة

ثبات الأخلاق على تقلب الزمن ، واختلاف الأباء والفراء على الإنسان دليل اكتمال نفسه ونضج شخصيته .

ووفاء المرأة لمن يعرف في حال الفقر والغنى ، ونبيل موقفه مع من خالطوه أيام الخشونة والنعومة ، أمارة لا تنقضى على صفاء المعدن وكرم الطبيعة ، وقد كان العرب يلاحظون السلوك الإنساني في شتى الأحوال ، ثم يحكمون بعدها للشخص أو عليه .

يقول الشاعر لأحد هؤلاء المتقلبين :

فإن تكون الدنيا أفالتك ثروة فأصبحت ذا يسر وقد كنت ذا عسر
لقد كشف الإثراء عن مساوايا من اللؤم كانت تحت ثوب من الفقر
ويفارخ شاعر آخر بأن ألوان العيش مهما صفت أو كلحت لم تكسر همته ، ولم
تهزم إرادته ، ولم تبرزه يوماً صغير النفس أمام الناس :

فإن تكون الأيام فينا تبدلـت
ببؤسـى ونعمـى والحوادـث تفعـلـت
فـما لـيـنتـ منـاقـنةـةـ صـلـيـبةـةـ
ولـكـنـ رـحـلـناـهاـ نـفـوسـاـ كـريـبةـةـ
فـكـنـ رـجـلـاـ رـفـيعـ الرـأـسـ كـبـيرـ النـفـسـ ،ـ وـلاـ تـقـعـ فـيـ الأـحـابـيلـ التـىـ تـنـصـبـهاـ الـدـنـيـاـ
لـلـضـعـافـ وـالـمـهـازـيلـ .

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ
يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا﴾ (١)

(١) الأحزاب : الآية ٢٣ .

العصبيات الحزبية والإسلام

لم يزل التطلع إلى الرئاسة والتنازع على الإمارة آفة الشرق قديماً وحديثاً بل لم تزل النكسة التي تقتل النهضات ، والعقبة التي تعوق الامتداد ، ومهما توافرت الدواعي على توحيد الصفوف وجمع الكلمة فإن أعراض الداء المتغلغل تتغلب على غيرها ، وإذا أنت تم بصرك في أنحاء الشرق الذليل فترى في كل بلد - أسفرا فيه الاستعمار أو احتجب - عدداً كبيراً من الأحزاب ، وعددًا أكبر من الهيئات والجماعات ، يزعم أصحابها أنهم يعملون لغرض واحد ! ومع ذلك اختلفوا !!

وبين هذه القوى المشتتة يضيع كل جهد ، ويذهب كل أمل ، والعلة في ذلك ترجع إلى شيوخ الجهل والنفاق ، فإن الأمة المتعلمة لا تسمح للأدعية أن يتقدموا ، وإذا حاولوا ذلك قتلتهم قبل أن يقتلوها ، وعندما يخلو الميدان من هؤلاء يصفو الجو أمام الزعماء الحقيقيين فيستطيعون العمل آمنين .

ثم إن نفاق الأمة في دينها يساوى في خطره جهلها بشئون دنياه ، بل قد يزيد ، فإن إرشاد الدين في وسائل الرئاسات وما إليها يقطع دابر الحزبية ، وما يتبعها من ميل للغرور ، وحب للظهور ، ويقى الأم عواقب هذا الحال .

يوجب الدين على الأمة أن تقدم للعمل أكفاءً من عندها ، وأن تلقى في يده مقاليد الأمور . فإن حدث - لأمر ما - أن تقدم غير الكفاء فيجب على الأخيار والأذكياء أن يعينوه بثاقب رأيهم وكفاءتهم لوجه الله ، وألا يثروا من خلفه الشغب .

وتدبر مسلك خالد مع أبي عبيدة ، وكيف تحول من قائد إلى جندي في هدوء ويقين .

ثم يعتبر الإسلام مع ذلك أن رياضة الرجل المكره جريمة منه ومعصية يجب أن يقلع عنها .

فإذا حدث أن استقر أمر الأمة على قيادة رشيدة ، وواجهت مصالحها في الداخل والخارج بوحدة شاملة ، فليس يجوز ألبتة لأحد من الناس أن يصدع هذا التجمع ، والإسلام يتوعد بالنكال من يقترب هذه الفتنة .

ويهدد بالقتل من يبدأ محاولتها الأثيمة .

«من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد يريد أن يشق عصاكم فاقتلوه بالسيف كائناً من كان» .

ويوصى مع ذلك المرءوسين بأن يحتلوا على إصلاح الأمر ، وتحمل العبء وترك الثورة .

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾^(١) .

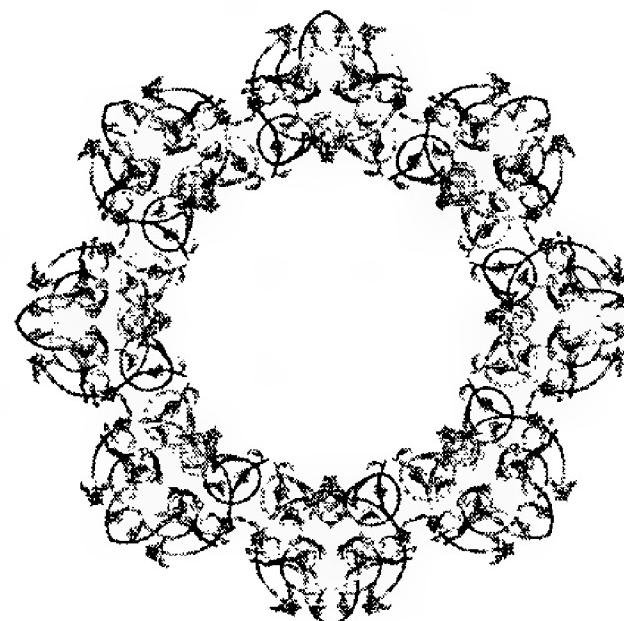
والإسلام يمرن المسلمين على فهم هذا الأمر في المسجد في كل صلاة ، فإذا تقدم لإماماة من لا يريد الناس لها بين الإسلام حكمه فجعل من بين من لا تقبل صلاتهم : «من أَمَّ قوماً وهم له كارهون» .

ثم حث المصلين على ألا يعددوا الجماعات ، ويشروا العداوات ، وأن يتحملوا الأمر الواقع على علاته : «صلوا خلف كل بروافجر» .

فهل يتأنّر الأغبياء ابتغاوا وجه الله ليفسحوا الطريق ، وهل يعين الأذكياء ابتغاوا وجه الله ليقطعوا دابر الفرقة ??

إن الإسلام جعل تفرق الأمة أحزاناً من خصائص المجتمعات المشركة التي تجعل أهواءها آلهة .. ثم تحيا لها وتتنازع عليها .. وقد كره لنا هذا المثل السوء :

﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾^(٢) .



(١) الأنفال : الآية ٢٥ .

(٢) الروم : الآية ٢١ ، ٣٢ .

علم عقيم...!

في أحيان كثيرة تكون مشكلات العلماء النفسية أعقد من مشكلات الجهال العقلية ، وتكون استجابة الرجل الساذج لدعوى الخير أدنى إلى التتحقق من استجابة العامل المحترف لأى فن من فنون الدين أو الدنيا ، وليس في ذلك من تهويين لقيمة الإدراك العقلى والمعرفة النظرية ، ولكن يجب أن نعلم أن استقامة الفكر لا غناء لها إن لم تصحبها استقامة الضمير ، وأن سلامة العقل لا خير فيها إن لم تصحبها سلامة القلب ، والإنسان الكامل هو الذى يأخذ قسطه من طهارة النفس ، كما يأخذ قسطه من شتى المعارف والعلوم .

وقد عاب القرآن الكريم هذا العلم العقيم ، ونعي على أصحاب الإنسانية على أيديهم من أضرار وأخطار ، جعلت الناس يتنازعون على المأرب الصغيرة ، ويدهلون عن المثل العليا .

﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مَنْ بَعْدَ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بِغِيَّا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلَمَةً سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمَّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٌ﴾^(١) .

بل إن القرآن يعتبر أن أول ما أصحاب العالم من خصام وفرقـة إنما هو بعض آثار هذا العلم المريب ، العلم الذي لا ضمير معه ولا شرف .

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحُكِّمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبِيَنَاتُ بِغِيَّا بَيْنَهُمْ﴾^(٢) .

فهل تعجب بعدئذ إذا رأيت الإسلام يسوى في دعوته إلى الحق بين عشر العلماء الحائرين ، وبين الجماهير الجاهلة من الأميين ؟ :

﴿فَإِنْ حَاجُوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأَمِمِينَ إِنَّ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلُّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾^(٣) .

(٢) آل عمران : الآية ٢٠ .

(٢) البقرة : الآية ٢١٣ .

(١) الشورى : الآية ١٤ .

إن العلم النظري البحث سلاح يؤذى الناس ، وما أجمل أن يستنير فؤاد الإنسان بما استنارت به ناصيته ، واتضحت به فكرته .

وما أقبح أن تجد الرجل الذكي جامع الغرائز كأنه حيوان ، أو الرجل المتعلّم مستطير الشرور كأنه شيطان .

● منطق الحقد...

الوسيلة الصحيحة لكتب أي سباق أن تقوى نفسك لا أن تعوق غيرك ، فإن استكمال أسباب النجاح في كيانك الخاص هو الداعمة الأولى والأخيرة للغلب الحقيقى .

إن بعض الناس يظن أنه بجهده في هدم الآخرين يبني نفسه ، وهذا خطأ ، فإن الضعيف لا يزول ضعفه بمحاولات فاشلة في تحريج الأقوياء ، ستبقى علته ، وتلتصق به معرته ، وتذهب جهوده هباء .

عندما أقرأ في الكتاب الكريم قصة ابنى آدم اللذين قتل أحدهما أخيه المُح في مسلك الأخ المجرم صورة دقيقة للحقد الأعمى ، وبياناً لاتجاهاته المتناقضة في فهم الحقائق ، ثم المُح كيف أن جوانب الشر في النفوس الصغيرة تظهر فيها بسرعة كاملة ناضجة على حين تبقى جوانب الفهم والتدبر ناقصة غامضة تكاد لا تبين عن نفسها إلا بإشارات خرساء ، وحركات بكماء ، فإذا ظهرت بعد طول التجارب ، وتقديم العمر جاءت - مع الأسف - بعد فوات الوقت .

هذا الأخوان تنافساً في عمل ، فأنفق أحدهما ونجح الآخر ، فأصر المُخْفَق على أن يتخلص من آثار هزيمته ، لا بمعاودة الكرة ، واستئناف العمل في نشاط وأمل ، وانتظار القبول عند الله مرة أخرى ، بل بالتخليص من منافسه واختصار الطريق والقضاء على حياة أخيه ، فعلام الكد والجد في ميدان المنافسة المشروعة ؟ فلما أحس أخوه منه بهذه النية الخبيثة حذر مغبته :

﴿لَعَنْ بَسَطَتِ إِلَيْيَ يَدَكَ لَتَقْتَلَنِي مَا أَنَا بِيَاسِطِ يَدِي إِلَيْكَ لَا قُتْلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ * إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تُسُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ (٤)

(٤) المائدة: الآية ٢٨، ٢٩.

ولكن الرجل الحاقد لا يفهم من الأمور إلا ما يمس أنانيته ، ويهيج كراهيته فحسب ، ثم تضطرم أفكاره في دائرة ضيقه من ذهن أتعبه الحقد ، لا الفكر ، وأصلته الرغبة الملحة عن معالم الخير والروية ، فإذا الجريمة النكراء تقع :

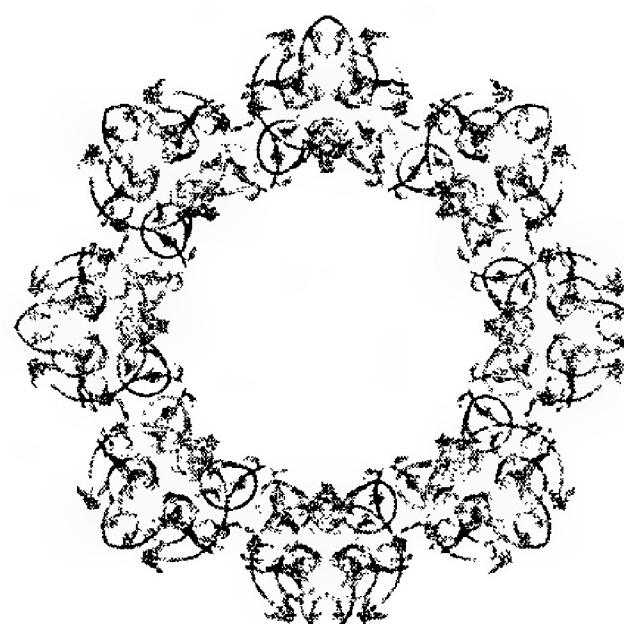
﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(٥).

حتى إذا ما استكانت ثورة الشر ، ووجد المجرم نفسه وجهاً لوجه أمام ضحيته ، عصفت رياح الفزع والندم بلبه وقلبه ، وهيهات ، لابد من حمل التبعة !

لكن المجرم الذي كان سريعاً في فهم معانى الهرمية ، وأسباب الغيرة ، ينقلب أغبي الأغبياء بعد ارتكاب جريته ، فهو لا يدرى ما يفعل ، ذلك لأن ارتكاب جريمة لا تجعل من الرجل المحقق رجلاً ناجحاً ، ولا من الرجل الخاسر رجلاً رابحاً ، فأنت ترى الابن القاتل يضى بفكره المغلق حائراً ماذا يصنع :

﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَحْثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيهِ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتِي أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِي سَوْءَةَ أَخِي﴾^(٦).

بلى إنه ندم الحاقد الذي أصرت غباوته بنفسه وبالناس . والعجب لامرأى يعرف كيف يحسد ويقتل ، قبل أن يحسن التصرف والفهم في أتفه الأمور !!



(٦) المائدة : الآية ٣١ .

(٥) المائدة : الآية ٣٠ .

حرب العصابات وحرب الحزازات

يظهر أن الروح الاجتماعي في الغرب أقوى وأشد منه فيما بيننا ، وأن شعور الفرد بكرامته الخاصة هناك جزء من شعوره بالكرامة العامة لوطنه ، وبالقيمة المعنوية للأمة التي ينتمي إليها .

أما نحن فلنزعات الفردية ولا تجاهاتها الجامحة سلطان علينا مطاع .

وأقرب دليل على هذا المعنى السريع أنك تنظر إلى آلاف القرى فتجد النزاع الحاد على «العمدية» لا تكاد تخلو منه قرية ، ولو أحصيت الحوادث الدامية التي يثيرها النزاع على تولى هذه المناصب وأمثالها مما تخلقه الانتخابات المختلفة ، لرأيت في الأمر ما يدعو إلى الدهشة ، فإن التطلع إلى مظاهر الرئاسة والأبهة يكلف الكثير ويستهلك الكثير .

دلالة التفكك أو السقوط في هذه الحال أن الذين يتبرمون بسيادة غيرهم عليهم لا يبالون ولا يأنفون من الخضوع الحقير للأجنبي النازح إليهم .

فربما ترى الرجل يثور على ابن عمه أو على مواطنه في حين الذي يتزلف فيه لأحد الحاجات المرابين .

وربما ترى الرجل يستسهل تقديم أبنائه في معركة بين أسرة وأسرة ، على حين يضطر ويتrepid لو طلب إليه تقديمهم في معركة من أجل مستقبل أمتة .

وهل ظل الاستعمار الإنجليزي جاثماً على صدر الوادي قرابة سبعين سنة إلا لسقوط الأنفة الاجتماعية وكراهية الرجل أن يسوده رجل مثله في الوقت الذي يخضع فيه للعدو الدخيل ؟

ولعل من آثار هذا التناقض ، أو هذه الأنانية ، أن لدينا كفايات كثيرة لتولى شتى الأعمال ، ولكن فقدان التعاون بينها يعطليها جميعاً ، ويجعلها هباءً منثوراً . فما السبب في ذلك ؟

إن الأم الأوروبية المقهورة لا تفقد في حرب العصابات - ضد غزاتها - ما نفقده نحن في حرب الحزازات ، ومن العار أن تنهدم هيئة من الهيئات لأن فريقاً من الأعضاء يضلون بكرامتهم عن الخضوع لرياسة فلان ، ولا يضلون بكرامتهم أن يعيش في بلدتهم الشيطان .

مشاهدات

هناك بعض الملاحظات على الطريقة التي يألفها فريق من التجار عندنا ، وتجري عليها معاملاتهم ، فنحن لا نميل إلى نظام الكلمة الواحدة في البيع والشراء ، ونعتبره أجنبياً مع أنه أقرب ما يكون إلى روح الإسلام ، بل أستطيع أن أقول إن هذا النظام يتحتم الأخذ به للخروج من شر الخداع والتلاعب اللذين ينطوي عليهما نظام المساومة الحرة ، ويستسيغه من أجلها التجار الجشعون ..

ثم هناك الوقت : الوقت الغالى الذى يضيع هدرًا فى ساعات طويلة من الأخذ والرد ، يبدأ فيها السعر من مائة ويظل يهبط حتى يصل إلى الخمسين والأربعين . كان من الممكن أن ينتفع التاجر والمشتري بوقتهما هذا فيما هو أجدى عليهما فى الدين والدنيا ، وخصوصاً نحن أبناء الدين الذى يحرم اللغو ! .

ثم بالله ما موضع الزوج بالأدعية المأثورة والصلة على النبي ﷺ في هذا المجال المادى الجاف ؟ إن هذا ابتدال لما يجب أن يصان ، وليس فيه أثاره من خشوع أو قربة إلى الله . وأى أجر للصلة على النبي ﷺ إذا كانت إنشاء لبيع ، أو رفضاً لثمن ؟ ومتى يهجر المسلمون هذه الثرثرة ؟

الحق أننا لم نحسن التصرف في نواحي دنيانا كما أحسن غيرنا ، فخسرنا نحن حين ربحوا ، ثم زدنا على ذلك أن مسخنا من ديننا ما يجب أن نغالى به ، وأن نحرصن على صيانته من عقائد وإيمان .

● تكاليف الرجلة:

لا شك أن وسائل التربية العقيمة التي خضع لها الشرق الإسلامي في العصور الأخيرة جعلت أبناءه لا يعرفون تكاليف الرجلة الحق ، وإذا عرفوها لا يطيقونها ، ولا يصبرون على لأوائلها ، ولا يقومون كما ينبغي بأعبائها . مع أن في البيئات الغربية جماهير من الناس تعرف كيف تؤمل الأمل البعيد ، وكيف تسير إلى تحقيقه بعزيم من حديد ، وكيف لا تتشنى وإن وقفت دونها الصعاب .

وعلة الرخاوة التي أفسدت المسلمين الآن أنهم يسيئون فهم دينهم ويكتشرون من التمني على ربهم بالباطل ؛ فالذى يصلى عدة ركعات يحسب نفسه من الواصلين ، ثم على الزمان أن يتطامن عند أقدامه ، وعلى الأمور أن تسعى إليه لا أن يسعى إليها . وهكذا تنتظر الأمة النصر على الأيام ، لا ببركة التضحية والإقدام ، ولكن ببركة الصلاة والصيام .

وهيئات ! هيئات ! حتى نعرف حقيقة الدين ، وطبيعة الدنيا .

● بين النقص النفسي والعقلى :

هناك أنصاف متدينين كما أن هناك أنصاف المتعلمين ، والنقص الخطير الذى ينسب إلى هؤلاء لا تخفي نسبته إلى أولئك ، ومن الواجب أن تعالج هذه الجوانب الناقصة بما نستطيع من تربية وتعليم ، رعاية لمصلحة المجتمع العامة وأخذًا بيده إلى الكمال المنشود !

وأظهر ما يؤخذ على نصف المتعلم اعتقاده بالقليل الذى يعرفه ، واستهانته بالكثير الذى يجهله ، وضيق نظره إلى الثقافة الإنسانية ، فهو لا يسعى إلى الاستزادة من سعتها ، بعد إذ ظن نفسه قد أحاط بجملتها .

وكثيرًا ما يرتكب هؤلاء سلوك الجهال غير مكتريين بما يوجه إليهم من نقد ، لأنهم - في زعمهم - متعلمون لا يجوز القدح في عملهم وسلوكهم .

وأنصاف المتدينين كذلك يحطبون في هذا الحبل الملوى العجيب ! ويرتكبون من التصرفات ما يوقع المرء في حيرة بالغة من أمرهم ، فهم يجيدون نصف دينهم ولا يتقوّن الله في النصف الآخر !

أما ثقتهم بروعة ما يؤدون من أعمال ، فحسبك أن الواحد منهم يصلى الركعات ثم ينتظر أن يطير في الجو وتطوى له الأرض أو تضطرب له قوانين الكون ، وإذا مشت أصابعه على حبات المسبيحة ، وهو في ديوانه أو في دكانه فلا عليه أن تضطرب الأعمال الأخرى ، ولا أن تسير كيف شاءت مع نوازع الهوى والفووضى والتفريط .

وإذا قرأ ورداً انتظر أن تصل البركة منه إلى أولاده المضيعين بدلاً من أن تصل إليهم من دروس التربية ومتاعب الحراسة والعناء .

ولا عليه أن ينام هادئ البال منتظرًا في منامه الرؤيا الصالحة بعد ذلك .
وهو ينظر إلى الناس من عل ، يحسى سيئاتهم ويضخمها ويتنبأ بمقادير العقاب التي
ترصد لها في الآخرة .

وهو يستمع إلى العلماء - إن استمع - ليأخذ ما يحلوله ويترك ما ينبو عنه ذوقه
المريض ، وهم في نظره لا يفضلونه بشيء طائل ، إن سبقوه بالعلم فقد سبقهم
بالعمل ، بل إنه ربما لا يفضل نفسه عليهم لأنه هكذا يتواضع الأتقياء . . . !!!
 وأنصاف المتدلين مع كل دين كأنصاف المتعلمين في كل أمة ، كثرة غامرة وشر
يقابل غالباً بالصمت ، لأننا في سبيل أن نحارب الجهل الفاضح نقبل نصف المتعلم ،
وفي سبيل أن نحارب الفجور الواقع نقبل نصف المتدلين ، ولكننا نطبع ألا تضيع
الحقائق في ظل هذه الضرورات ، وألا يتوارى قبح النقص الخلقي والعقلى خلف
سمات زائفة من التدين والمعرفة .

● متاعب الحياة:

إذا كنت قد أخطأت في فهم طبيعة هذه الحياة فينبغي أن تبادر إلى تصحيح هذا
الخطأ نظرياً قبل أن تكرهك الأحداث المفاجئة على تغييره عملياً .

ليست الحياة شيئاً سهلاً المنال قليل الأعباء ، ولكنها شيء صعب الإدراك كثير
العقد جم التكاليف . وإذا لم يوطن المرء نفسه على أن يكون شديد المتن أيّد الظهر .
فهيئات أن يشق طريقه إلى غاية قريبة أو بعيدة . وقد أدرك الكثيرون هذه الحقيقة وإن
اختللت مواقفهم منها بعد إدراكتها ، فالمتشائمون العابسون يمدون أبصارهم إلى مباح
الحياة وهي مولية فانية ، أو إلى مشكلاتها وهي مقبلة هاجمة ، ثم يقول قائلهم :

تعب كلها الحياة فما أergus ب إلا من راغب في ازدياد !

والكافرون الدائرون يرمقون ما في هذه الدنيا من صراع متعاقب الأدوار متصل
الحلقات ، ويقدرون نصيب كل فرد من حراك هذه المعركة الثائرة ، ثم يقول قائلهم :
بصربت بالراحة الكبرى فلم أرها تناول إلا على جسر من التعب

(*) أيـدـ : قوىـ .

وتكون الخلاصة أن هذه المتابعة هي وحدها سبيل التفاوت والتفاصل ، ومحك المبادئ والفضائل ، وهي كذلك الأحجار التي يتعرض فيها الضعاف فيسقطون ، وينتهي عندها الأدعياء فيقفون :

لولا المشقة ساد الناس كلهم الجحود يفقر والإقدام قتال
والقرآن الكريم يعرف أبناءه صورة هذه الحياة على حقيقتها، ويبصرهم بمتاعبها،
ولَا يهون من قيمتها، ويذكرهم بأن هذه المتابعة مفروضة - بقدر مشترك - على
الكافرين وعلى المؤمنين !

لابد لكلا الفريقين من أن يتعب ويكافح ويتحمل :

﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ
الْطَّاغُوتِ﴾ (١).

فلا ناصر للكفر - كما ترى - مراح من أعبائه ، ولا ناصر للإيمان مراح من هذه الأعباء ؛ فمن الحمق الفرار من متاعب الحياة ؛ لأنها ستلاحق من لا يواجهها وتفرض نفسها عليه طوعاً أو كرهاً .

قال لى صديق : إن الاختيار الإلهى يصل إلى أن يوضع العنق تحت السكين فى انتظار الذبح .

قلت له : إذن ينبغي ألا يزيف اليقين ولو تحت حد السكين ! .

قال : وفي ثباته يكون الفرج العاجل .

10

٧٦) النساء : الآية (١)

والمعجزات التي أيدت الأنبياء في دعواتهم ، ووضعت بذرة البقاء في رسالتهم خضعت هي نفسها لهذا القانون . فالعصمة لا تناهى المخنة ، وضمان السماء لا يمنع ابتلاء الأرض ، وقد كان الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه ، يواجه أحظار الهجرة وينزل على قوانين الأسباب والمسببات عندما كان يتوارى نهاراً ويسير ليلاً ، وعندما كان يمحو من خلفه الآثار التي تدل على وجهته . ذلك كله في الوقت الذي أيده الله بجند لم تروها ، وبث في طريقه من الخوارق ما نعرف وما لا نعرف !

ومن غفلة المؤمنين أن يتناسوا هذه الحقيقة ، وأن ينتظروا من قوانين الوجود أن تحابيهم في كفاح ، أو أن تتملقهم لأنهم أصحاب صلاة وصيام !

إذا احتدمت المعركة بين الحق والباطل حتى بلغت ذروتها ، وقدف كل فريق بأخر ما لديه ليكسبها ، فهناك ساعة حرج يبلغ الباطل فيها آخر قوته ، ويبلغ الحق فيها أقصى محنته ، والثبات في هذه الساعة الشديدة هو نقطة التحول ، والامتحان الحاسم لإيمان المؤمنين يبدأ عندها ، فإذا ثبت تحول كل شيء عندها لمصلحته ، وهنا يبدأ الحق طريقه صاعداً ، ويبدأ الكفر طريقه نازلاً ، وتقرر باسم الله النهاية المرتقبة . . .

وانظر كيف كان المهاجران قاب قوسين أو أدنى من الموت في الغار ، وكيف كان إسماعيل قاب قوسين أو أدنى من الذبح ، وكيف وصل الابتلاء بموسى وقومه لما طارده فرعون وجنته :

﴿فَأَتَبْعَوْهُمْ مُشْرِقِينَ * فَلَمَّا تَرَاءَ الْجَمَعَانَ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيِّدِنَا * فَأَوْحَيْنَا إِلَيْ مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالْطَّوْدِ الْعَظِيمِ * وَأَزْلَفْنَا ثُمَّ الْآخَرِينَ * وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ﴾ (٢).

ألا فليؤيد المسلمون واجبهم ثم لينتظروا نصر الله .

ألا فليواجهوا الأخطار والمخاوف ، ثم ليرتقبوا الفوز .

أما قبل ذلك فليس في الدنيا مكان للاهين واللاعبين .

* * *

(٢) الشعرا : الآية ٦٠ - ٦٥ .

• فريقان...!

في طريق كل نهضة ترمق المستقبل بالأمل ، وتغالب مصاعب الحاضر بشدة العزم وطول العمل ، تجد صنفين من الناس هم أبداً مثار فتنة ومصدر يأس .

فأما الصنف الأول فهم المعوقون الذين يعترضون ببلادتهم كل حركة ، ويتشارؤهم كل رجاء ، فإذا رأوا مشروعًا جيداً خلقوا في وجهه الصعب ، وإذا رأوا نية صادقة أثاروا حولها الريب ، وإذا رأوا طليعة زاحفة وضعوا أمامها العراقيل ، كأن سرورهم لا يتم في هذه الحياة إلا إذا سكروا من برودهم على كل حرارة فأطفأوا لهبها ، واطمأنوا إلى ظلامها ، لأنهم لا يحبون الخير ، ولا يطيقون أن يروا بوادره تنبت بين الآخرين .

ويأتي بعد هذا الصنف من المعوقين صنف المهرجين ، وهم قوم يتتفقون مع زملائهم في خراب القلب من حب الخير وتنوى نجاحه . بيد أن لهم مسلكاً متلوياً في التعبير عما في ضمائركم من شر ... فهم في صفوف العاملين يكترون السواد ، ويملاون الجو هتافاً وتصايحاً ، فإن يكن نصر كانوا أول المطالبين بحقوقهم في الغنيمة ، وإن بدت نذر الكفاح بدأت صيحاتهم العالية تخفت ، ونبراتهم الداوية ترتعش ، يدفعون غيرهم إلى الأمام بعنف ، ثم يبحثون عن أماكنهم هناك ... في مؤخرة الصفوف وقلوبهم تدق رعباً في انتظار النتيجة ...

وكثيراً ما يكون هؤلاء في مناصب تغريهم بالتطاول والسفاهة على الجم眾 النقي من المؤمنين المخلصين .

وفي الصنفين جميعاً يقول القرآن الكريم :

﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْرَانِهِمْ هَلْمَ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا * أَشَحَّةَ عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتُمُوهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشِي عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِالسِّنَةِ حِدَادٍ أَشَحَّةَ عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ (٢) .

وأمثال هؤلاء الناس يستطيعون أن يبرزوا على عجل في أي ميدان ؛ فليس أيسر على المعوق والمهرج من الظهور ، ما دامت وسائل التقدم لا تعنى أكثر من حنجرة صياحة ، ونفس ملحاح ، وحياة قليل ، وثبات ضئيل ..

(٢) الأحزاب : الآية ١٨، ١٩.

ولكن الميادين التي تحفل بهؤلاء هي ميادين الهرزلة ، لا ميادين الشرف ..
وعلى كل مجتمع يريد أن يدعم أركانه ، بل على كل صنف يريد أن يحفظ كيانه أن
ينفي هذا الخبر عنده . فما ابتلى الشرق في نهضاته الأخيرة إلا لأن المعوين
والمهرجين وجدوا المجال لنفت سموهم ، بل وجدوا الفرصة لاقصاء العاملين
الصامتين ، والشهداء المجهولين .

● في الإصلاح:

محاولة إصلاح الكبار وتنشئتهم على أخلاق جديدة جهد ضائع ، أو جهد أكبر
كثيراً من نتائجه ، فإن الخلل العقلاني عند هؤلاء يشبه الكسور التي التحمت على عاهة
مستديمة أو تشويه لازم ، فليس هناك موضع لجراحات التجميل والتعديل ، ولن يصلح
العطار ما أفسد الدهر .

والجهد النافع حقاً هو تلقيف الناشئة وهي غصة الإهاب ، ببيضاء الصحفية ثم
حياطتها بدورس العلم والتربية والتوجيه السديد حتى تشب على ما قدر لها من
نضج واكمال .

ولذلك لم أكثرت كثيراً لما تبذل الحكومة من جهود تافهة أو كبيرة لمحو الأمية . فما
غناء ذلك ؟ إن المقصود من التعليم ليس أن يخط التلميذ حرفاً أو يقرأ كلمة ، بل إن
القراءة والكتابة ليست إلا وسيلة للثقافة التي تفتق الأذهان ، وتنمى الموهب ، ترفع
النظر إلى حقيقة الوجود وتجعل المرء يبني نفسه بناءً راسخاً ساماً ، ويصوغ فى الحياة
أمله وعمله ، على نور وبصيرة .. وموضع هذا كله فى ربيع العمر لا خريفه .

ولو أن الحكومة عنيت بتكوين الجيل الجديد ، وفتح آلاف الفصول له لكان ذلك
أدنى إلى الرشد من فتح الفصول لمحو الأمية بين الشيوخ والعجزة الذين لا جدوى من
تعليمهم القراءة والكتابة ، لأنه لا جدوى من استغلال هذا التعليم فى تشقيفهم ،
وإحياء ما مات من مواهبهم ، أو تعديل ما وقر فى أذهانهم من أفكار نحو الحياة
والمبادئ والعقائد والأشخاص .

إذا المرء أعيته المروءة ناشئاً
فمطلوبها كهلاً عليه شديد

إن الأجيال المدبرة لها تقاليدها التي ثبتت عليها ، ولها أساليبها في العيش ، وهي أساليب اختلطت بدمها فلا فكاك منها ، ونقل هؤلاء إلى دعوة جديدة ، وإلى حضارة جديدة ضرب من العجزات ، وغاية ما يرجى منهم أن ينفذوا أمراً مجرداً ، كما تنفذ السيارات أوامر المرور المحدودة بالوقوف أو الانطلاق ، وهذه الأوامر لا صلة لها بتعديل الطبائع والعقول .

والشرق الإسلامي يحتاج في نهضته إلى نظام يشرف على رجال المستقبل من نعومة أظافرهم ، وإلى استنبات سلالات جديدة من الأجيال التي تترعرع بين أفباء المعرفة والتربية والثقافة الواسعة .

ذاك إن أردنا تكويناً صحيحاً لأمة حية قوية .

وإنه لمن المخزن أن نعالج أمورنا من غير هذه السبيل .

وإذا ارتبت في هذه الحقيقة فسل من جربوا معنا وعظ المسنيين والمستضعفين من قعدة المساجد .

● نسبة !

لا أدرى أهى طبيعة فىٰ وحدى أم فىٰ غيرى من الناس كذلك ؟ وعلى كل حال فهى طبيعة سيئة يجب إصلاحها ، وذلك أنى أحب إذا لم أدرك الشيء كله أن أتركه كله ، وإذا وجدت شيئاً كثير الكمال قليل النقص كان شعوري بنقصه أضعف شعورى بكماله .

وقد ينبعضنى القدى من صديق ، كما ينبعضنى الأذى من عدو . . .

ولا أذهب كثيراً في سرد الأمثال ، فإن المهم لفت النظر إلى أن مثل هذا التطرف في إدراك الأشياء ومعالجتها يشق كثيراً ، ويضايق صاحبه كما يضايق الناس منه ، فضلاً عن أنه مجاف للحق والصواب ؛ فإن شئون الحياة نسبة كلها ، قلما يوجد فيها خير محض أو شر محض ، وطبائع الأشياء ومعادن الناس من طبائع هذه الأرض ومعادنها ، فالذهب لا يعثر عليه خالصاً من الشوائب الرخيصة ، لكنه على كل حال ذهب ، والحديد لا يوجد إلا مقررونا بشتى الأختلاط ، ولكنه لا يرمى ولا يهمل بل ينقى وينتفع به ، ومعانى الحياة كمعدن الأرض لا يجوز أن ننتظر وجودها بين أيدينا مصفاة من كل شائبة ، مبرأة من كل عيب ، بل سيفترن الخير بالشر ، ويقترن الطيب

بالخبيث ، وعلينا أن نأخذ من كل شيء خيره ، ونجتنب على قدر الإمكان شره ، والإسلام ينظر إلى الأمور هذه النظرة الصادقة ، فما غالب خيره شره أبيح ، وما غالب شره خيره حرم ، وعلى هذا الأساس حرم الخمر والميسر .

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ (٤) .

* * *

● ثلاثة بدل ثلاثة:

يوجد عوض طيب عن الأشياء التي تتطلع إليها النفس ويحرمنها عليها الدين . وربما كان هذا العوض هو الأصل الذي تشتهيه النفس ، ولكنها أخطأت إليه الطريق فلم تحسن الوصول ، أو أن الحلال والحرام تشابها عليها فلما عرفت الحرام أولاً جنحت إليه ، ولو أنها اهتدت إلى الحلال أولاً لوجدت فيه متنفسها الطبيعي ، وبغيتها المنشودة ، ولعافت الحرام ، وكرهت الخوض فيه . إن الاتصال بالمرأة مثلاً غريزة جياشة عارمة ، والصورة التي تهدأ بها وتستقر فيها واحدة في حالتى الزنا والزواج . والدين يعترف بظاهر هذه الغريزة من إدراك وانفعال ونزوع ، وغاية ما يتدخل فيه أنه يحدد الاتجاه السلوكي لها و يجعله في الزواج لا في السفاح .

وعلى هذا النحو يحرم الدين أموراً شتى ويحل أموراً أخرى .

الدين يحرم الكبر ، فهل معنى ذلك أنه يكلف المرء بالهوان ؟ .

لا ، فمن حق الإنسان أن يشعر بنفسه ، وأن يتسامى بحقه ، وأن يحافظ على كراماته على أن يكون ذلك في حدود العزة التي يصان بها الشخص ، ولا يجرح بها الغير ، ولا يستهان فيها بأقدار الناس ! .

والدين يحرم الرياء ، فهل معنى ذلك أن يجهل قدر الإنسان أو يعرف معرفة خطأة ، أو تطمس مواهبه ، أو توارى أعماله ؟ .

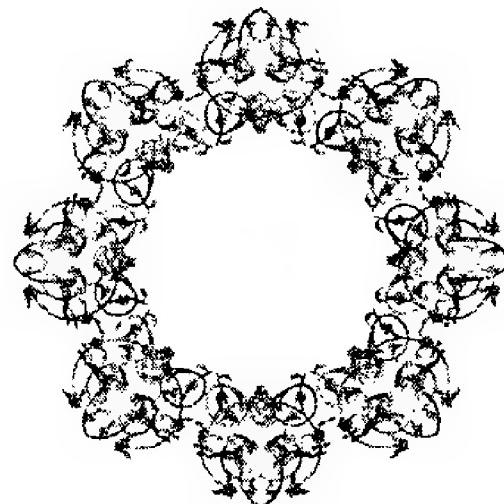
لا ، فإن الله أعطى كل ذي حق حقه ، وحفظ لكل ذي موهبة موهبته ، وأمر أن ينزل الناس منازلهم ، وأن يقال ذرو المروءات عثراتهم . وجعل ذلك كله في حدود الذكرى الحسنة التي هي حق طبيعي لكل مؤمن ينبغي أن يدافع عنه ، وأن يستمسك به ! والذكرى الحسنة

(٤) البقرة: الآية ٢١٩ .

فِي الْحَيَاةِ وَالْمَمَاتِ عَوْضٌ عَادِلٌ لَا رِيبٌ فِيهِ عَنِ الرِّيَاءِ الْحَقِيرِ ، وَسُبْلِهَا الْمَهْدَةُ إِخْلَاصُ الرَّجُلِ فِي أَدَاءِ وَاجِبَاتِهِ ، وَابْتِعَادُهُ عَنِ مَوَاطِنِ السُّوءِ وَارْتِفَاعُهُ عَنِ مَوَاضِعِ الْغَفْلَةِ ، وَإِدْرَاكُهُ بِأَنَّ حَسَنَ الذِّكْرِ وَنِبَاهَةَ الشَّائِنِ . نَعَمْ يَسُوقُهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى مِنْ شَاءَ مِنْ عَبَادِهِ ، وَأَنَّهُ إِذَا أَحَبَّ شَخْصًا أَوْ حَسَنًا إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى فَأَحَبُّوهُ ، ثُمَّ يُوَضَّعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ .

وَاتِّبَاعُ الْهَوَى يَوْجَدُ بِذَلِكَ عَوْضٌ طَيْبٌ رَحِيبٌ يَقُومُ عَلَى تَعْرِفِ أَنْوَاعِ الْحَلَالِ الْمَبَاحِ ، وَالتَّوْسُعُ فِي اسْتِغْلَالِهَا اسْتِغْلَالًا لَا تَشْعُرُ النَّفْسُ فِيهِ بِالْحَرْمَانِ مِنْ طَيْبَاتِ الْحَيَاةِ ، وَلَا تَسْأَمُ فِيهِ مِنْ اتِّبَاعِ أَوْامِرِ الدِّينِ ! .

إِذَا عَلِمْتَ بِأَنَّ الدِّينَ بَعِيدٌ عَنِ الْحَرْجِ ، وَبِأَنَّ التَّزَهُدَ الْفَارِغَ فِي أَكْثَرِ مَتَاعِ الدُّنْيَا لَا دَلَالَةٌ فِيهِ عَلَى خَيْرٍ ، عَلِمْتَ أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُلُّ عَبَادَهُ مَا يَغْلِبُهُمْ ، فَلَا ضَرُورَةٌ لِلْكُبُرِ وَالرِّيَاءِ وَالْهَوَى مَا دَمْنَا سَنْجَدُ مَا نَرِيدُ فِيمَا شَرَعَ لَنَا مِنْ عِزَّةِ النَّفْسِ ، وَالذِّكْرُ الْحَسَنُ ، وَكَفَالَةُ الْحَرِيَّاتِ وَالرَّغْبَاتِ وَالْحَقَوْقِ .



على اعتاب الشهادة

نحن الآن في الأرض المقدسة وهذه قرية «دير البلح» التي قصيدها إليها النزور قبور الشهداء ! وسمعت الدليل المراقب يضرب الرمال بقدمه قائلاً : هنا كانت لليهود مستعمرة . في هذا الفضاء الذي تسير فيه أمّاً كانت مدافعاً «كفار ديروم» تهدف الحمم وتشير الرعب ، وتعد خطر الصهيونية إلى جنوب فلسطين ، وهنا بدأت أول معركة بين فتيان الإخوان المسلمين ، وبين بنى إسرائيل الذين احتضنتهم إنجلترا ، وسلحتهم أمريكا ، ومكن لهم الخونة من أمراء العرب .

● السجون والمنافي :

في هذه البقعة التقى اليقين الناضج الحر بالمطامع الجريئة الواقع . وقد انتهت الجولة الأولى على غير ما نبغي ، إن اليهود الآن على مدى سهمينا . وقد اجتاحت الإخوان أصول هذه المستعمرة العاتية ، وتركوها قاعاً صفصفاً ، ولكن هناك مئات من المستعمرات ظلت قائمة على أصولها تبث القلق حولنا ، وتطلق الغيم على مستقبلنا . أما الإخوان الذين أحالوا جسومهم ألغاماً تنفس دعائيم المكر ، فقد سحبوا من الميدان لتمتلئ بهم السجون والمنافي ! هكذا صنعت بهم حكومة «مصر» . . .

وها هي ذي بقية منهم لم تعد إلى مصر ، لأنها ماتت في سبيل الله ! لقد اختارتهم العناية الإلهية فأصبحوا شهداء ، والشهادة في منطق المؤمنين منزلة يهنا بها ويغبط عليها وليست مصيبة يساق من أجلها عزاء .

● أرض الشهداء :

ما هانت الدنيا في عيني ! ولا هنت في عين نفسي مثل ما شعرت ساعتئذ وأنا أخطو وئيداً أمام القبور المتراسدة الهادئة في ذلك الوادي الصامت .

إنني أمشي في أرض الشهداء ، فيجب أن أطأطئ الرأس إجلالاً ، وأن أحدث همساً ، وأنا أدلف إليهم في خشوع وأدب .

في مقابر الناس كنت دائماً أشتئم رائحة البلى : أما هنا فلا أشتئم إلا رواح الخلود ! .

وما هذه الأزهار المنشورة ، والأغصان المتهدلة ، والأشجار الباسقة ؟ .

ما أجمل هذا الصنيع ! أن تغرس حديقة زاهية فوق قبور الشهداء وحولها . . . أتري هذا الورد الأحمر قد ارتوى من دمائهم ، وهذه العطور الفواحة قد نفتحت من شمائهم ؟ أم شاء الله أن يجعل أبصارنا تقع على هذا البستان النضير ، ليعطينا فكرة محدودة عن الجنة اليانعة الناعمة التي يمرح فيها شهداؤنا الأبرار ، فكأن الأديم الذي نسير عليه مرأة عكست ما تحتها من نعيم مقيم ؟ .

إن الشهداء أعلى مكاناً من أوهامي القاصرة ! . . .

قال رسول الله ﷺ : «لَا أُصِيب إِخْوَانَكُمْ جَعْلَ اللَّهِ أَرْوَاحَهُمْ فِي جَوْفِ طَيرٍ خَضْرٌ تَرَدُّ أَنْهَارَ الْجَنَّةِ، تَأْكُلُ مِنْ ثَمَارِهَا، وَتَأْوِي إِلَى قَنَادِيلِ مِنْ ذَهَبٍ مَعْلَقَةً فِي ظَلِّ الْعَرْشِ، فَلَمَّا وَجَدُوا طَيْبًا مَأْكُلَهُمْ وَمَشْرِبَهُمْ وَمَقْيِلَهُمْ قَالُوا: مَنْ يَبْلُغُ عَنَّا إِخْوَانَنَا أَنَا أَحْيَاهُ فِي الْجَنَّةِ نَرْزَقُ، لَئِلَا يَزَهَّدُوا فِي الْجَهَادِ، وَلَا يَنْكُلُوا مِنَ الْحَرْبِ؟ فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا أَبْلُغُهُمْ عَنْكُمْ. قَالَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ :

﴿وَلَا تَحْسِنَ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاهُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ فَرِحَّنَ
بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴿١﴾ .

● مقاتل الصهيونية:

لقد انفتحت أبواب الفردوس لهذا المكان من الشرق الأوسط عدة مرات :

المرة الأولى : يوم انطلق الصحابة الأولون يطوفون أعلام الروم ويمدون أشعة الإسلام .

والمرة الثانية : يوم انبعثت جيوش التحرير يقودها السلطان صلاح الدين لمطاردة الصليبية الغازية ، ورد فلولها المهزومة عن بيت المقدس .

ثم هذه المرة ، فوسط صخور صماء من الإلحاد والفسق ، رشحت قطرات قليلة من الإيمان الزكي ، فإذا متقطعة الإخوان يعبرون الحدود التي صنعها الاستعمار ليمزق أوصال الإسلام ، ثم يندفعون باحثين عن مقاتل الصهيونية ليصرعوا بغيها ، ويكسروا شرها .

(١) آل عمران : الآية ١٦٩ ، ١٧٠ .

وانفرجت أبواب الفردوس ل تستقبل وفد الشهداء الجدد ، وهأنذا أقرأ أسماء المصطفين الأبرار على شواهد القبور التي تحفى عنا أشخاصهم .

نعم هأنذا أقرأ . . . اسم من هذا ؟ إنه فلان !!

ورجعتنى الذاكرة إلى أيام خلت ، كان فيها الشاب الصالح يجيئنى بالمسجد ليطلب منى أن ألقى عليهم درساً بشعبية الحى ، كان يعتبرنى أستاذه .

أما اليوم ، فقد تغيرت الأوضاع ، وأصبحت أمام قبره التلميذ الصغير . . . إنه سبق سبقاً بعيداً . . . إلا أن يتفضل المولى القدير فأرد المصير نفسه .

● جلال :

إننا فى زمن كثر فيه الهرج ، واشتعلت فيه الحروب ، وجمهور الضحايا لا يدرى لم قتل ولمن قتل ؟ والجيوش الجرارة التى تعبيها اليوم الشيوعية والرأسمالية تسوق الذبائح بين يديها لغير غرض أو لغرض خسيس ، وإذا كان القتال الذى بينهما إنما جرى لاستلام حقوقنا ، فما تظن وصف ضحاياه ؟

لص خرج للسطو فاخترمت بدنه رصاصة أزهقت روحه ، فجثته على عرض الطريق ملقى كجثة دابة نافقة ! أولئك قتلى المستعمرين من كل جنس ولوطن .

أما قتلانا ، أما الشهيد من رجالاتنا الأمجاد ، فذاك مضى كما قيل :

تردى ثياب الموت حمراً فما دجى لها الليل إلا وهى من سندس خضر
وأما درجته فكما وصف الله :

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثُمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا * عَالَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ * وَحَلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رِبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا * إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعِيْكُمْ مَشْكُورًا ﴾ (٢) .

إن الشهيد رجل عرف كيف يعيش وكيف يموت . كان يمكن أن يكون بشرًا صغيرًا كسائر البشر . أما بعد أن اتصل بالحقيقة العليا ، وربط وجوده المحدود بالوجود المطلق ، ونسى نفسه حين ذكر ربه ، وركل الأرض حين تطلع للسماء ، وبصق على الدنيا حين

(2) الإنسان : الآية ٢٠ - ٢٢ .

عرضت عليه الآخرة .. أما بعد ذلك فقد أصبح يحلق في كون آخر عليه من إجلال الله وألائه نصرة ، وضياء وخلود .

ذلك لفيف من شهدائنا في «دير البلح» كانوا أول دم زكي أريق في هذه الديار ، وكانوا مثلاً خارقاً لحماسة العقيدة وحماية الذمار .

وتذكرت الوطن الذي جحد أولئك الأبطال ، وكيف يزخر اليوم بالأسى والクロب ، تذكرت الأحزاب الطامعة في الحكم ، والتجار الناشدين للغلاء ، والموظفين الباحثين عن الترقى ، والطلاب المصروفين عن العلم ، والشبان المتعلقين بالأهواء ... ثم رجعت البصر إلى القبور الحية القائمة أمامي .. فأدركت أنني هنا يجب أن أرفع مستوى في حضرة الأبطال ، فما ينبغي أن يلم خاطري بهذه الصغائر التي داسوها من قديم ، وتجاوزوها لمن تعلق همهم بالدنيا ، إنني هنا أمام الربانين الذين عاشوا باليقين ... حتى أتاهم اليقين .

● شهداء فلسطين:

ألا فليعلم السفهاء من الحكام أن الطاقة الروحية المختزنة في كتاب الله وسنة رسوله هي التي صنعت أولئك الرجال .

فإذا أصرروا على التجهم للإسلام ، وحاولوا بناء النهضة على غيره من الأفكار والنظم فلن ينالوا خيراً أبداً .

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنِيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍٖ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنِيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرْفٍ هَارِ فَانهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾^(٢).

● وما هو بالهزل:

من الغفلة أن تظن الشيء الواحد يباع بأعلى الأثمان وتفهها في وقت واحد ، فإذا كانت القيمة الحقيقة لسلعة ما ألف جنيه ، فإن الحصول عليها بقرش على طريق البيع وانشراء يعتبر مستحيلاً ! .

وربما أمكن الحصول عليها بطريق السرقة أو المقامرة أو الاختطاف أو ما أشبه ذلك ، وإذا شاء صاحبها التبرع بها فله أن يفعل بما له ما يشاء .

(٢) التوبية : الآية ١٠٩ .

والمعروف من دلائل الشريعة أن الله جنة تعهد غراسها وحسن مهادها ، وأعد فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

والمعروف أن الله لم يجعل نيل هذه الجنة بالجحش ، وأنه كذلك لم يطلب لها ثمناً تافهاً بل جعل الحصول عليها بأغلى ما يمكن لامرئ أن يدفعه وهو نفسه وماليه .

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾^(٤) .

وجاء في الحديث : «من خاف أدلج ، ومن أدلج بلغ المنزل ، ألا إن سلعة الله غالبة ، ألا إن سلعة الله الجنة» .

ومع فداحة الثمن المطلوب لهذا النعيم المقيم ، فإن عوام المسلمين يتتجاوزون خطره بطريقة حمقاء ، مما يدفع فيه الروح يريدون أن يدفعوا فيه قلامة ظفر ، وحسب الواحد منهم أن يجري على لسانه دعاء مأثوراً أو ذكرًا وارداً ، لتطير به إلى الجنة الموعودة ملائكة ذات أجنحة مثنى وثلاثة ورباع .

وفي غفران الذنوب يقول الله تعالى :

﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَوْذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتُلُوا لَا كَفَرَنَ عَنْهُمْ سَيَّاتِهِمْ﴾^(٥) .

ولكن تكثير السيئات الذي سبقته هاتيك المقدمات الجليلة ظل يتضاءل ويتضاءل ، حتى أصبح الرجل المحصور وراء ركام من الخطايا السود يستطيع الإفلات منها بتعويذه يهمهم بها فمه ، وتخليج بها شفاته ... دونوعى .

ونحن لا نستكثرون على فضل الله شيئاً ، ولكننا نحترم أصول الإسلام ، ونراعي قوانين الجزاء ، ونضع النصوص في مواضعها التي تتلاءم معها ، ونحترم حقيقة الدين من فوضى الأفهام القاصرة .

وقد يسأل العلماء الراسخون لأحاديث الذكر ، وما اقترن بها من جزاء عريض فشرحوا المقصود بها . قال ابن بطال : الفضائل الواردة في التسبيح والتحميد ونحو ذلك ، إنما هي لأهل الشرف والكمال في الدين ، والطهارة من الحرام وغيره . فلا يظن

(٤)آل عمران : الآية ١١١ .

(٥)آل عمران : الآية ١٩٥ .

ظان أن من أدمن الذكر وأصر على ما شاء من شهواته ، وانتهك دين الله وحرماته ، أنه يلتحق بالمطهرين المقدسين ، ويبلغ منازل الكاملين .. بكلام أجراه على لسانه ليس معه تقوى ولا عمل صالح .

قال صاحب فتح الباري - بعد ما نقل هذا الكلام وأيده - : ويشهد له قوله تعالى :

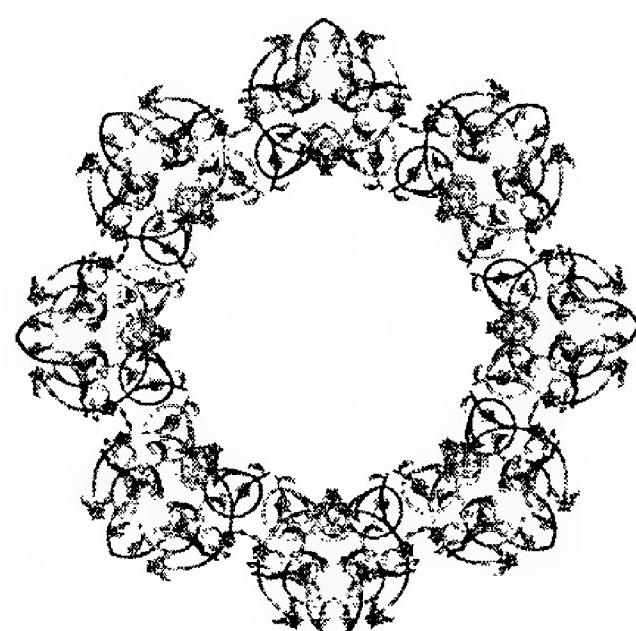
﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنَّنَا جَعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءٌ مَّحْيَا هُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾^(٦) .

ويرى القرطبي أن الذكر يختلف ثوابه باختلاف أحوال الذاكرين . وهذا حق ، فمن الناس من تكون الكلمات التي يرددوها لسانه صدى عميقاً للتأثير بالغ ، وقلب مشرق ، ونفس أصفى من أن تمر بها خواطر السوء ، بله أن تفعله .

وعندما يكون الذكر رمزاً للثيقين المستعلى على الدنيا ومثبتاتها ، فهو أخو الجihad الذي يضحي بالدنيا في سبيل الدين .

والأجر المقتن به عندئذ لا شطط فيه ولا تجاوز .

أما أوهام العامة فيما يتصل بالثواب والعقاب ، وظنهم أن هذا يرجى بالشمن البخس ، أو ذاك يخشى بالأمل القاعد ، فخبط لا سند له من دين الله .



(٦) الجاثية : الآية ٢١ .

مظاهرات الحج الكبرى

تواضع الناس على اعتبار المظاهرات الوطنية النبيلة تقليداً حسناً ، ورأوا في احتشاد الجموع الغفيرة ، وانطلاقها إلى هدف مرسوم ، وصياغتها بكلمات معينة ، رأوا في ذلك ترجمة قوية مما يجيشه بأنفسهم من أمال ومطالب ، وإذا كانت هذه المظاهرات إبابة صارخة عن روح الجماعة ، فهـى دافع عميق الأثر فى مسلك الفرد ، يقتل أسباب الضعف والتردد في نفسه .

وقد انتشرت سنة المظاهرات في الشرق والغرب ، وانتظم في مواكبها القادة والعلماء والوزراء وأساتذة الجامعات الكبرى ورجال القضاء ، فضلاً عن الآلوف المؤلفة من الطلاب والعمال .

وقد أحستت ببعض الأسرار التي ينشدها الإسلام من فريضة الحج عندما أمر أتباعه بالانتظام في أروع مظاهرة تسوق الأم سوقاً إلى البيت العتيق ، وتدعوهـم أن ينطلقوا إليه رجالاً وركباناً من كل فج عميق .. أحـست بأن صوت الإيمان الذي كان يهمـس في نفسي قد بدأ يعلو رويداً رويداً ، وأن خفـوته قد استحال إلى صرـاخ يهز جوانـب القـلب كما يهز بطـون الأودـية .. .

كـانت حـناجـرـنا تـهـتفـ بـقوـةـ - لا بـمـوتـ فـلـانـ أوـ حـيـاتهـ - بل تـهـتفـ لـلـهـ وـحـدـهـ ، منـيـبةـ مـلـيـةـ ذـاـكـرـةـ شـاـكـرـةـ .. .

والـحـيـاةـ الـفـاضـلـةـ وـالـمـثـلـ الـعـالـيـةـ تـكـسـبـ الـكـثـيرـ مـنـ اـرـتـفـاعـ الـعـقـائـرـ بـهـذـاـ الـهـتـافـ الـجـلـيلـ ، ولا تـخـسـبـ صـدـاهـ يـنـتـهـىـ بـانـفـضـاضـ مـوـاكـبـ الـحـجـيجـ وـانـقـضـاءـ الـأـشـهـرـ الـمـعـلـومـاتـ .

كـلاـ فـعـجـيجـ الـجـمـاهـيرـ الـحـاشـدـةـ ، تـذـكـرـ اللـهـ حـوـلـ الـمـنـاسـكـ الـمـقـدـسـةـ يـتـرـكـ فـيـ النـفـوسـ آـثـارـاـ لـاـ تـنـمـحـىـ ، وـإـنـهـ لـيـخـيـلـ إـلـىـ آـنـ الـحـجـ - بـهـذـاـ الـهـتـافـ الـمـفـروـضـ فـيـ شـعـائـرـهـ - يـرـتـقـىـ بـالـيـقـيـنـ مـنـ مـعـنـىـ مـسـتـكـنـ فـيـ الضـمـيرـ ، إـلـىـ مـبـدـأـ يـتـوـاصـىـ النـاسـ بـهـ وـيـجـتـمـعـونـ عـلـيـهـ ، أوـ آـنـهـ يـفـتـحـ الـبـرـاعـمـ الـمـضـمـوـمـةـ عـلـىـ أـزـهـارـهـاـ لـيـصـلـ بـهـاـ إـلـىـ مـرـتـبـةـ الـكـمـالـ وـالـنـضـجـ ، فـإـذـاـ هـىـ رـوـحـ وـرـيـحـانـ وـجـنـةـ نـعـيمـ .. .

ويـخـيـلـ إـلـىـ آـنـ الـمـنـاسـكـ كـلـهـاـ أـشـكـالـ غـيـرـ مـقـصـودـةـ لـذـاتـهـاـ ، إـنـماـ قـصـدـتـ لـذـكـرـ اللـهـ عـنـهـاـ ، وـاسـتـقـرـاءـ الـآـيـاتـ النـازـلـةـ فـيـ الـحـجـ يـشـهـدـ لـذـلـكـ ، فـفـيـ التـعـلـيلـ لـحـكـمـةـ الـحـجـ يـقـولـ :

﴿ وَأَذْنَ فِي النَّاسِ بِالْحَجَّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجَّ عَمِيقٍ *
لِيَشْهُدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ ... ﴾ (١).

ومن هنا حرم من الكلام ما يشغل عن هذا الهدف :

﴿ الْحَجَّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقٌ وَلَا جِدَالٌ فِي
الْحَجَّ ﴾ (٢) .

وفي الوقفة الكبرى يقول :

﴿ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَادْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَادْكُرُوهُ كَمَا
هَدَأْكُمْ ﴾ (٣) .

وبعد أداء الأركان يقول :

﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكُكُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾ (٤) .

وفي الوقوف «بنى» يقول :

﴿ وَادْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمٌ عَلَيْهِ ﴾ (٥) .

وفي ذبح الهدى يقول :

﴿ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا
صَوَافٌ ﴾ (٦) .

فذكر الله والهتاف باسمه غاية وعمل ، ووسيلة وهدف ، وفي هذه المظاهره التي جعلها الله ركناً في الإسلام ، وقرن بها من الفوائد النفسية والخلقية ما لا يحصى ... غير أن المسلمين لا يعرفون من حكم الحج الفردية والاجتماعية إلا القليل التافه ، وقد رمقت ألف الوافدين إلى أم القرى ودار الهجرة ، واندست في غمارهم وهم يحلون ويرحلون ، ثم طويت القلب على حسرات ...

(٢) البقرة : الآية ١٩٨.

(٢) البقرة : الآية ١٩٧.

(١) الحج : الآية ٢٧، ٢٨.

(٦) الحج : الآية ٣٦.

(٥) البقرة : الآية ٢٠٣.

(٤) البقرة : الآية ٢٠٠.

كان المفروض أنه كما تمر الجيوش الظافرة تحت أقواس النصر وتحبس قبور الشهداء تمر جماهير الحجيج بجيدان الصفا والمروة ، وتطوف حول الكعبة . . . ولكن أين الساعون والطائفون ؟؟ هؤلاء العامة الجهال القادمون من بلاد أكلها الذل إلى بلاد أكلها الذل . . !

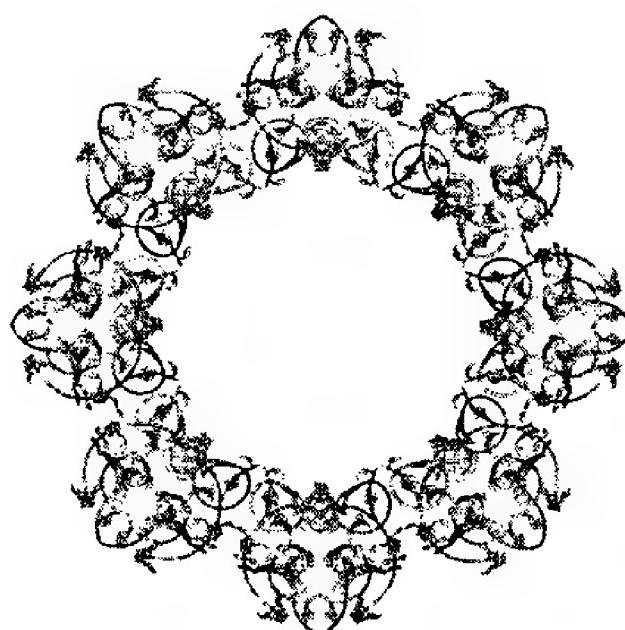
إن النبي ﷺ نظر إلى الكعبة ثم قال : «مَا أَجْمَلَكَ وَأَجْمَلَ رِيحَكَ ، وَمَا أَعْظَمَكَ وَأَعْظَمَ حُرْمَتَكَ ، وَالْمُؤْمِنُ عِنْدَ اللَّهِ أَعْظَمُ حُرْمَةً مِنْكَ ، حُرْمَةً دَمَهُ وَمَالَهُ» .

أجل ! إن حقوق الإنسان غالبة ، وهى عند الله أقدس من كل شيء ، أقدس من هذه الكعبة التي فرض على العباد التطواف حولها - لأنها رمز توحيده .

لكن المسلمين الطوافين حول هذه الكعبة جاءوا من بلاد أرخص شيء فيها حقوق الإنسان ، لأنها سقطت في يد الأجانب الغاصبين ، إلى بلاد أرخص شيء فيها حقوق الإنسان أيضاً ، لأن الاستعمار الداخلى كالاستعمار الخارجى سواء بسواء ، فيما يفرض من ظلم ويلقى من ظلام .

إن الأم عندما تهون تمسخ ما لديها من تعاليم .

والحج اليوم سفر ولقب وضريبة يدفعها السذج أو المكرهون ، ليترزق منها العاطلون ، والحكام المترفون .



فرنسا.. تكرم الحجاج المسلمين

قرأت منذ أيام أن المفوضية الفرنسية في مصر أقامت حفل شاي تكريماً للكبار الحجاج المغاربة في أثناء مرورهم عائدين إلى أوطانهم ، وكان في مقدمة من حضروا هذا الحفل حاكم مراكش ، وبعض الوزراء ، والقاضي المالكي وشيخ التيجانية ، ومفتى الجزائر ، وقد حضر هذه المأدبة الممثلون السياسيون للدول الشرقية سوريا ولبنان وإيران .. إلخ ..

ولقد شعرت - والله - بشيء غير قليل من الخزي يستولي على نفسي وأنا أقرأ هذا النبأ ، وأنظر إلى الصورة المرسومة معه ، وقد ظهر فيها الدبلوماسيون الفرنسيون وعلى وجوههم ابتساماتهم الماكرة ، وأحد الوزراء الحجاج وهو يرخي يديه إلى جنبيه في هدوء وأدب !

وشعرت بأن فريضة الحج قد خدشت قداستها ، وتنيت لو لم يخرج هؤلاء الناس لأدائها ، ولو لم يعودوا من مناسكهم ليطعموا حلوى ربما كانت بعض المسروقات المغتصبة من أوطانهم المسروقة ، أو يشربوا شيئاً كان ينبغي أن يذكرهم لونه الأحمر بالدماء التي سفكت هذا العام ظلماً وعدواناً في بلاد المغرب وفي بلاد المشرق ، وكان الفرنسيون الأبطال هم جزاريها العتاة .

أنا أدرك كل الإدراك أن الأمم الإسلامية منكوبة بأشخاص يضعون أيديهم في أيدي المستعمررين ويعاونونهم على إدراك مأربهم اللئيمة ، ولكنني لا أفهم مطلقاً أن يصل التمكين لهذا التعاون إلى حد التلاعب المكشوف بالمناسبات الإسلامية وفرائض الدين !!

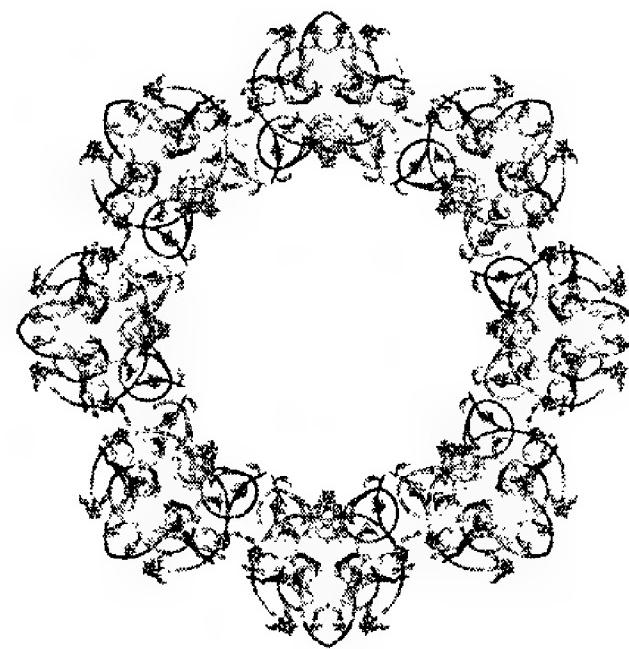
إن الحجاج المسلمين ليسوا كالحجاج الهنود الذين تناسب جحافلهم على شواطئ نهر الكنج ثم يعودون ليستظلو بحماية الرایة الإنجليزية .

إننا لسنا أشياع خرافية تحترم في غيبة العقل وانحطاط الفكر ، ونستحق - بهذه الحال - أن نهون ونذرى .

إننا أتباع دين يحترم الإنسان ويقدس حقوقه ويأمر بالقتال دونها .

ومن المضحك المبكي أن يعود الحجاج العرب المسلمين ليكرم حجهم في دار الدولة التي تعمل دائبة على سلب الجنسية العربية وتحطيم الجامعة الإسلامية .

إن الأعمال لا قيمة لها إن لم يصاحبها الإيمان بالله والإخلاص لوجهه ، والإيمان والإخلاص لا يقترن بهما حج باركته في بدايته ونهايته فرنسا ابنة الكنيسة البكر . والممثلة الباقية للاستعمار الصليبي في الأرض ، بعد زوال إيطاليا من عالم الاستعمار .



ناس طيبون !!

جلس إلى الرجل يقص رؤياه التي كانت أضغاث أحلام ، وترق جبهته وهو يحدثني كيف قضى أول الليل في الحضرة الصوفية التي تقيمها «طريقته» وكيف أن «الشيخ» عاب على مريديه تقصيرهم في العبادة ، وذكر لهم أن هناك نسوة من أتباع الطريقة بلغ بهن الصفاء أن رأين النبي ﷺ في المنام ... وأنتم أيها الرجال لا تصلون إلى هذه المنزلة !!
وهنا فتل الرجل شاربه ، وقطب جبينه ، وفهمت منه أن هذا التقرير أثر فيه فنام وقام ، ثم جاءني برؤيه الصالحة ! قبل أن يخبر بها شيخه العظيم !

وقدمت عن الرجل فإذا حلقة صغيرة تضم عدداً من الرجال الذين يكترون التردد على المسجد أبوا إلا أن يشركوني في حديثهم ، فأخذت مكانى بينهم مضطراً ، وسمعت أحدهم يقول - وهو يستأنف كلامه حريراً على أن يسمعني وأن يتعنى : لقد كان الشيخ فلان يبني داراً في بلدة كذا فكان الغمام يظله في حر الظهيرة ! وتلك بركة الإخلاص ورفعه الدرجة عند الله .

وقال جليس آخر - بعد أن أمن على زميله : ولقد دخل الشيخ فلان على جماعة يغنوون ويطربون فإذا آلات اللهو تنكسر في أيديهم ، وتحرس أصوات الغناء في حضرته !!
وهل تعلمون أن الشيخ فلاناً دعى إلى مأدبة الخديو فذهب إلى هناك ، وأمسك بأطباق الطعام يعصرها فإذا هي تقطر دماً .

وهنا صاح الشيخ يقول : أنا لا أكل من دم العباد !

ثم شرع أحد الجلوس يعلق في تشاوم وضيق : لقد فسدت الحال ورق الإيمان وضعاف الإخلاص و ... وانشغل العلماء بالدنيا ..

ثم سكت قليلاً يحسب أن في الكلام تعريضاً بي .

وهنا أنفذ الموقف جليس وقول يقول وهو يهز رأسه :

الفاتحة أن ينصر الله الإسلام !! وكدت أقرأ الفاتحة بنية أن الله ينقذ الإسلام من هؤلاء . لو لا أنني تذكرت فتوى عالم فاضل بأن هذه بدعة فانصرفت عنهم وأنا أحدث نفسي : إن الدين أصبح كالجحون ، فنوناً أى فنون !

وعظ في الهواء.. وقرآن للبيع

اشتركت وزارة الشئون الاجتماعية ، ووزارة الصحة ، ووزارة الأوقاف ، وإدارة الأزهر ، وعدة هيئات شعبية في الاحتفال بذكرى الحسين .. وقلت لنفسي : أذهب إلى الساحة المائحة لأسمع وأرى .. فلما ذهبت لم أدر أأتهم نفسى أم أتهم الناس ، كانت مكبرات الصوت مبشوطة هنا وهناك ، والأغانى الخليعة تذاع إلى جانب المحاضرات الدينية .

أفتظن الجد كان يتميز كثيراً عن الهرزل ؟

لا ! إن تميز في جوهره مما يتميز لدى جمهور السامعين الذاهلين !
إن صيحات الوعظ كانت تهز موجات الهواء ولكنها لم تهز جوانب القلوب .
واستوقفت نظرى أمور شتى فى خطب أولئك الوعاظين .

ما هذه الأحاديث الشريفة التي تلقى في الهواء بالعشرات ؟ ، إنها الدرر التي كانت تنحدر من فم الرسول ﷺ فيلقفها السامعون بمشاعر الإعزاز البالغ ، ويعرف صاحبها العظيم قيمتها فهو يقتصر في إلقائها اقتصاداً ، ويوجز في أحاديثه حتى لتحصى على الأصابع إحصاء .

هذه الأحاديث كانت تلقى في إسراف شديد .. في الهواء ! أو لقوم قلوبهم في الهواء .

ورأيت رجلاً قارب الستين أو جاوزها ، يدخل في دكان ليعرض على من فيه بضاعته ، وما بضاعته ؟ إنه الوحي الذي نزل به الروح الأمين .

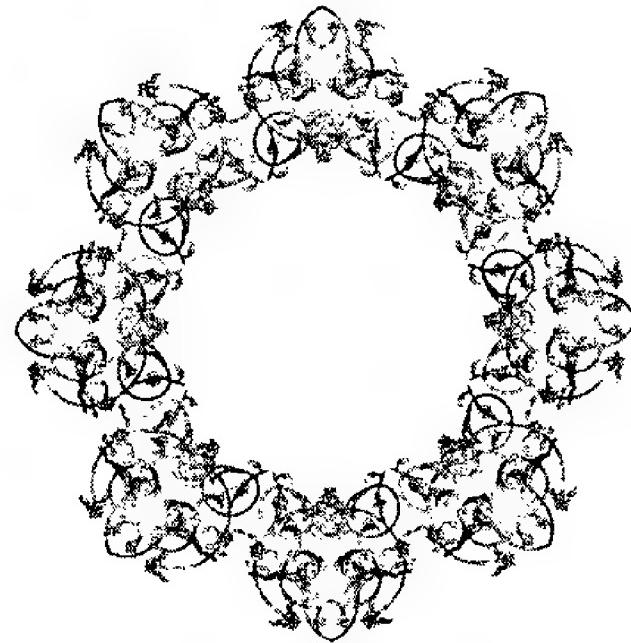
هذا رجل أشيب يرتزق بالقرآن من قديم ، وكان صاحب الدكان زاهداً في السمع فأعطى السائل قريشات وصرفه . وتبع القارئ السائل بعين تكاد تطفر دمعاً ، وقلب مليء بالكآبة .

وهل رأيت مواكب الصوفية المتتابعة في هذه الساحة الغاصة ؟

إن طبولها تدق لا لإعلان الحرب على الشيطان ، بل لإعلان حرب الشيطان على
دين الرحمن !

ورأيت يهودياً يرمي الموكب الصالح بنظرات شزراه ! فتضاءلت في شخصي ،
وأحسست بسهام الخزي تخترق فؤادي من كل صوب ، ثم مرت الأعلام التي نقشت
جوانبها بأسماء الخلفاء الأربع ، ومن تحتها فلول من الفلاحين الأغبياء !

ووقفت في مكانى أستعرض المارة كما يستعرض القائد المكسور جيشه المهزوم !
ولم أجد أفضل من أن أعود أدراجى تاركاً الوزارات الشئون ، والصحة ، والأوقاف ،
والآزهر عبء العمل المنتج فى ساحة الاحتفال المهيب !



مجرمو الحرب عندنا لا عندهم !

في نهاية الحرب العالمية الثانية قرر الحلفاء المنتصرون أن يشنقوا قادة ألمانيا وساستها ، وقد نفذوا ما قرروا .

ولن تبرح ذاكرة التاريخ تعى صوراً بشعة لأجساد تتارجح فى الهواء ، وعيون جاحظة ، وشفاه ممزومة ، من حولها رجال : تشرشل ، وترومأن بارزو الأنبياء ، كالخو الملامح . . . يتشفون لمصارع أعدائهم على هذا النحو . .

ربما كان هذا انتقاماً عادلاً لآلاف البلاد التى دمرت على ما فيها ومن فيها ولو مال ميزان الحظ وانهزم الحلفاء ، وكانت الأوضاع على عكس ما سجل التاريخ ، وإذن لانقلب الصحايا قتلة ، ولذرية أجساد القضاة فى الهواء بالتهم نفسها التى حاكموا بها غيرهم .

وليس يهمنى الآن أن أحدد بدقة أى الفريقين شر على العالم : الإنجليز أم الألمان؟ ولا أى الرجلين أحق بالعقوبة : هتلر أم تشرشل ؟

وإنما يهمنى أن أنحو باللائمة على فريق آخر ، هم فى نظرى مجرمو الحرب ، ومعرضو العالم كله للهلاك .

إن الحروب الأولى والأخيرة التى شملت الأرض وغيرت معالها لم تشتعل نارها إلا لغرض واحد لا ثانى له ، هو استعمار الشرق ، وتسخير ما به من إنسان وحيوان لخدمة الرجل الأبيض الذى يسكن أوروبا وأمريكا !

والمعارك التى ذبحت فيها أجيال من البشر ، وهى مظهر لتنازع الأقوياء أيام ينفرد بالسيادة علينا والانتفاض بيمنا ؟

والحرب المتوقعة الآن بين شتى الجبهات المتربصة بالمال والسلاح لا تعدو فى أهدافها ومبرراتها أبداً هذا المعنى !

إنه نزاع على أكلنا ، إن هذه الحيوانات تتهارش على افتراسنا ، وعندما يفرغ بعضها من بعض يأتى الفريق المنتصر وعلى فمه زهومة الدم المسفوح ليبدأ دوره معنا ، نحن الذين نعد لمرح الغالب وكبره !

إن ضعفنا هو الجريمة الكبرى التي توقع العالم في أشد الكوارث ، والذين يعملون على إبقاء هذا الشرق مهizin الجناح دامي الجراح من سادته وقادته هم مجرمو الحرب الحقيقيون . إن كل سياسة داخلية في أي بلد شرقي تبقى الجماهير في هذا المستوى الفقير الحقير ، هي في جوهرها تقويض لسلام العالم أجمع ، إلى جانب ماتنطوى عليه من مظالم ولؤم وخسارة تقع على الشعوب البائسة خاصة . . .

ولو عرف الإنجليز وغيرهم ، من يبنون حياتهم على أنقاضنا ، أننا من الإباء والكرامة بحيث لا يستريح بينما غاصب ، ولا ينجو ب حياته معتمد أثيم لما فكر كلب منهم أن يختال بينما ، بل أن يحتل شيئاً من أرضنا ..

فلنجعل خطتنا الآن أن نقوى في كل ناحية ، وأن نجتث عوامل هذا الضعف الذي أزرى بنا ، وأن نظهر الطريق من الساسة الذين لا يتصوروننا إلا فقراء حقراء . . . فإذا عز علينا أن نجعل هذا الشرق في مستوى تقطع دونه وساوس الطامعين ، فلنجعله مقابر . . أجل مقابر تضم رفاتنا ونحن هلكى تحت ترابه ! فذاك أولى بنا من أن نعيش موتي بين الأحياء . . وصدق إمام الأنبياء ﷺ إذ يقول في مثل هذه الحال : «**بَطْنُ الْأَرْضِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ ظَهُورِهَا**» .

● جهادنا .. وجهادهم !

ولسياسة الشرق الأوسط أسلوب في الجهاد كان له أبعد الأثر في تضليل الشعوب عن أهدافها ، وإطالة أمد الاستعمار الجاثم على صدرها . . .

هؤلاء الساسة لا يتوجهون إلى الأمم كي يثيروا فيها غرائز الكفاح ، ويحيوا مشاعر الأنفة والتمرد ويوثقوا الروابط بين شتى الطوائف ، حتى تندفع إلى مقاتلة عدوها صفا ملتئماً يتحامل على نفسه إذا تعب ، ويحمل جراحه إذا أصيب ، ويرعي ذراري الضحايا إذا نكب ، ولا بد في كل ميدان يحتمد فيه الصراع من توقع هذا كله وأكثر منه . . !

لكن ساستنا ابتدعوا لوناً من الجهاد لا شوكة فيه ! ومنذ نصف قرن وهم قابعون وراء المكاتب يرسلون التصريحات ، ويلقون الخطاب ، ويقابلون المراسلين الأجانب للإدلاء ببعض الأخبار والأمال ! .

وقد يسافرون إلى الخارج ليشتموا إنجلترا في فرنسا أو فرنسا في إنجلترا . وقد يتنقلون في جنبات البلاد ليسمعوا الهاتف باسمهم ، أو لتنطلق المظاهرات الصاخبة في الشوارع صياغة بما تبغي من مطالب ... والجيوش المحتلة ترمق هذه المظاهرات وهي قريرة العين بما تسمع وترى .

وقد كان سعد زغلول والمدرسة التي تخرجت على يديه - وهي للأسف صاحبة الشأن الأول في مصر - مثلاً فريداً لهذا النحو المتهافت من الجهد الوطني الفاشل . إن الجهد الناجح يعتمد على الإيمان ، وهؤلاء أضعفوه بالإلحاد ، ويعتمد على التضحيّة وهؤلاء أفسدوه بالأثرة .

وطليعة المجاهدين هم الشباب ، وقد تسبقت أحزاب الساسة العجزة إلى تعليق هممهم بالوظائف والترقيات ، وفتح عيونهم على مفاتن النسوة فجرروا وراء الشهوات ! .. وهيهات أن تدرك أمة أمانها وهذه عدتها !

لذلك كان ظهور الإخوان المسلمين ، وامتداد دعوتهم بريق أمل في هذه الظلمات المتكاثفة ..

لقد حرّموا الهاتف للأشخاص أياً كانوا وجعلوا شعارهم الفريد : «الله أكبر الله أكبر والله الحمد» وهذا منطق سديد ، فالذين يرفضون العبودية للأجانب لا يحطمون قيودها ليلبسوها من جديد عبودية للكبراء في الداخل ، إنما تنشق الحناجر بتحية الله وحده . أما البشر كافة فليس لهم من ذلك نصيب !

ولقد آثروا الآخرة ونعيمها إذا كان غيرهم يؤثر الدنيا ومتاعها ، وهل يطلب الاستشهاد ويعشق الموت في سبيل الله إلا على هذا الأساس ؟؟

والآن يستشرى عدوان اللصوص الحمر ويقف جنودهم على أفواه السكك وبطون الأودية يستغلون بارتکاب حوادث السطو والنهب .

وينادي كل شيء في هذا الوادي بضرورة المقاومة ورد العدوان ..

بيد أن الساسة الذين مرنوا على اعتبار الجهد إلقاء خطب وسوق مظاهرات لا يزالون على طريقتهم الأولى من الكفاح وهم قعود وراء المكاتب !! .

الخطيئة .. حين يشتغل بالدعوة إلى الله

الخطيئة شاعر هجاء بسط لسانه بالأذى في أعراض المسلمين حتى عوقب بالسجن على بذاته . وولع الخطيئة بالشتم غريزة كامنة فيه تدفعه إلى التهجم الدائم ، كأنما به جوع إلى نهش الناس والتطاول على أقدارهم ، فإذا هاجت فيه هذه الطبيعة النابحة ، ولم يجد من يسبه غدا على امرأته يقول لها :

أطوف ما أطوف ثم أوى إلى بيت قعидته لـكاع !!
فإذا فرت امرأته من وجهه ، ولم يجد من يسبه عاد على نفسه فنظر إلى المرأة
ثم قال :

أرى لـي وجهاً قبح الله خلقـه فـقبح من وجهـه وـقبح صاحـبه !
وـعندـي أنـ أـصـحـابـ هـذـهـ الطـبـاعـ مـرـضـىـ ، وـرـبـماـ كـانـتـ طـيـنـتـهـمـ مـنـ النـوـعـ الـكـلـبـىـ الـذـىـ
إـنـ تـحـمـلـ عـلـيـهـ يـلـهـتـ أوـ تـرـكـهـ يـلـهـتـ !

وـالـنـاسـ أـنـوـاعـ ، فـيـهـمـ مـنـ يـحـمـلـ بـيـنـ جـنـبـيـهـ طـبـيـعـةـ الـحـمـلـ الـوـادـعـ ، أوـ الـشـلـبـ الـمـاـكـرـ .
أـوـ الـأـسـدـ الـهـائـجـ ، أوـ الـجـمـلـ الـمـنـقـادـ .

وـلـاـ حـيـلـةـ لـنـاـ فـىـ تـغـيـيرـ الطـبـائـعـ الـمـرـكـوزـةـ ، وـمـاـ نـحاـولـ شـيـئـاـ يـعـزـ عـلـىـ أـسـاطـيـنـ الـمـرـبـينـ ..
إـلـاـ أـنـنـاـ نـقـتـرـحـ أـنـ تـسـنـدـ الـأـعـمـالـ إـلـاـ أـصـحـابـهـاـ فـىـ هـذـهـ الـحـيـاـةـ عـلـىـ مـاـ يـلـائـمـ شـتـىـ
الـأـمـزـجـةـ ، فـلـاـ تـسـنـدـ شـئـونـ الـقـتـالـ إـلـاـ إـلـىـ الرـجـالـ الـأـسـوـدـ .

وـرـبـماـ صـحـ أـنـ يـعـمـلـ فـىـ مـيـدانـ السـيـاسـةـ رـجـالـ لـهـمـ خـتـلـ الـثـعـالـبـ .
أـمـاـ الـدـيـنـ فـأـحـقـ مـنـ يـشـتـغلـ بـهـ رـجـالـ لـهـمـ صـفـاءـ الـمـلـأـ الـأـعـلـىـ وـخـلوـصـهـمـ مـنـ
الـشـوـائبـ وـالـدـنـاـيـاـ .

وـالـدـاهـيـةـ الـدـهـيـاءـ أـنـ يـقـفـ فـىـ مـحـارـبـ الـدـيـنـ رـجـالـ مـنـ .. مـنـ شـكـلـ الـخـطـيـةـ ، وـأـنـ
يـتـكـلمـ بـلـسـانـهـ صـنـفـ مـنـ الـبـشـرـ إـذـاـ وـقـعـ الـإـنـسـانـ لـسـوءـ الـحـظـ بـيـنـهـمـ فـكـمـاـ يـقـعـ الـطـارـقـ
الـغـرـيـبـ أـمـامـ بـيـتـ لـاـ أـنـيـسـ فـيـهـ ، مـاـ أـنـ يـقـرـعـ الـبـابـ حـتـىـ يـقـضـمـ رـجـلـهـ كـلـبـ عـقـورـ .
رـأـيـتـ طـائـفـةـ مـنـ حـزـبـ الـخـطـيـةـ هـذـاـ يـزـعـمـونـ أـنـهـمـ دـعـاءـ إـلـىـ اللـهـ ..

﴿وَلَوْ نَشِاءُ لَأَرِينَا كُمْ فَلَعْرَفْتُمُ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرَفُنَّهُمْ فِي لُنِ القَوْلِ﴾^(١).

أولئك قوم يتمنون وقوع الخطأ من الناس ، حتى إذا زلت أقدامهم وثبوا على الخطأ ، وظاهر أمرهم الغضب لحدود الله ، أما باطنه فالتنفيس عن رغبات الوحش الكامن في دمائهم ، يريد أن ينبع المارة ويمزق أدיהם .

علامة هؤلاء أن يضخمو التوافه ويتجاوزوا بالخلافات ، ويتلمسوا للأبراء العيوب !

والخلافات عند ذوى الأمزجة المعتدلة والقلوب السليمة لا تشير حقداً .

يرى أبو حنيفة أن القراءة وراء الإمام حرام ، ويرى الشافعى أن القراءة وراءه واجبة . ومع أن الأمر يتعلق بأهم أركان الدين فما فسق أحدهما الآخر ولا أهاج عليه الدنيا .. لأن كلا الإمامين رجل نظيف الطبع عالى الإيمان .

أما حزب الحطىئة المشتغل بالدعوة إلى الله فله مسلك آخر .

كتبت مرة أقول : إن وجه المرأة ليس بعورة ، وما قلته ليس من عندي ، بل هو نقل عن جمهور الأئمة . فإذا الرد السريع يقذفني به صحافى متدين (!) كأنه رجع صدى . وفيه : ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾^(٢) .

فعرفت علة هذا الشتم ، وهزرت رأسى أسفًا لأن الذين يمثلون الإسلام فى مستوى سقيق دون ما يزعمون .

إنها طبيعة الحطىئة هاجت أصحابها للعن والطعن . وما كان محمد ﷺ لعانا ولا طعانا ، ولا فاحشا ، ولا بذينا .

وقرأت مرة عنواناً عن «الشيخ المسعور» وطالعت ما تحته ، فإذا هو هجاء مقدع للشيخ «على الغاياتى» المجاهد المسلم الطيب ، وتحت صورة الكاتب من خلال سطوره النابحة وكأنما أقعى على ذنبه ، ودلع لسانه ، وتهياً للعرض ، إنه - للأسف - يشتم الرجل باسم الدين . والويل للمسلمين .. يوم يشتغل الحطىئة بالدعوة إلى الله .

وقرأت فى إحدى المجالس الدينية (!) بحثاً فى جواز الصلاة على الأرض الفضاء ، جاءت فيه هذه العبارات النابية نقلها بنصها :

(٢) الحج : الآية ٤٦ .

(١) محمد : الآية ٣٠ .

«من التنطع الممقوت لله ورسوله أن يخلع الزارع ثوبه ويفرشه على الأرض ليصلى - والأرض أظهر بالشمس والهواء من ثوبه ، وكذلك من التنطع الممقوت أن ترى أمامك فراشاً نظيفاً فتتبرج من الصلاة عليه لأنه في نظرك الأعمى (!) ورأيك الجاهل (!) يداس بالنعال ، فتراه متنجساً . ولن يستنجس النجاسة في هذا الفراش ، إنما النجاسة والقذارة في رأسك الجاهل (!) الذي سكن فيه شيطان الجهل بهدى الرسول (!) هذه الأفكار السخيفة المضادة لصريح السنة . . .».

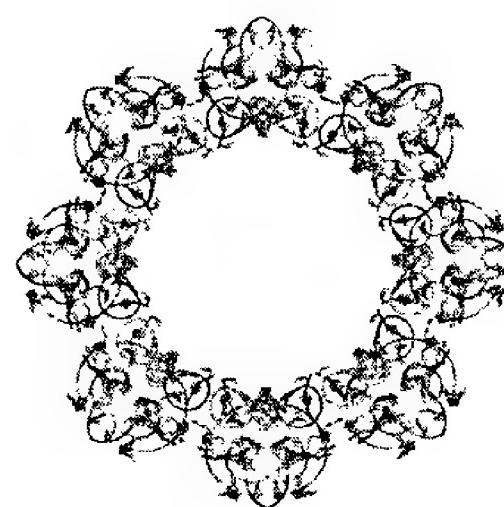
قلت : ما ذنب القارئ المسكين حتى توجه له هذه الحشود المترادفة من ألفاظ الشتم والتجریح ؟ وما النتيجة المحتومة من سوق الآراء العلمية بهذا الأسلوب النابي ؟ إن كان القارئ مؤيداً لهذا الرأي فما أغنوه عن هذا الخطاب ، وإن كان معارضاً له فهل هذا طريق إقناعه ؟

ألا يستحق المسلم المعارض أن يعامل بالحسنى ، كما استحق ذلك أهل الكتاب من اليهود والنصارى في قوله تعالى :

﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (٢).

أهذه طبيعة الدعوة إلى الله ؟ أم هي طبيعة الخطيئة في السباب والتهجم طفت - للأسف - على لسان ذلك الداعية المحرف .

والغريب أن أصحاب هذه الأساليب رؤساء لجماعات دينية تحاول لنصرة الإسلام . وترى لتمسك بيديها مفاتيح الجنة والنار .



(٢) العنكبوت : الآية ٤٦ .

درس لزعماً

قرأت هذا النبأ ثم تساءلت : ترى ماذا كان شعور زعمائنا ومتزعمينا حين مرت عيونهم به وهم يطالعون الأنباء الخارجية في الصحف الكبرى ؟؟ أما النبأ المثير حقاً فهو أن المندوب السوفيتي طلب أن يعقد مجلس الأمن يوم الجمعة المقدسة لينظر فيما لديه من أعمال عاجلة ، غير أن المندوب البرازيلي رفض هذا الطلب ، واعتراض عليه قائلاً : «لن تسمح لي عقيدتي الدينية التي اعتنقها وتعتنقها بلادي بالاشراك في أي اجتماع يعقده المجلس في يوم الجمعة الحزينة» .

وعند ذلك سارع مندوبي الولايات المتحدة وبريطانيا وهولندا إلى القول بأنهم لا يستطيعون حضور اجتماع يعقد في ذلك اليوم !!

ونحن لا نستغرب من رؤساء الأمم المسيحية أن يحترموا ذكرياتهم الدينية ، وأن يهتموا بها ، وإنما الذي نضع عليه أصابع الرؤساء السياسيين عندنا ، ونحب أن يلتفتوا إليه جيداً ، هو موقفهم الواهى المريب بإزاء المناسبات الإسلامية ، وضيق إحساسهم بها ! . إننا إذ نسمع للزعماء العالميين خطباً تشبه أن تكون تبشيرية ، لا نسمع لزعماً حرفاً في وجهة النظر الإسلامية الواضحة .

وحين نرى السياسيين الأجانب لا يستحيون من تمجيد مقدساتهم الدينية ، نرى زعماءنا «علمانيين» يكاد موقفهم من الدين الذى ينت�ون إليه يكون بعينه موقفهم من الأديان التى لا ينتمون إليها .

وهذه فلسفة فى التوجيه العملى للأمم من أقبح الفلسفات .

إن الزعيم السياسى الذى يخلع ثوب تدينه ليوهم الناس أنه شخصية متحضرة معتدلة ، ليس فى الحقيقة الرجل الجدير بالكرامة الوطنية ، ولا التقدير العام .

وزعماً الذين من هذا النوع يجب أن يطردوا من ميادين العمل العظيم ، لأنهم لن يظفروا فيها بأى نجاح ! .

أما الزعيم الذى لا يفارق تدينه ، والذى لا يملى عليه الانسحاب أو الاحتجاج عندما يرى مساساً بدينه ، فذلك هو الرجل الذى نحترمه والذى نشعر بفرط الحاجة الماسة إليه .

التعاون...

المواهب الإنسانية النفيسة مختلفة ومتكاثرة ، وقلما تجتمع في رجل واحد ، بل إنها توجد موزعة بين الفئات الكثيرة من الناس ، فإذا تكونت إحدى الجماعات ، وأحسن أعضاؤها التعاون فيما بينهم ، كان كل منهم مكملاً لنقص الآخر ، وكانت كل موهبة سبباً لأنختها المغایرة لها ، فكانت الجماعة منتجة موفقة !

أما إذا استغنى المرء عن غيره ، وغالب بموهبه المحدودة ، واعتذر عن نقصه ، واستهان بموهاب غيره وتجهم لها فلن يصل ولن تصل معه الجماعة إلى مستوىً عالٍ من النجاح المنشود ! ولنا أن نذكر قصة الأعمى والمقدم التي قرأتناها صغاراً ونسينا تطبيقها كباراً ، المقدم رجل قوي البصر ، ولكن أني له الأقدام التي يمشي بها ؟ والأعمى رجل قوي الأقدام ، ولكن أني له البصر الذي يهتدي به ؟ فإذا حمل هذا ذاك انتفع كلاهما من الآخر وتعاونا على السير في طريق الحياة ! .

ومواهب الناس العقلية والنفسية تشبه كل الشبه هذه القصة الساذجة ، فمن الناس من له بصر بالأمور غير أنه يفقد قوة السعي إليها ، ومن الناس من له دأب على العمل غير أنه بحاجة إلى حسن التوجيه !

وتحتفل المواهب وتحتفل أنصبة الناس منها ، والتعاون وحده هو سبيل الخير الذي تلتقي فيه الجهود المبذولة ، وتنظر منه الشمرات المأمولة ، ولا سبيل سواه .

وسبب الفشل الذي تمنى به أحزابنا وجماعاتنا هو الذهول عن هذه الحقيقة القريبة ! هو تقدير الأعمى لقوة قدميه ، وذهوله عن ضعف بصره ، واحتقاره لأ بصار البصريين !! وتقدير الكسيح لقوة عينيه ، وذهوله عن ضعف قدميه ، واحتقاره لأقدام الآخرين !! .

الشاعر يظن النهضة خيالاً فقط ، والخطيب يظنها حماسة فقط ، والعالم يظنها بحثاً فقط ، والاقتصادي يظنها مالاً فقط ، والواعظ يظنها صلاة فقط .

ومصر بشرًّا من عدم تعاون أبنائها ، وتساند ملوكاتهم في خدمتها . فمتى تذوب هذه الأنانية لتحول محلها العقلية التعاونية المرنة ؟ !

من طبائع النفوس

هناك رجال يؤثرون الهرمية المنطقية الصريحة على النصر الملتوي اللئيم ! ويوجهون سياساتهم في الحياة على هذه القاعدة الالازمة الدائمة ! لا ترى أزمات الدنيا منهم ، إلا شخصية لها مبدأ واحد ، وعقلية لها تفكير واحد ، ولتكن النتائج بعد ذلك ما تكون ! وهم قد يستطيعون تحقيق أغراضهم لو غيروا قليلاً من اتجاه نفوسهم ، واتجاه عقولهم ، أو قد يستطيعون لو تغيروا قليلاً أن يفوتوا على خصومهم أهم أغراضهم ، ومع ذلك يرفضون ، فإذا نصر يجيء وفق مبادئهم النفسية واستقامتهم العقلية وأسلحتهم المرضية أو .. لا نصر !

فلا قيمة له إن جاء من غير هذه الطريق ..

وفي طبيعة هؤلاء الرجال على بن أبي طالب كرم الله وجهه ، فقد كان منطقياً مع نفسه على هذا النحو الدقيق ، يسعى إلى النصر من سبيل الشرف والصراحة ولو أدركه الجهد وغامت النتائج ! ويكره هذا النصر من كل السبل الأخرى ، بل يرفضه وهو في متناول يده ! .

وتفصيل سيرته معروف ، ونسوق على سبيل المثال منها موقفه عندما سبقه جند الشام إلى الاستيلاء على الماء ، وكان يستطيع تدوينهم عطشاً بعد أن استولى عليها منهم ، ولكنه أبى ذلك وتركهم يستقون !!

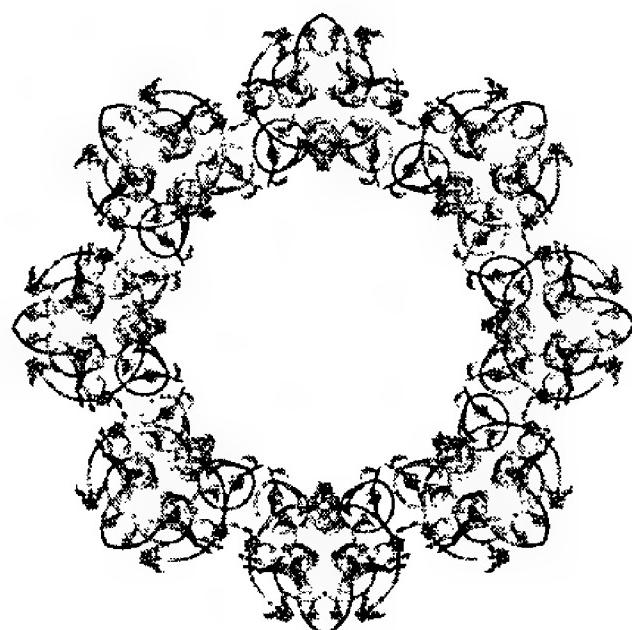
وكان أعداؤه يعلمون أن طبيعته تأبى عليه حرمانهم من الماء وإن سبقوه هم بالحرمان ، ذلك أن علياً يكره النصر بهذا الثمن ويحتقر الحرب بهذا السلاح ، فإن طبيعة الفرسان ذوى التقاليد الكريمة ، أن يبرز الواحد منهم لصاحبها في الساحة العادلة ، فإذا زلت قدمه لم يسارع إلى الإجهاز عليه بطعنة غادرة ، بل أعاشه على الوقوف لينتصر عليه في مبارزة شريفة ، أو هي في زماننا طبيعة الرجال الرياضيين ، لا يسجل لأحد هم الفوز في مباراة ما ، إلا إذا خضعت لقوانين اللعب ، واطمأن إليهم ضمير الحكم ، ومن ثم رفض «على» النصر القريب حول موقع المياه ، لأن عناصر الغلب الشريف لم تتوفر في هذه المبارزة ، أو لأن قوانين النزال لم تراع في هذه المباراة ، وإذا كان خصومه قد انتهكوها فإن ذلك لا يبيح له انتهاكها ! .

ومن هؤلاء الرجال أنس بن النضر فقد أقبل - وهو واحد - على المشركين - وهم جيش - مع أن النتيجة محققة ، لأن الأمر عنده ليس أمر هزيمة أو نصر ، ولكنه أمر رجل قطع على نفسه عهداً فاستقام مع منطق نفسه الموقنة وحدها !! غير مكترث لمنطق الحياة وسياسة النجاة - ولو إلى حين .

ومن هؤلاء في الجاهلية «كليب» سيد بنى تغلب ، قيل له : الرمح وراءك ، فأبى أن يلتفت إليه حتى قتل به ! لأن كليباً لا يرى بأساً من أن يهزم في معركة يكون قتله فيها غيلة ، ولا يرى لعدوه شرفاً في إدراك هذا النصر .

وتلك نفوس تؤثر الهزيمة الشريفة ، كما قلنا ، على النصر الخسيس !

على أنه تبقى بعد ذلك أسئلة شتى عن مدى نفع هؤلاء الرجال لأئمهم ، وعن قيمة النجاح الذي تحظى به سياستهم في عالم مليء بالانتهازيين والانتفاعيين ?? ومع رجال يدينون بأن الغاية تبرر الوسيلة ?? وفي تاريخ يضم أصحاب المبادئ الجامدين عليها بالحمق ، والعقم ، وضعف النظر ، وضيق الأفق ?? ومهما كثرت هذه الأسئلة المتفهمة تارة والمتهمة تارة أخرى ، فإن أمثال هؤلاء الرجال مدار لقوى الخير الذي لا بد منه على ظهر الأرض ، ومظهر للإنسانية المتعالية بفضلها ونبتها على الأعراض والمغريات ! .



زهـد .. وـزهـد

هناك أنواع من متع الحياة ومباهج العيش يرى الكثيرون أن الزهد فيها والتنزه عنها ضرب من قوة الإيمان وسمو الروح ، ويحسبون مجاهدة النفس حين تتطلع إليها أمراً يستلزمها الدين ويتطله اليقين ! وهذا وهم يجافي الصواب في أكثر الأحيان ، ولا يجوز أن يكون عقبة أمام الشباب الذين يرغبون في الاستمساك بدينهم والانضواء تحت تعاليمه ، فأكثر أنواع الزهد المعروفة لا صلة لها بالدين أولاً ، ولا دلالة فيها على الفضل والكمال ثانياً ، وما تعقبه من انتكاسات نفسية عميقه كثيرةً ما يضر بالدين والخلق ، ولذلك يحذر العقلاء آثارها الوخيمة .

واخش الدسائس من جوع ومن شبع فرب مخصوصة شر من التخمة
ما قيمة الزهد المادى في الأشياء ؟ إن بطن الإنسان شبر ولو امتلاء إلى حد التخمة
ما كلف الحياة شيئاً طائلاً ، والقيمة المادية للزهد المادى في هذه الحالة تساوى بضعة
مليمات أو بضعة قروش ، والشهوة الجنسية العاتية كم يتتكلف المجتمع الإنساني
لإطفائها ؟ أيتكلف تقديم امرأة أو أكثر للرجل ؟ يجب أن يتم ذلك إذن في صمت ،
ولا يعطى فوق قدره من الأهمية ومن ثم ساق القرآن الحكيم هذه المسألة في عرض
الكلام عن مسألة أخرى أخذت صدر الحديث ، وملكت ناصية السياق ، واعتبرت
أصل الموضوع واعتبر الكلام في أمر المرأة تابعاً لها .

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوهُا مَا طَابَ لَكُمْ مِّنَ النِّسَاءِ مُثْنَىٰ وَثُلَاثَةٍ وَرُبَاعٌ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾ (١) .

إن أزمات العالم الكبرى ، نفسية ، واجتماعية ، وسياسية ، لم تنشأ ولن تنشأ إلا
من الأثرة المفرطة ، والتحاسد الباغي ، والكبرياء المستبدة ، وشهوات الظلم والرياء
والاستعلاء ، ومجاهدة هذه النوازع الخبيثة هي الزهد الحقيقي الذي تصلح به الأرض !

(١) النساء : الآية ٣ .

ولن تزيد الأرض شيئاً إذا زهد بعض بنائها أو أبناؤها جميعاً في الاستمتاع بنباتها وحيوانها وخيراتها المختلفة ، ولهذا يستنكر القرآن مظاهر الزهد المادى التافهة ولا يحترم بواعثها ، ويرشد إلى ما يجب أن يزهد البشر فيه حقاً .

﴿ قُلْ مَنْ حَرَمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيَّابَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * قُلْ إِنَّمَا حَرَمَ رَبِّ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمُ وَالْبَغْيُ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٢) .

وهل قدمت البشرية ضحاياها الهائلة في الحروب المتعاقبة إلا إشباعاً لنزوات الغرور والسلط عند بعض الزعماء أو بعض القادة ، وهل يفقد العالم الآن توازنه السياسي وعدالته الاجتماعية إلا لما يسميه القرآن «البغى بغير الحق» وهو أصدق تسمية للنيات الاستعمارية الكامنة في محيط السياسة الدولية ، وللمظاهر الاستبدادية الباقة بين أمم الشرق ! .

ليست حظوظ النفس المادية موضوع جدل طويل في الدين ، وفي حدود الحلال الطيب سعة يمرح المرء فيها ولا تصادر رغائبه ، ودعك من وساوس المتصوفين وكهانة المتزهدin .. والشيء الذي ينبغي أن نجاهد أنفسنا عليه ، وأن نعلمها الزهد فيه : الفحش ، واللؤم ، والتعدى ، والتحدي ، وحب الظهور ، وعمى الغرور ، فمن هنا تنكب المجتمعات وتضل السياسات ! .

● إيضاح وتعليق:

يبدو أن هذا الرأي خالف ما وقر في الأذهان عن حقيقة الزهد ! وقد جاءتنا ثلاثة رسائل تناقش الفكر من ناحية الشكل والموضوع ! نسجل ما ورد بها من اعترافات ، ونقرنها بما لدينا من إجابات .

قال الأستاذ «محمد طلبه السعداوي» : «وددت أن يسمح سيدي الأستاذ بأن أذكره أننا في هذا البلد الذي اختلت فيه المماضي ، واضطربت الأوضاع وانتفى التجانس ، وكثير فيه الشاكون من التخمة والشاكون من الخمسة ، والذين ينامون على الديباج ، والذين يتوصدون الوحل ، والذين يقتنون الذهب والفضة والخيل المسومة والسيارات

(٢) الأعراف : الآية ٣٢ ، ٣٣ .

الفخمة ، والذين يجرؤون أقدامهم جرأً في سبيل لقمة العيش القفار ، والذين يقضون لياليهم الحمر على الكاس والطاس ، وبين الأذرع البضة والصدور الناعمة ، والذين يقضون لياليهم على التأوهات والتوجعات والشكایات ، بعد نهار طال انحناوهم فيه على الفؤوس واستنزفوا فيه دماءهم وعافيتهم عرقاً شربته الأرض فأخرجته ذهباً نصاراً يملأ جيوب المترفين الناعمين .

في هذا البلد المنكوب يا سيدى لا بد لنا من الصراخ ، الصراخ القوى الذى يحرق الآذان والقلوب بضرورة الزهد المادى ، فنحن أحوج إليه من كل شيء آخر ، واسمح لي أن أسألك يا سيدى : هل صحيح أن هذه البارات والكمباريهات ، والسينمات ، والسيارات ، والطيارات والسباحات ، والبلاغات ومكيفات الهواء ، وما ينحر كل يوم في بيوت السادة الأغنياء ، وغير هذا من كل متع الجسم والعاطفة .. هل كل هذا لا يكلف سوى بضعة مليمات أو قروش ؟!

وهل صحيح أن المجتمع لا يتكلف لإطفاء الشهوة العاتية سوى تقديم امرأة أو أكثر ؟! أو أن ذلك يكلف المجتمع الزوال والهدم والضياع ، إذا لم يتحصن البشر بالزهد والقناعة ، وتعاليم الله وهدى رسوله الكريم . وهل غاب عن المجتمع الفرنسي الذى هدمته الإباحية وإشباع النفس والبطن والعاطفة والشهوة ؟ ثم ألا ترى يا سيدى أنك لا تستطيع أن تزهد الناس فى «شهوات الظلم والكرياء المستبدة والأثرة المفرطة والاستعلاء والرياء والقسوة» إلا إذا ناديت باستئصال الداء من الجذور ، فعلمت الناس ، ودعوتهم إلى الزهد فى إشباع النفس والبطن ، وما يجره هذان من موبقات ، فإذا استطاع الزهد النفسي والجسمى أن يتغلغل فى الصدور والأجسام ، هون علينا ذلك مئونة ما فوقهما من آثام وشرور .

ألا ترى معى يا سيدى أنه حرام أن يتمتع بزينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق فريق ، وفريق يأكل الشرى من الضمأ والجوع والحرمان .

وإنه لخير لنا أن نجتذب الشباب بذلك النور الذى يشع فى صدور المؤمنين ، وبتلك الراحة والسكينة التى تفيض قلوب عباد الله الخالصين ، وبالمتعة الخالصة واللذة العميقية السامية التى تغمر أرواح الموحدين العاملين . خير لنا هذا من أن نغريهم بالتسامح فى انتهاك طيبات الرزق ، والكثرة من إخواننا يتعدبون ويأملون» .

* * *

كان هذا التعليق مفاجأة لي لم تقع في حسباني إلا أنني سرت بها، واتسع لها صدرى بقدر ما اتسع لها فكري ، وأبادر القول مطمئناً الأخ الأدب بأنه يكاد لا يوجد خلاف بيننا ، فإن ما يهدف إليه في كلمته لا ينافق ما أدعوه إليه ، ذلك أنه لا علاقة بين الاستهانة بالزهد المادى وبين إقرار العدالة الاجتماعية الراجحة هناك - كما يقول الأخ - الشاكون من التخمة والشاكون من المخصبة . والعدالة الاجتماعية ليست في تجويح الفريقين ، ولكن تسايق إليهما خيرات الأرض على سواء ، فإذا أمكن الجميع أن يأكلوا من خيرها وطيرها وفاكهتها ، فذاك أفضل من فوتها وعادسها وبصلها .

وهناك - كما يقول الأخ العزيز - الذين يركبون السيارات الفخمة ، والذين يجررون أقدامهم من الإعياء جراً ، والذى أحبه أن يستطيع الجميع التركوب ، فليس للتدين ولا للعدل الاجتماعي أن يفرض المشى على الجميع !

وهذه الأرض التي نعيش عليها لم تصح إلا من التظالم الاجتماعي القائم على البغى والعدوان والجور والحرمان . وتلك خصال لا يختلف اثنان في استئثارها ومحاربتها ، وقد أردت بكلمتي أن أبين سبيل التدين الصحيح ، إذ إن أكثر الذين ينتمون إلى الدين ، ويحبون الإكثار من العبادة والزلفى إلى الله ، يحسبون أن التقشف والحرمان ، ورثاثة الهيئة ، وسوء المنظر في الأهل والمال ، والعيش على هامش الدنيا ، هو طريق الوصول وأس التقوى ، وبهملون القضايا الإنسانية الكبرى ، والسعى لإقرار العدل الاجتماعي والسياسي ، والجهاد المضنى لإدراك ذلك وتحقيقه ، وهذا الاضطراب العقلى أنكره القرآن :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَاماً وَحَلَالاً قُلْ آتَ اللَّهُ أَذْنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفَرَّوْنَ ﴾ (٣) .

ومن ثم استهنت بالزهد المادى ، فالزهد في رغيف لا يساوى إلا مليمات ، والزهد في متاع ما قد يساوى ثمناً ما قليلاً أو كثيراً ، ولكنه لن يكون خطيراً .

أما الزهد في حب الظهور ، والميل إلى التمازج والافتئات على الغير ، والزهد في سوء القول والعمل وغير ذلك ، فهذا شيء لا يقدر بثمن ، ولا تحتاج الإنسانية إلا إليه ، ولن تصح تربة الأرض الخصبة ، ولا أنهارها العذبة بكثرة الأكلين والشاربين .

(٣) يونس : الآية ٥٩ .

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التُّورَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِّنْ رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾^(٤).

وأخيراً فلا صلة بين ما قلته وبين البارات والكتابيات وسائل المتع الحرام التي أقامها الشيطان لإغواء الناس ، فإنما أعني المتع الحلال وحدها . وفيها سعة لمرح الغرائز الإنسانية التي لا تكره التقيد بفضائل الدين وتقاليد الشرف والخلق . وليراجع الأخ الكريم مرة أخرى ما كتب ليعرف حقيقة ما قصدت .

* * *

وكتب الأستاذ «محمد رشاد رفيق» يقول :

إنك تهون من قيمة الزهد المادي وتقول : «إن الزهد في رغيف لا يساوي إلا مليمات ، والزهد في متاع ما قد يساوى ثمناً ما ، قليلاً أو كثيراً ، ولكنه لن يكون خطيراً». ربما كان الزهد المادي أقل قيمة من الزهد النفسي ، ولكن ألا ترى أن ذلك الزهد المادي يروض النفس ويعودها على الزهد المعنوی ، وأن الشخص الذي يقبل على المتاع الدنيوي لا يمكن أن يكون في يوم ما زاهداً زهداً نفسياً ؟

ومن جهة أخرى ألا تخطر أن الزهد النفسي ، إذا تمكن من المسلم فجعله يحتقر اللذات العاجلة ، ويتعلق بما وعده الله من نعيم في الجنة ، سرعان ما يؤدي به إلى أن يصبح زاهداً في الماديات ؟

لقد كان الرسول عليه الصلاة والسلام مثلاً أعلى للزهد المادي ، وكذلك كان الصحابة رضوان الله عليهم ، فقد كانوا يزهدون في الماديات البسيطة رغم ضآلة ثمنها وقلة خطرها ، لأن ذلك الزهد المادي يচقل نفوسهم ، ويقوم شخصيتهم ، و يجعلهم أقدر على تحمل أعباء الجهاد في سبيل القضايا الاجتماعية والإنسانية الكبرى التي أتيت على ذكرها .

ليس الزهد المادي مضراً في حد ذاته ، وإنما الضرار أن يجعله غاية ولا يجعله وسيلة ، إذ يصبح الزهد في هذه الحالة عنواناً لللائس ، وذلك ما كنا نراه في العصور التي ضعف فيها الإسلام وخرج الناس فيها على تعاليمه .. كنا نجد طائفة من الناس يستنكرون الشر ويكرهونه ولكنهم كانوا أضعف من أن يقاوموه ويحاربوه لخور نفوسهم وقلة

(٤) المائدة : الآية ٦٦ .

عزمتهم ، فكانوا يلتجأون إلى اعتزال الدنيا والناس معتقدين أنهم بذلك تخلصوا من المسئولية الكبيرة التي فرضها الله على كل مسلم من أمر بالمعروف ، ونهى عن المنكر ، وجهاد لإعلاء كلمة الله ونصر دينه .

والزهد المادي على حقيقته لا يتنافى مطلقاً مع السعي وراء الرزق ، بل هو يقضى بضرورة ذلك ، فالزهد كما بينه الرسول عليه الصلاة والسلام هو أن نزهد بعد أن نمتلك ويصبح لدينا المال الحلال والرزق الطيب . أما أن نزهد وأيدينا خواء لا شيء فيها فهذا هو التظاهر الكاذب بالزهد .

ال المسلم الحق في نظرى هو الذى يسعى أصدق السعى كى يحقق لنفسه أرقى معيشة ، ويظفر بما يستطيع الحصول عليه منطيبات ، حتى إذا أكل أو شرب أو لبس فعل ذلك لحفظ ذاته فقط ، وحتى إذا ما أتى النساء فعل ذلك لحفظ نوعه وتحقيق سنة الله ، ولم يفعل هذا أو ذاك للظفر بمتعة فانية ولذة عاجلة ، إذ المتعة والله إغا هما المتعة الروحية والله المعنوية .

ليس عجياً أن يشير ما كتبته عن الزهد المادي جواً من التساؤل والاعتراض ، فإن الإخوان ينتمون إلى دعوة تأخذ بناتها بالتربيـة النفـسـية ، واهتمام الإخوان بمناقشة الرأـي الذي قررـته يـدلـ علىـ أنـ الـأـمـرـ مـسـ منـ حـيـاتـهـ العـقـلـيـةـ جـانـبـاـ حـسـاسـاـ يـقـظـاـ ،ـ وـهـذـاـ لاـ رـيـبـ مـدـعـاةـ لـلـسـرـورـ وـالـأـرـتـيـاحـ ،ـ وـإـتـاحـةـ لـلـمـزـيدـ مـنـ الشـرـحـ وـالـإـيـضـاحـ .

ونعود إلى موضوعنا مرة أخرى فنقول : إن الزهد المادي قد يكون عن عدم الرغبة في الشيء ، وقد يكون عن كبت الرغبة في الشيء ، والنوع الأول : لا موضع فيه بجهاد النفس ولا لكثرة الثواب ، فالمعمود الذي يكره الطعام لأنه لا يستطيع الهضم ، والمحصور الذي يبتعد عن النساء لأنه لا يحفل بمتاعهن . هؤلاء جميعاً إذا اصطبغت حياتهم بمظاهر التقشف والتتصوف فلا دلالة في ذلك على خير كثير ! وأولى بأمثال هؤلاء أن يقبلوا على الفضائل الإيجابية وهي - بعد الزهد في الشهوات المعنوية - أساس الرقى الحق والتسامي الكبير ، وعليها تنہض المجتمعات وترشد وتسعد .

أما النوع الثاني من الزهد - الزهد عن قتل للرغبة وكبح لحماتها - : فهو موضع تفصيل لا يبعد في نتائجه كثيراً عن النوع الأول ، وذلك أن الكبت الدائم للرغبات

الكامنة في دم الإنسان نحو متاع الحياة الدنيا يعتبر رهانية قاسية لم يقل بها الإسلام ، ولم يدفع إليها أبناءه ، ولم ير فيها معانى السمو المزعومة ولا حقائق الفضل المنشود .

وقد أثبتت بحوث علم النفس أن هذا الضرب من الكبت العنيف يعقبه انتكاس مظلم مخيف ! فإذا تسررت الغرائز المحبوبة من وراء السدود القائمة وأنخذت طرقاً خفية مجرمة ، وإنما تحطم السدود بما وراءها من ضغط واندفع التيار شعاعاً بلا ضابط ولا قانون . فالزهد المادي هنا حماقة وشروع ، وإلى هذا وأشار البوصيري :

واخشَ الدسائس من جوع ومن شبع فرب مخصصة شر من التخْم !

غير أن هناك كبتاً مؤقتاً يلجأ إليه الرجل حتماً في أحوال كثيرة من حياته ، يلجأ إليه المؤمن حين يعصم نفسه عن الحرام إذا نزعه إليه ، ويلجأ إليه المحتاج حين تتطلع النفس إلى الشيء فيردها العجز والحرمان !

أما الزهد في الحرام فهو من معاقد الإيمان يقيناً ، وأما العجز عن الحلال فقد يفرضه القدر الذي فرض على الناس الشدائـد والمصائب ، و موقفنا من هذا النوع من الكبت هو موقفنا من المصائب الطارئة ، نصبر عليها إذا بلينا بها ، ولا نشتاق إليها إذا بعـدـتـ عـنـاـ . والزهد المادي هنا تشريع مؤقت لحال مؤقتة . وهناك زهد مادي يأتي تبعاً لحالات الاستغراق التي تملـكـ علىـ الإـنـسـانـ مشـاعـرهـ ، وتصـرفـ أـفـكـارـهـ إـلـىـ جـهـةـ وـاحـدةـ وـفـيـ غـاـيـةـ وـاحـدـةـ !

فالشخص الخزين يصاب بشيء من الزهد القائم الذي يبعده عن كثير من الحلال والطيبات ، ويعنيه بالقليل من الضرورات ، والمرتبط بعمل كبير أو الم قبل على امتحان خطير يشعر بنوع من الاكتفاء ، وعزوف على المرح والتـوـسـعـ . وقد يضمـمـ المرءـ علىـ بـلوـغـ هـدـفـ ماـ فـلاـ يـرـحـ صـحـتـهـ وـلـاـ يـبـالـىـ أـكـانـ طـرـيقـهـ إـلـىـ هـدـفـهـ مـفـروـشـاـ بـالـوـرـدـ أوـ مـفـروـشـاـ بـالـأـشـواـكـ !

وهذه الحالات العارضة تتصل بكيان الإنسان المعنوي أكثر مما تتصل بكيانه المادي ، وقد تأثر الجسم فيها بالروح - لا العكس - وهي نتيجة للزهد الأدبي الذي فصلنا حقيقته آنفاً ، ونحن نتفق مع الأخ «محمد رشاد» في هذا الرأي ، أما الدخول مع الجسم في معركة مباشرة ، فمن المحقق أن مثل هذه المعركة كثيرة التكاليف قليلة الأرباح ، وبخاصة إذا قصد هذا الزهد لذاته ، أو فهم أنه من جوهر الدين ولبابه ، وهذا خطأ .

لقد رأى الرسول ﷺ رجلاً منتصباً في الشمس فقال : «إِنَّ اللَّهَ عَنْ تَعْذِيبِ هَذَا نَفْسَهُ لَغَنِيٌّ» ولكن الدين الذي حرم على الرجل وقوفه في الشمس على هذا النحو أوجب على هذا الرجل وعلى غيره أن ينفروا في الشمس المحرقة ، وأن يجاهدوا في سبيل الله في وقدة الحر ، وهدد المتخلفين عن هذا الواجب :

﴿ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ (٥) .

وفي هذه المبادئ قطع لدابر التصوف الأحمق ، وبيان لطريق الجهد المعقول ! وكذلك بيّنت السنة أن الدين ليس تحريم الحلال ، ولا إضاعة المال ، ولا احتقار الجمال ، ولا رقة الحال ، ولا انكسار البال !

وسيرة الرسول ﷺ وأصحابه لا تعدو أن تكون تطبيقاً عملياً للمبادئ التي رسمها القرآن ، وليتتأكد الإخوان أن تكاليف الزهد الأدبي أشق وأدق من تكاليف الزهد المادي ، وما هان المسلمون إلا يوم أن كان الواحد منهم ينظر إلى تفاحة فيقول لها - كما تذكر كتب التصوف - : موعدك الجنة !!

ولو أن الأحمق أكلها وأكل غيرها وغيرها ثم مات شبعان في الميدان بدلاً من أن يموت جوعان في البيت ، لكن ذلك أجدى عليه وعلى الإسلام وعلى المسلمين .

وكتب الأستاذ «عبد الفتاح شهاب» يقول : «فسرت الزهد بأوسع معانيه فوسع الزهد شـيـ الـراـحةـ ، بل فيـ الـحـيـاةـ بـأـسـرـهـ إـيـشـارـاـ للـجـهـادـ وـاعـلـاءـ كـلـمـةـ اللـهـ ، غـيرـ أـنـهـ أـلـمـنـىـ أـنـ تـقـضـ مـضـاجـعـ السـلـفـ الصـالـحـ إـذـ تـقـولـ : (ولـوـ أـنـ أـلـحـمـقـ أـكـلـهـاـ وـأـكـلـ غـيرـهـاـ وـغـيرـهـاـ ثـمـ مـاتـ شـبـعـانـ فـيـ الـمـيـدـانـ بـدـلـاـ مـنـ أـنـ يـمـوتـ جـوـعـانـ فـيـ الـبـيـتـ لـكـانـ ذـلـكـ أـجـدـىـ عـلـيـهـ) .

أـلـستـ مـعـيـ فـيـ أـنـ الرـسـوـلـ صـلـوـاتـ اللـهـ عـلـيـهـ يـقـولـ : (ازـهـدـ فـيـ أـيـدـىـ النـاسـ يـحـبـ بـنـاسـ) فـأـيـ لـوـمـ تـوـجـهـ إـلـىـ هـذـاـ التـقـىـ الـورـعـ الذـىـ لـوـ أـحـسـنـ الـظـنـ بـهـ لـقـلـنـاـ أـنـ أـرـادـ بـكـلـمـتـهـ أـنـ يـحـبـ الـمـرـيـدـيـنـ فـيـمـاـ هـوـ أـعـزـ وـأـغـلـىـ (الـجـنـةـ وـثـمـارـهـ) فـيـسـعـواـلـهـاـ وـلـاـ تـلـهـيـهـمـ عـنـهـاـ أـطـيـبـ الدـنـيـاـ وـفـاكـهـتـهـاـ .

وـدـعـنـاـ مـنـ حـسـنـ الـظـنـ فـقـدـ نـقـولـ : حـسـنـ الـظـنـ وـرـطـةـ ، وـلـنـسـىـ الـظـنـ بـهـ فـنـقـولـ : أـوـ لـيـسـ هـوـ فـرـداـ تـاقـتـ نـفـسـهـ إـلـىـ تـفـاحـةـ لـيـسـ فـيـ اـسـتـطـاعـتـهـ شـرـأـهــ - وـتـعـلـمـ مـعـيـ أـنـ

(٥) التوبة : الآية ٨١ .

أحب شيء إلى الإنسان ما منع - ولكن الرجل كبت رغبته ومني نفسه بنعيم مقيم ، ألم يكن هذا هو النوع الثاني من الزهد الذي تقول فضيلتك فيه : هو قتل للرغبة وكبح لمحاجها ، ومنه الكبت المؤقت الذي يلتجأ إليه الرجل حتماً في أحوال كثيرة ، يلتجأ إليه المؤمن حين يعصم نفسه من الحرام إذا نزعت إليه ، وكذلك يلتجأ إليه المحتاج حين تتطلع النفس إلى الشيء فيردها إلى العجز والحرمان» .

● كلمة أخيرة:

أقول : يروى أن الحسن البصري أهدىت إليه حلوي فاخرة ، فقسمها على أهل مجلسه ، وأنحد كل جليس نصيبه إلا أحد المتصوفين الحاضرين فقد رفض الحلوي قائلاً : هذه نعمة جزيلة لا أستطيع القيام بشكرها . فقال له الحسن : كل يا أحمق ففي الماء البارد نعمة لا تستطيع القيام بشكرها !! .

وصاحب التفاحة الذي ذكرنا خبره في الخواطر السابقة هو زميل صاحب الحلوي في مجلس الحسن ، وكلاهما مسلم يقبل منه الخير ويرد عليه الخطأ ، ولا يحتاج له بأنه من السلف الصالحين .

والإسلام قد حرم الخبائث وأحل الطيبات ، وليس من الرأي أن نضيق ما وسع الله على عباده ، ولكن سداد الرأي أن يمكن الناس من أنعم الله ، وأن يرشدوا فحسب إلى أداء شكرها ، والقيام بحقها . وعندما يرسخ اليقين في الأفئدة ، وتهتز القلوب بعواطف الشكر للخالق الرازق ، فلن تشكو المساجد من قلة العباد ، ولا الميادين من قلة المجاهدين .

﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعَمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٦)

هذا ، ولنضع نصب أعيننا الحكمة البالغة : «الاقتصاد في السنة خير من الاجتهاد في البدعة» فلنلزم حدود ديننا فيما أحل وفيما حرم ، وداك أجدى علينا من فنون التصوف ، وضرور الحرمان ، وصور العبادات المكذوبة . وما اختلف الناس شكلًا جديداً للتدين إلا هجروا أضعافه من حقائق الدين الصحيح . ومن ثم حاربت الدعوة

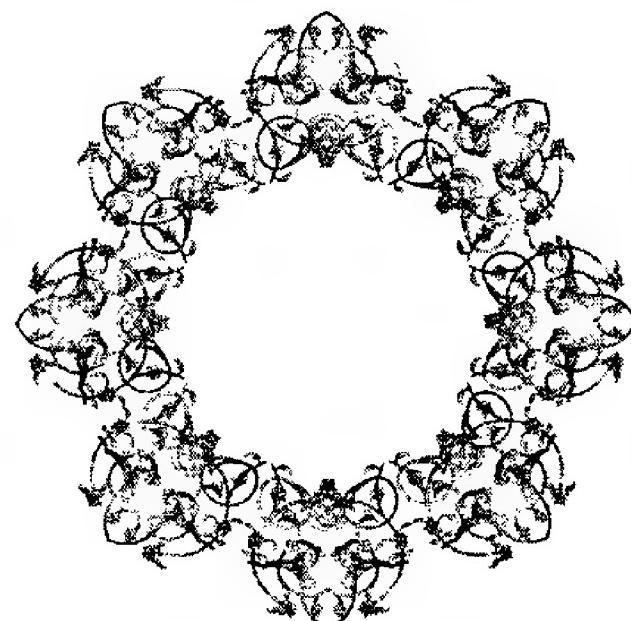
(٦) المائدة : الآية ٩٣ .

إلى الحرمان والتقشف والزهد الباطل ، ليرجع للحق بهاؤه وصدقه ، على أن الأمر في هذه الأيام هيئ . فالمتصوفون الرسميون ومن معهم متاخمون ، وممثلو الدين الرسميون والشعبيون ليسوا بحاجة إلى من يهون لهم قيمة الزهد المادي ! فقد هونوه من زمن بعيد وهو نوا معه الزهد الأدبي كذلك ، وأكثرهم متعرف لا يصرع شهوة حسية ولا نفسية ، وغير المترفين هم طوائف المحروميين الذين يمثلون كثرة الشعب والذين يعيشون زاهدين برغم أنوفهم .

وما دفعنى إلى كتابة : «زهد . وزهد» إلا بيان الحقيقة أولاً ، وتمهيد الطريق أمام جمهرة الشباب الذين استهוتهم شتى المبادئ ، فحسبوا الدين أعمالاً أخرى ميتة ، تفرض على الناس أن يعيشوا مستزمتين هامدين لا تزдан حياتهم بأسباب الجمال والطموح والمتاع ، وذلك خطأ بعيد .

إن الناس يظنون الذكاء ابن عم الإلحاد ، والغنى ابن عم الدنيا ! والتجمل ابن عم التحلل ! فما يكون الدين بعدئذ إلا مرادفاً للبلى والتعفن والغباء !
وذاك ما أريد محوه من الأذهان .

وفي الختام أراني عاجزاً عن شكر الزملاء الكرام على جميل أدبهم ، وشدة غيرتهم على شعائر الدين ومعالمه .



صور من الماضي

● النعمان بن مقرن:

كانت أنباء المعارك الدائرة في الميدان الشرقي «ميدان فارس» تشير قدراً كبيراً من الاهتمام والتحفز ، ولم تكن «المدينة» عاصمة الإسلام الناهض تجهل النتائج الخطيرة التي تتمحض عنها هذه الملاحم الطاحنة ، فقد صمم أمير المؤمنين على وضع حد حاسم لطغيان الأكاسرة في أرجاء ملكهم الرحيب ، وساق فرقاً إسلامية عديدة لتحقيق هذه الغاية الكريمة .

وكم شهدت رمال الجزيرة مئات الألوية وهي تخفق فوق الرجال الذين نيطت بأعناقهم هذه الرسالة ، وكم صمت وهادها ونجادها ، ولفها السكون الرهيب في انتظار أنباء المجاهدين ساعة بعد ساعة . لقد أقدم العرب على عمل هائل ، وأعلنوا قوى الضلال كلها بالعداوة السافرة ، فلم تمض أعوام قلائل على وفاة نبي الإسلام حتى فتحت أمته جبهة للقتال ، ثم جبهة أخرى ، ثم تشعبت الميادين واتسعت أمامها ، لأن الباطل في هذه الدنيا لا يستسلم أبداً حتى تتناوله اللطمات القاسية الموجعة .

وكذلك كان حال كسرى ومن معه . . . فإن آخر ما وصل إلى عمر من أنباء يشير إلى أن انتصارات المسلمين الكثيرة لم تسحق رأس الكفر بعد ، ورغم الجهد العصيّ الذي بذله المسلمون في الاندفاع إلى الأمام فإن خطتهم لم تنفذ بأكملها كما ينبغي .

ودخل عمر المسجد ، وأرسل بصره القوي في جنباته فلمح «النعمان» يصلي ، وكانت رؤية النعمان كفيلة بأن يستقر رأي أمير المؤمنين على القائد الذي سيكتب الفصل الحاسم لملك الأكاسرة ، فما لبث أن سار حتى جلس بجوار المصلى العظيم .

وما إن فرغ النعمان من صلاته حتى بادره قائلاً : لقد انتدبتك لعمل ! . واستمع النعمان لمشيئة أمير المؤمنين ، ثم أجاب : إن يكن جبائية للضرائب فلا ، وإن يكن جهاداً في سبيل الله فنعم . . فأظهر عمر قراره . . إنه جهاد وأى جهاد ، وما أصدق بصيرة الخليفة التي دلتـه على مثل هذا الرجل ؟ رجل ليست له نفسية كبار الموظفين في هذه العصور من كل متـرف يدمـى بنـانـه إمسـاكـ القـلمـ ولا يـحسـنـ إلاـ التـبـطـلـ

أو معالجة أتفه الأمور .. كلا ! ليس ابن مقرن من يسارعون إلى مثل هذه الأعمال ، لأنه رجل مسلم ، والرجال المسلمون يخفون بفطرة إيمانهم إلى العمل والجlad والاشتراك في الحياة وتكليفها .

وفي الساحة التي ارتوى ثراها بالدماء الغزيرة تولى النعمان إدارة المعركة ، وكان جيش العدو كثيف العدد ، بادى اليقظة ، عسير المناج . وحاول أركان حرب النعمان يوماً أن يحملوه على الإسراع في منازلة العدو ، ولكنه خاطبهم : تريشاوا حتى تزول الشمس وتهب الرياح وينزل النصر .. ذلك أن وهج الظهيرة كان شديد اللفح ، فما أن هبت طلائع الأصيل حتى صاح القائد المؤمن : أيها الناس ! إنني هاز لواءي ثلاثة ، فأما أول هزة فليتوضاً كل جندي . وأما الثانية فليعد سلاحه . وأما الثالثة فاحملوا ولا يلوين أحد على أحد ، وإن قتل النعمان ، وإن راغب إلى الله بدعة ، وأقسم على كل أمرئ منكم - أن يؤمن عليها - اللهم ارزق النعمان شهادة في نصر عظيم وفتح على المسلمين . فأمن القوم ، ثم هز لواءه ثلاثة ، وتقدم الرجل صفوف الغزاة في زحف متتابع للحملات ، جياش بالإيمان والتضحية ، قد رص القرآن ببنيان أصحابه ، فلم يقو على رد عزائمهم كل ما حشد الأكاسرة من قوى مختلطة ، واطرد اندفاع المسلمين في نواحي الميدان كلها ، ثم أطبقت أجنحتهم على أعدائهم إطلاقة عارمة كان معها النصر الغالى ، والفتح الكريم .

ولكن أين النعمان صاحب هذه الروح ؟ . لقد كان أول صريح ! . وصادفه أحد جنوده الأبطال وما زال به رقم ، فاستحضر بسرعة إداوة ليغسل منها وجه الجريح النبيل .. وإذ يعاود النعمان شعوره العازب من هول ما أصابه يسائل مسعفه : من أنت ؟

- معقل بن يسار .

- ما فعل الله بالناس ؟

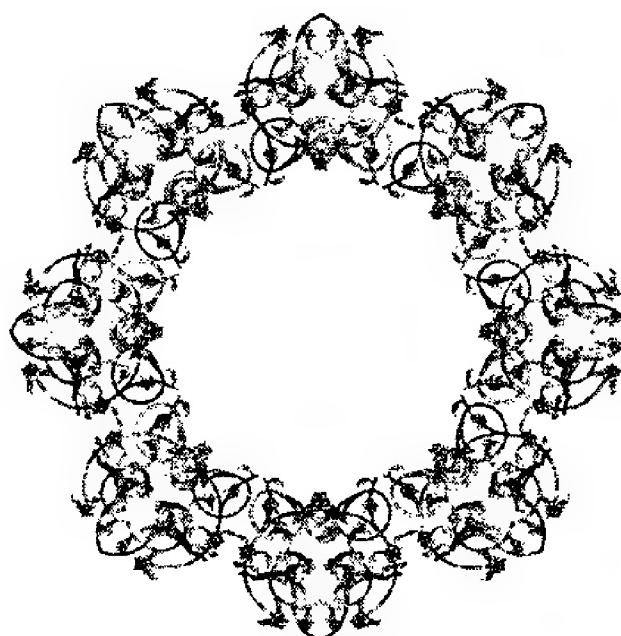
- فتح الله للمسلمين .

قال : الحمد لله كثيراً ، اكتبوا بذلك إلى عمر ، وفاضت نفسه .

كذلك كان مصرع واحد من صحابة محمد ﷺ ، ومن تربوا في مدرسته القرآنية وصدقت فراسة عمر ، ففي موقعة «نهاوند» كتب الفصل الختامي للدولة الأكاسرة ..

كتبه النعمان بن مقرن وجعل أول سطوره من دمه هو .. طوعية لا كراهية ، ورغبة في ذات الله ، لا فناء في غاية صغيرة ، وبعدًا عن مواطن الرياء وأسبابه ، فلم يرحب في عيش يستمتع فيه بشمار النصر ، أو يظفر فيه بأحفال التكريم وأشباه هذه المساخر .

وأذكر كلامًا قرأته مؤرخ معاصر يشير فيه إلى ندرة القادة الذين يذكرون بلادهم وحدها في ساعاتهم الأخيرة .. على حين نرى من أمثال «ابن مقرن» في تاريخ الإسلام كثرة بالغة .. فهل ينبغي أن تعى ذاكرتنا من أبطال النمسا وفرنسا ما تغضبه في أثناء الدراسة .. ويبقى أبطالنا لا تتوارث القرون أسماءهم الضخمة ؟؟ يا شباب الإسلام .. من تاريخكم خذوا المثل . إن لنا رجالاً تتضاءل عند أقدامهم عملاقة التاريخ الأوروبي كلها .



لا يحج بعد العام مشرك

● صارت ذكريات:

الأيام الفزعية التي عانها السابقون الأولون ، والحوادث الهائلة التي طالما روعت أصحاب هذه العقيدة العظيمة ، وجموع القبائل المتألبة ، وأشیاع الأحزاب الضالة المتحفزة ، ودنيا المجرمين الذين شعروا بأن ليلهم سينجاح ودولتهم ستذهب ، وهذه الصحراء التي شخصت ذرات رمالها إلى أدوار الصراع العجيب بين أتباع الزعيم الأكبر محمد بن عبد الله صلوات الله عليه ، وبين أتباع التحلل والإلحاد واحتراق النظم وافتراء المبادئ والابتعاد عن الله . ومكة وما انفجرت به ثورة أهلها ، والمدينة وما وجه إليها من حملات حاشدة حاقدة تراكمض هذه المعانى في ذهن راكب العصباء (*) ما إن تهدأ حتى تثور ، وما أن تنتهي حتى تبدأ من جديد .

وكيف لا تجيش شتى العواطف في صدر راكب العصباء ، وتنطلق من محابسها لا يلوى عنانها شيء ، وراكب العصباء يذرع بطحاء الجزيرة صوب البيت العتيق ، وهو يحمل القرار الأخير في تاريخ دعوته ! إنه يحمل سورة براءة ، السورة التي أعلنت الحرب على كل الأحزاب المرية ، والتي حددت موقف الإسلام الحاسم من أعدائه ، والتي ثارت وسوف تظل ثائرة على كل عدوان يصيب المؤمنين ، وكل غدر ينزل بالمجاهدين .
والآن لقد تغير الأمر كله وسوف يعلم الناس قريباً .

وحتى الراكب العظيم مطيته إلى البيت العتيق .. إلى البيت العتيق .

● أمير الحج.. وسفير الرسول:

صف أبو بكر الناس خلفه ثم استوى نحو القبلة وتهيأ للتکبير ، وإذا انتبه يتجمع ، وسمعه يصيخ .. هذا صوت العصباء ناقة رسول الله صلوات الله عليه .

ترى ! هل بدا للرسول صلوات الله عليه أن يحج هذا العام ؟ إذن فليرجع أبو بكر الشروع في صلاته ، فلعل النبي الكريم أن يكون إمام القوم في هذا الصبح الميمون .

واستدار أبو بكر ليستقبل القادم وإذا صاحب الناقة على بن أبي طالب ، وليس رسول الله صلوات الله عليه ، فدهش أبو بكر وصاح : أمير أم سفير ؟

(*) العصباء : الناقة مشقوقة الأذن .

- بل سفير ، جئت أتلوا على الجموع الوافدة إلى البيت سورة براءة ، ليبصر كل مشرك طريقه بعد اليوم ، هيئات أن تقر للطاغين عين ، لقد صرخ الشر واستبان السر ، لكن كانت شراذم الأعراب وبضعة الرؤساء الحمقى قد وجدوا بالأمس هوادة من المسلمين وليناً فاستعملت الغواية وطغى الباطل ؛ إن اليوم تؤدب سيف الإسلام النواصي الغربية ، والأهواء الشرسة ، وصيحة الحق لكارهيه هي :

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مَعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُحْزِي الْكَافِرِينَ﴾^(١).

وتلك صيحة لن تفتأ تردد آخر الدهر ، وفي هذه الحجة الممهدة لحججة الوداع - فيما بعد - كان أبو بكر يقف بمحتحن المنازل فيعلم الناس مناسكهم ويعرفهم شعائرهم ، فإذا أتي إرشاده خلفه على بن أبي طالب في موقفه ، وأسمع الحجيج قاطبة آى السورة التي نزعت من مطلعها رحمة الله بالجاحدين ، وبين أنه بعد أربعة أشهر ستطارد الوثنية من أرض الجزيرة .

كان في كل موقف جامع يتلو على الناس هذه السورة ، وكان أبو هريرة يمشي كذلك بين صفوف الحاج ، يخترق خيامهم ، ويحوس خلال مضاربهم وهو يصرخ بأعلى صوته : «لا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان» ، وكانت الكثبان الجاثمة والآفاق البعيدة تردد مع الصائح هتافه ، وتأكد في مقاطعه طلائع الفوز ، وتسوق إلى أقئدة المشركين سحائب من القنوط والهزيمة .. وظل أبو هريرة يهتف ويهتف . حتى بع صوته وخفت نبرته ، فسكت .

● لا يغرنك تقلب الذين كفروا:

لقد كان صاحب هذه السيادة المطلقة ينهى عن الصلاة في البيت ، وهذا هو ذا يمنع طغاة الأمس عن التطواف به ، وكانت هذه الكتبة المؤمنة لا يأمن بنوها على أنفسهم حتى ليوشك أن يتخطفهم الناس ، ثم أصبحوا - على ما رأيت - أصحاب الكلمة الجريئة الخازمة ، إنه العمل لله ، ختامه أبداً النصر الجميل :

﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرُ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُنْ فِي مَرِيَّةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٢).

(٢) هود: الآية ١٧.

(١) التوبه: الآية ٢.

بيعة العقبة الكبرى

● مؤامرة:

كثيراً ما تمر بجماهير الناس أزمنة محرجة يقعون فيها تحت ضغط طوائف من الطغاة المستبددين ، من يملأون الأرض علواً وفساداً ، ويحاولون أن يفرضوا سلطتهم على الشعوب قسراً . وأحرار الفكر والعقيدة في أمثال هذه الأزمات العصيبة لا يخضعون لها مهما سيموا الخسف ، ومهما صودروا في آرائهم وأشخاصهم ! ولئن كممت أفواههم عن النطق العالى هيهات أن تكمم ضمائركم عن الغليان المكتوم ، يتربصون به الفرصة ، ويدبرون له المؤامرات ، ويبيتون في ظلام الليل ما أعيادهم التصريح به في وضح النهار ، ثم ينقضون على أعدائهم الغافلين انقضاض الشائر الذي أخذ أهبيته لكل شيء فلن يترك خصمه منفذًا !

وقد كانت دخيلة المسلمين من أبناء يثرب تنطوى على أشياء كثيرة ، وهم يخرجون من مدینتهم صوب مكة في موسم الحج الذي يضم الآلاف من المشركين ولا يضم إلا القلائل من الموحدين . أولئك الذين أمنوا على وجل ولم ينج أكثرهم من أسواط الفتنة التي تلهب الظهور !

نعم خرج أبناء يثرب في هذا العام ، وفي أفقدتهم عزم جديد على مغامرة كبرى يقومون بها في سبيل الدين الذي اعتنقوه . إن أصداe البيعة الأولى لا تزال ترن في آذانهم ، وحال صاحب الدعوة ومن معه في مكة لا ينفك يخامر مشاعرهم ، والمستقبل المبهم لهذا الصراع العنيد بين الدين المدبر والدين المقبول يشغل المؤمنين والكافرين جميًعاً ! وإذا كانت سطوة المتكبرين في مكة قد أذت الكثير ، فإن جرأة القادمين عليهم من الخروج يجب أن تفعل الكثير كذلك ، وإن فليفكر الأنصار في استنقاذ الدعوة وصاحبها من هذا البلد الظالم أهلـه إلى بلد آخر وإلى عهد آخر .

● الاجتماع:

غصت مكة بالحجيج على العهد بها في كل عام ، وتوقع العباس بن عبد المطلب أن تأتيه أبناء ابن أخيه وهو يعرض نفسه على الوفود القادمة ، فلا يلقى منها إلا الردود

السلطة ، ولكن العباس أحس بأن الحال هذه المرة تستدعي التفاته وتيقظه ، فقد لمح من بعيد حركة خفية تدور في صفوف المسلمين ، وتأخذ قدرًا من انتباه الرسول ﷺ . ومع أنه لم يكن مؤمناً بنبوة محمد ﷺ ، فإنه كان مؤمناً بخلقه ، وعارفاً بأن ابن أخيه لن يتوانى في عمل كل شيء يعود على دعوته بالخير والنجاح ، ولو غادر مكة وانضم إلى أي قبيل من العرب يعينه على إدراك غايته ،وها هو ذا يلمح بوادر ما يخشى ! أن ابن أخيه سيُجْنَح إلى خطة جديدة تجعله هدفًا لقريش ومن ورائها سائر العرب .

ودفعته خشيته وشفقته إلى أن يتعرف الأمر ويتابع سيره !

وحان موعد اللقاء المضروب ، فخرج العباس في جنح الليل يمشي الهويني نحو العقبة .

كانت ليلة قمراء يوشك القمر أن يكون بدراً ، وقد خيم على المكان صمت الترقب والتحفز ، وبين الحين والحين يسمع همس خافت ، واقتراب أشخاص جدد إلى مكان الاجتماع ، وما أن يتم التعارف القصير حتى يأخذ كل موضعه في هدوء .

فلما انقضى الهزيع الأول من الليل كان هناك نحو سبعين شخصاً يلتدون حول صاحب الرسالة العظمى الذي تسلل إليهم خفية كذلك ، وتهيأ للاستماع إلى أخطر قرار في تاريخ الدعوة الإسلامية . ويعيداً عن مكة السامرة حول أوثانها ، الغارقة في ضلالها وغلوائها ، اجتمع أولئك النفر الكريم من مسلمي يثرب ، يتائق في عيونهم بريق الحماسة الملتهبة ، وتتأجج في صدورهم عواطف التضحية والمقاومة ، ثم قطع حبل الصمت صوت العباس الجهوري يقول : «يا معاشر الخزرج إن محمدًا منا حيث قد علمتم في عز ومنعة ، وقد أبى إلا الانقطاع إليكم ، فإن كنتم ترون أنكم توفون له بما دعوتموه إليه ومانعوه فأنتم بذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه فمن الآن فدعوه» .

● مناقشات :

واستمع الأنصار لهذه العبارة وما تنطوي عليه من علام الوجل والتحدي ، ثم وجهوا خطابهم للعباس : قد سمعنا ما قلت ، ثم قالوا : فتكلم يا رسول الله وخذ نفسك وربك ما أحببت . فقام الرسول ﷺ وتلا آيات القرآن ورغب في الإسلام ، واستشار لهم للعمل له ، والكافح في سبيله ، واستوثق من الانتصار لدعوته ، والاستمساك بشخصه ، والالتفاف حوله ، واعتباره واحداً من حرماتهم التي يدفعون

عنها إلى الموت ، «تَنْعُونِي مَا تَنْعُونَ مِنْهُ نِسَاءكُمْ وَأَبْنَاءكُمْ» فقام البراء بن معور - أحد زعمائهم - فأخذ بيده وقال : والذى بعثك بالحق لنمنعك مما نمنع منه ذارينا ، فبایعوا
والله لنحن أهل الحرب ! ولكن أبا الهيثم أحب كذلك أن يستوثق لقومه بعد هذا التحالف الذى يبت فى مستقبلهم ، وفي علاقتهم بغيرهم ، فقال : يا رسول الله . . . إن بيننا وبين اليهود حبالا وإنما قاطعواها ، فهل عسى إن أظهرك الله عز وجل أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟

فتبعس الرسول ﷺ لهذا الاعتراض وقال : «بل الدم الدم ، والهدم الهدم ، أنت مني وأنا منكم ، أسالم من سالمتم ، وأحارب من حاربتم ، أخرجوا إلى اثنى عشر تقبياً أبايعهم يكونون على قومهم كفلاء». .

غير أن سعد بن عبدة شاء أن يزيد الأمروضوحاً ، وألا يترك سحر الموقف يأخذ بباب قومه في غمرة من حماسة الإيمان وصمت الصحراء وهدأة الليل فقال بصراحة :

يا معاشر الخزرج .. هل تدرؤن علام تبایعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس ! فإن كنتم ترون أنه إذا نهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتل أسلتمتهم ، فمن الآن فدعوه فهو والله خرى الدنيا والآخرة . قالوا : فإننا نأخذه على مصيبة الأموال ، وقتل الأشراف ، فما لنا بذلك يا رسول الله ، قال : الجنة ، قالوا : فابسط يدك !! .

● استعداد:

أدرك العباس أن الأمر جد ; فإن ابن أخيه بين أقوام تربطهم به من صلات الإيمان ما يزيد على صلات النسب القريب والدم المشترك ، وتبعث عيناه القوم وهم ينصرفون من مجتمعهم ويعودون إلى رحالهم ، فرأيـنـ أن هذه الحال سوف تضمـ غـدـاً رسول الله ﷺ لا بين ربع «مني» ولكن بين أنحاء «يشرب» نفسها ، وشعر بأن الدين الجديد قد دخل مرحلة انتقال خطيرة ، وطلع الصباح بعد هذه الليلة الرائعة ، ويظهر أن غريزة الشعور بالخطر جعلت قريشاً تشم رائحته ، وتوجـسـ خـيـفةـ من حدوث مؤامرة يكونون بعد قليل ضحيتها ، فذهب جماعة من عظماء قريش إلى الخزرجيين يتـسـأـلـونـ : هل حقاً جئتم إلى صاحبنا تستخرجونـهـ وتبـاـيـعـونـهـ على حربـناـ ؟ .

قال المشركون من الخزرج : لا ، وصمت المؤمنون ! وقال التاريخ بلسان حاله الساخر :
سوف تعلمون .

● وفاء ..

هذه بيعة أوحى بعقدها الإيمان الحى ، وظلت - من بعد - تجرى على منطقه الصادق أعواماً طوالاً ، بل ظلت توجه حياة أصحابها وتؤثر فى مسلكهم حتى غادروا الحياة جمیعاً ما بين مجاهد متعب ومجاهد شهيد !!

عاهد الأنصار على حماية الدعوة وصاحبها ، فهل غيرت السنون وأحداثها فتيلاً من ذلك العهد الذى قطعوه على أنفسهم بجوار مكة ؟ ، وهى يومئذ موطن ألد عداة الإسلام ... ؟!

كلا .. لقد بذلوا دماءهم قطرة قطرة ، وبذلوا أموالهم درهماً ، وفتحوا دورهم للنبي ﷺ وصحبه المهاجرين معه ، وغبرت أقدامهم رمال الصحراء وهم ينافحون لحماية الدين الذى آمنوا به ، واستماتوا فى إعلاء كلمته ، حتى أن المسلمين لما هزموا أول الأمر فى موقعة حنين ، وشعر الرسول ﷺ بالخطر ، أمر العباس - وكان قد أسلم - فنادى : يا عشر الأنصار .. يا أصحاب العقبة !

لقد كانت هذه البيعة بعد عشرة أعوام كهف الإسلام ، وموئله الذى يفرز إليه عند الشدائى ، ولقد أغنوها فى هذه الموقعة مالم تغن جماهير الأعراب المؤلفة قلوبهم ، فلما وزعت الغنائم ، وقسمت أعراض الدنيا ، نال أبناء الدنيا الكثير ، وحرم الأنصار ما أفيض على غيرهم إفاضة ، ثم طيب خاطرهم من ذلك كله قول الرسول ﷺ لهم : «أفلا ترضون أن يذهب الناس بالشاء والبغير ، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم ، والذى نفسي بيده لو لا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار ، ولو سلك الناس شعباً وسلك الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار ، اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار ».

ضمانة النصر في هذا الإيمان

اكتنفت الأحزاب أطام «يشرب» ولمعت عيون الكافرين الواfeldin من كل فج ببريق الإصرار على أن يستردوا من المسلمين ثأرهم ، وعلى أن يضربوا محمداً ﷺ وأنصاره ضربة تطوى أعلام هذا الدين الناهض ، وانطلقت الخيل تهمهم حول حوافى الخندق المحفور فلا يردها إلا الموت الجاثم فى قراره السحق وامتدت الخيام حول لابتى المدينة تضرب حصارها الخانق ، وفي صدور أصحابها غل مكظوم ، يود لو تطبق هذه الجبال الشامخة حول مهجر المسلمين المجاهدين فتسليهم الروح المنطوية على الحياة والجهاد معًا!

وفي داخل المدينة حال غريبة النقائض ، فالإيمان المذكور في هذه القلوب الكريمة كان من شأنه أن يشيع الثقة في جوانب النفس ، وينتظر من خلال الغيب بشائر النجاة المرجوة في جوار الله ، ولكن أنى هذا الواقع المفزع يتربص بهم على مدى سهم ، وجihad الأعوام الطوال يوشك أن يأتي عليه هذا الحصاد الشيطانى من مناجل قريش وحلفائها :

﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ
الْحَنَاجِرَ وَتَظَنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلَى الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ (١).

وفي هذه الساعة الحرجة ، وجد الضعفاء من مرضى القلوب جوًا يتنفس فيه نفاقهم ، ويتحرك فيه لؤمهم ، وماذا عليهم إذا استغلوا هذه المفارقة التي يعاني المسلمون شدتها ليضحكوا ملء أفواههم ، وليرسلوا النكات الساخرة من قوم كانوا إلى أمد قريب يتحدثون عن مبادئهم التي ستسود الدنيا ، وهم اليوم لا يأمن أحدthem أن يخرج من داره ، بل هم - كما يرجف المنافقون - سيكونون بعد أيام ما بين قتيل وأسير .

واليهود ؟ لقد نقضوا معاهدة الصداقة في هذه الفترة العصيبة ، وسعى رسلاهم إلى قريش يفاوضونهم في تدبير هجوم مشترك على أصدقاء الأمس ..

وهكذا أحكم أعداء الله مؤامراتهم وبيتوا وقيعوا :

(٦) الأحزاب : الآية ١٠ ، ١١ .

﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكِرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ (٢).

وكان الرسول الأعظم ﷺ في هذه الأيام على ما يعهده أصحابه رسوخاً وسمواً، عملت ذراعاه في حفر الخندق وتهشيم صخره ورفع ثراه ، واختلط العرق المتصبب بالغبار التاثير من هذه الجهود المتواصلة ، وكانت حناجر المجاهدين ترتفع بين الحين والحين بغناء حماسى ، تستريح على نشيده نفوسهم المتعبة ، ويتجدد على يقينه نشاطهم الدائب :

وَاللَّهُ لَوْلَا اللَّهُ مَا اهتَدِينَا وَلَا تَصْدَقْنَا وَلَا أَصْلِينَا
فَأَنْزَلْنَا سَكِينَةً عَلَيْنَا وَثَبَتَ الأَقْدَامُ إِنْ لَاقِينَا
وَحْقًا . . . كَانَتْ حَدُودُ الْمَدِينَةِ عَلَى مَنْ بَهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَشْبَهَ بِجُدْرَانَ الْمَصِيدَةِ وَلَكِنْ فِي
وَسْطِ هَذِهِ الْأَمْوَاجِ الْمَقْنَطَةِ كَانَ فِي الْمَدِينَةِ رِجَالٌ تَسَاقِطُ هَمُومُ الدُّنْيَا عَنْ أَقْدَامِهِمْ . . .

التفوا حول الرسول الأعظم ﷺ ، ولا شيء في قلوبهم إلا العزم البرم على مواصلة الكفاح معه ، والسير في أنحاء المدينة المهددة يغالبون دعاية المتردد़ين ، ويبثون معانى الرجاء في نفوس الناس ، كأن لسان حالهم ينطق : بأنه علينا أن نثبت قدر ما تطيقه قوى البشر ، وعلى الله - بعد - كشف الكربة وإزاحة الغمة :

﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ
وَمَا زَادُهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ (٣).

أهى الواقعة بين قريش والميهدُون ، أم هو التفكك بين قبائل العرب تفككًا جعل صفوفهم لا ترغب في إطالة الحصار ؟ أم هو سوء الأحوال الجوية التي عاكست الهاجمين من ريح وبرد ؟ أم هي أشياء أخرى غير ذلك ؟ قل ما شئت في تعليل الهزيمة التي نزلت بأعداء الإسلام فلطممت خيلهم ، واقتلت خيامهم ، وأذلت كبراءهم ، وردتهم خائبين ، ولكنك مهما قلت فلن تصل إلى سبب عقلى يعتمد على مقدمات مادية ظاهرة لهذا النصر الذي سيق إلى محمد ﷺ وأصحابه ، وإنك تصيب صميم الحق إذا قلت إن هذه النعمة المسبغة على المسلمين كانت تفضلاً أعلى ، ساقه الله الذي يذل من يشاء ويعز من يشاء ، كانت نصراً أتاها الله هذه الطائفة المصابرة

(٢) الأحزاب : الآية ٢٢ .

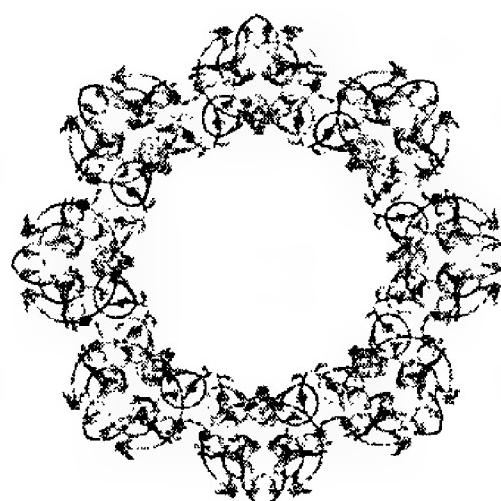
(٣) الأنفال : الآية ٣٠ .

المحتسبة الموقنة . . إن اليقين الإسلامي قد كفل من التماسك بين أبنائه ما جعل بناءهم تهزم الحوادث هزاً ، ولكن لا تسقط منه لبنة ، ولا تحدث فيه فجوة ، فبقى على هول الأحداث شامخاً شاهقاً يرتد عنه الطرف وهو حسيراً ! .

ورجع الرسول ﷺ إلى بيته ليخلع عنه درعه ويستجم قليلاً بعد هذا الجهد الشاق ، فألقى الله في روعه أن جبريل لم يخلع درعه بعد ، لقد سبقك إلى ديار اليهود الغادرین يحاسبهم على ما قدموا ، فعاد المسلمون كرهاً أخرى يستأنفون الحرب والنضال ، ولكنهم في هذا الدور من المعركة مهاجمون محاصرون بعد أن كانوا مدافعين محصورين :

﴿ وَرَدَ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا * وَأَنْزَلَ اللَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صِيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا * وَأَوْرَثُكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾ (٤) .

وبعد . . فإذا ظن أحد أن القوة المادية هي كل ما ينبغي أن نحرص عليه ونسعى إليه ، فلتكن له من هذه الموقعة عبرة . . إن المسلمين اليوم بحاجة إلى الإيمان اليقظ قبل حاجتهم إلى أسباب الغلب المادي .



(٤) الأحزاب : الآية ٢٥ - ٢٧ .

موقعه بدار

● هذان خصمان اختصموا في ربهم :

ترمك الأعين سيرة النبي الكريم وصحابته الأبرار لتقرأ في صحائفها معالم الأسوة الحسنة ، ولتلمح في ثناياها طرائق الجهد المنطوى على أروع صور التضحية وأصدق مظاهر الكفاح ، لا لغنم زائل ، بل في سبيل الله ، وإعلاء لكلمته .

وموقعة بدر - من بين أحداث السيرة الحافلة - ما إن يطالع المرء أنباءها ويستعرض مقدماتها ونتائجها حتى يحس لها منزلة خاصة ، وحتى يدرك أن التاريخ أودع في فصولها سراً تكتنفه الهيبة ، وجعل من أدوار القتال فيها ، ومن الإعداد له ثم الانصراف عنه ، موعضة خالدة لا تفتأ تتجدد ذكرها ما بقى في الدنيا صراع بين الظلام والنور .

إن كتب السنة أحصت الذين اشترکوا في بدر من جند الحق وسجلت أسماءهم واحداً واحداً ، فأصبح كل اسم بهذه المنقبة التي لازمته خالداً تتناقله الأجيال المتعاقبة كما تتناقل كلمة الحكمة العالية ، أو كما تتناقل أحرف المثل السائر ، ولكن لما هذا؟ ولماذا تأخذ غزوة بدر ذلك الوصف المجيد وهذا الأثر بعيد؟ وكيف تكون بدر موقعة حربية معدودة مع أنها لم يحشد لها إلا بضع مئات من الناس؟ مئات تعد على الأصابع ! ولم تستغرق إلا يوماً أو بعض يوم ، على حين نجد تاريخ الحياة في ماضيها وحاضرها زاخراً بالواقع التي تساق إليها الألوف المؤلفة ، والتي تظل دائرة الرحي الشهور الطوال ، تعصف عليها ريح الموت آناء الليل وأطراف النهار .

فما تكون موقعة بدر إلى جانب هذه الواقع الطاحنة؟ .

لا شك أن هذا كلام له بواعته ، بل له وجاهته عند من يقيسون الأشياء بأحجامها ، وعند من ينظرون في الأمور إلى كمها لا إلى كيفها ، بل إننا نضع بدرًا في عداد هذه المعارك الهائلة ، وقد نرى كفتها ترجع بالكثير منها ، وما ظنك بموقعة يكون مصيرها هو الفاصل في عبادة الله على هذه الأرض ، هل ستبقى أم ستُفنى؟ ويشعر قائد المعركة هذه الحقيقة الخامسة الخطيرة فهو يؤكدها بقوة .

روى أصحاب السيرة أنه «ما كان يوم بدر نظر الرسول ﷺ إلى المشركين وهم نحو الألف ، وإلى أصحابه رضي الله عنهم وهم ثلاثة وثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً ثم استقبل القبلة ومد يده وجعل يهتف : «اللهم أتني ما وعدتني ، اللهم أنجز لى ما وعدتني ، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلن تعبد في الأرض» وما زال يهتف بربه ماداً يده حتى سقط رداوه عن منكبيه ، وحتى نزل الوحي مطمئناً له :

﴿سيهزِمُ الْجَمْعَ وَيُؤْلَوْنَ الدُّبُرَ﴾ (١).

نعم . . وما ظنك بمقولة يكون القتال فيها بداية لسلسلة من المعارك تشتعل نيرانها في البر والبحر ، ويحتمد النزاع فيها بين الحق والباطل ، وتهتم بخوضها والتعبئة لها أم المشرق والمغرب ، هذه السلسلة من المعارك التي خاضها المسلمون - من بعد - في فارس والروم وفي الصين والأندلس . . لا تحسب أن الصلة بينها وبين بدر مقطوعة أو ضعيفة ، كلا . . إنها صلة النسب المتين بين الأصل ونتائجها أو بين الأب وذراته .

فكأن أول سيف شهر في بدر إيدان بابتداء النصال المسلح بين الباطل المتكبر والحق الذي يريد أن يقمعه ، كلما انتهت معركة قامت أختها . . ولذلك يقول على بن أبي طالب : «أنا أول من يجثو للخصومة بين يدي الرحمن يوم القيمة ، ذلك أن الله يقول : ﴿هَذَا نَحْنُ خَصْمَانٌ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّنْ نَارٍ يُصَبَّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ (٢).

وهؤلاء الخصوم - كما تحدث أبو ذر - هم على وصحبه الذين بزوا يوم بدر يجالدون بسيوفهم طائفة من أئمة الكفر فيقتلونهم جميعاً ، ويفقدون أحدهم - عبيدة بن الحارث - ليسبقهم إلى الجنة ، ثم يدركه بعد قليل حمزة في أحد ، ثم يدركه بعد سنين على . . ثم تتتابع سلسلة الشهداء من أجناد الحق رضوان الله عليهم أجمعين حتى قيام الساعة .

● أصابع القدر:

موقف الطرفين في هذه المعركة يمثل التناقض الكامل ، فإن المشركين قد خرجوا في تعبئة تامة ، وفصلوا عن مكة وهم متأنبون لقتال عنيف . ومع انتهاء السبب الذي

(٢) الحج : الآية ١٩.

(١) القمر : الآية ٤٥ .

خرجوا من أجله فإنهم أصروا على القتال الذي استعدوا له ، ووثقوا بنتيجة ته ، ورغبوا أن يقرع آذان العرب نبؤه .

أما المسلمين فقد كانوا يهاجمون طرق التموين التي يعتمد عليها أهل مكة ويفرضون نوعاً من الحصار الحربي على ما يستند إليه هؤلاء الطغاة من موارد غنية وهم قد خرجو لا عراضاً قافلة لا شوكة لها ، يعتبر الاستيلاء عليها غنيمة باردة ، ولذلك لم يأخذوا الأبهة لقتال ، حتى فاجأتهم الحوادث بنجاة القافلة ، وبمحض صناديد قريش وأبطالها يتحدون هؤلاء المعارضين ، ولم يكن بد من قبول هذا التحدي والا ضاعت هيبة المسلمين ، وواجه النبي ﷺ الموقف بما يتطلبه من إيمان وثقة ، غير أن كثيراً من المسلمين تسائل وحاول التملص ، إذ كيف يواجه هذا العدو الذي لم يستعد له ؟

﴿ كَمَا أَخْرَجَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ بَيْتِكُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ * يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴾^(٢) .

عدم التهيئة ثم قلة العدد ثم سوء الموضع الذي وجد المسلمين أنفسهم فيه ، فقد نزلوا بكثير أعفر ، تسونخ فيه الأقدام وحوافر الدواب .

ونزلوا على غير ماء على حين سبقهم المشركون إلى ماء بدر !

ولكن القدر كان يدفع الأمور في مجريها الذي أعده إعداداً محكماً ، فها هو ذا قد جمع بين الفريقين على غير موعد :

﴿ وَلَوْ تَوَاعَدُتُمْ لَا خَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً ﴾^(٤) .
وها هو ذا يغرى كليهما بالآخر و يجعله يرى عدوه ضئيلاً قليلاً :

﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذْ التَّقِيَّةَ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًاً وَيُقْلِلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾^(٥) .

وها هو ذا يبعث الشيطان لينفخ روح الغرور في أتباعه ول使之 يصبح بينهم :

﴿ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ ﴾^(٦) .

(٤) الأنفال : الآية ٤٢ .

(٥) الأنفال : الآية ٤٨ .

(٣) الأنفال : الآية ٥ .

(٦) الأنفال : الآية ٤٤ .

أما في معسكر المؤمنين فإن الأمور كانت تجري بسرعة عجيبة ، فقد قام المهاجرون يتبايعون على الموت ، وأحس الأنصار بأن الكلمة الفاصلة لهم في خوض هذه المعركة ، وإذا زعيمهم سعد بن معاذ يقول : «يا رسول الله .. قد أمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيتك على هذا عهودنا ومواثيقنا ، على السمع والطاعة ، فامض لما أردت ! فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما يختلف منا أحد وما نكره أن تلقى بنا عدونا وعدوك ، إنما الصبر عند الحرب ، صدق عند اللقاء ، ولعل الله عز وجل يريك مما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله» .

وهكذا جرفت موجة الإيمان عوامل التردد كافة ، وأنست المسلمين ما بينهم وبين عدوهم من فوارق مادية شاسعة ، وأملوا في الله نصره القريب .

ثم تبدل الحال ، وأمطرت السماء ، وتغير الجو ، واستقى المسلمون واستراحوا من عناء يومهم ونشطوا للقتال المنتظر بعد ما جمدت الرمال تحت أقدامهم :

﴿إِذْ يُغَشِّيْكُمُ النُّعَاصَ أَمْنَةً مِنْهُ وَيَنْزَلُ عَلَيْكُم مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّيُطَهِّرَ كُمْ بِهِ وَيُذَهِّبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُشَبِّهَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾^(٧).

• القتال:

وجاءت الساعة الرهيبة ، ودار القتال ، ومشى ملك الموت وئيداً يقط رقبة الكفر ، وتنجست الرمال العفراء بدم الطائفة التي طالما أذت الله ورسوله ، ووطئت أقدام المسلمين خدوداً وجباراً ، طالما استنكرت أن تسجد لله رب العالمين ، وتحركت سواعدهم ، تطیح بهامات طالما استخفت بحق الله ، واستکبرت على الإيمان والمؤمنين .

يقول شاهد عيان لأبي لهب يخبره بما كان : «لا شيء يا عماء ! ما كان إلا أن لقيناهم فمنناهم أكتافنا يقتلوننا ويسروننا كيف شاءوا ... لقينا رجالاً لا يتلقاهم شيء ولا يقوم لهم شيء» .

ووقف النبي ﷺ على حافة بئر ضمت رفات جبابرة الأمس ينادي : «يا أبا جهل ، يا أبا العاص ، هل وجدتم ما وعد ربك حقاً فإنما وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً». ماذا جرى ؟ وكيف انتهى القتال بهذه النتيجة الغريبة ؟

(٧) الأنفال : الآية ١١ .

الحقيقة التي يجب أن يلتفت إليها المسلمون اليوم أن النصر جاء لل المسلمين في بدر لأنهم كانوا أجدار أنس به وأحوج الناس إليه؛ فمن الله عليهم وبسط يده إليهم بشمراته الغالية. وللنصر في كل حرب أسباب فعالة لا يد للبشر فيها إلى جانب الأسباب التي لابد منها، فلللحالة الجوية دخل عميق في تصريف المعارك، وقد شاهدنا كيف يوقف البرد زحف الجيوش، وكيف توقف السحب هجوم الطائرات، وكيف يؤثر هذا وذاك في النهاية الحاسمة، وللحالة المعنوية أثر قاهر، فروح الإصرار والعناد وامتلاء القلوب بالأمل والالتفات الحكم نحو الغاية الواحدة، هذه لاشك، غير روح الانحلال والخوف وإساءة الظنون بالمستقبل وظهور التخاذل والخيانات! وحالة الجو بيد الله وحده، وحالة القلوب كذلك «القلب بين إصبعين من أصابع الرحمن» أضف إلى ذلك فعل القدرة العليا التي إذا تدخلت جعلت وميض السيف يخطف الأ بصار، وجعلت حده لا يخطئ مجزاً، ولا يغادر عنقاً إلا فصله، وجعلت من طريقة التشكيل، واستغلال الفرص، وتوجيه الهجوم، و اختيار الوقت له .. إلى آخره، جعلت من ذلك كله السبيل الفريدة للنصر العزيز، وقد وفر الحق لحزبه كل هذه الأسباب بعد ما أدوا واجبهم كاملاً:

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلَيُبَلِّيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوْهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾^(٨).

إن معركة بدر فرضتها الظروف على القيادة الإسلامية فرضاً لم يكن في الحسبان، وشاء الله أن يجعل نتيجتها مكافأة رائعة لقوم ظلوا بضعة عشر عاماً مؤمنين مصابرين، وعقاباً مريضاً لقوم أبطأهم الطغيان، وأغراهم بالعدوان:

﴿وَلَقَدْ نَصَرْتُكُمُ اللَّهُ بِيَدِهِ وَأَنْتُمْ أَذْلَهُ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(٩).

كان موقف المسلمين في المدينة بحاجة إلى دعم وتقوية بعد ما تكاثرت فتن اليهود، ودسائس المنافقين، وماذا يصنع المهاجرون الغرباء عن موطنهم، والأنصار الغرباء بعقيدهم بين جماهير الأعراب المتألين حولهم من أقصى الجزيرة إلى أقصاها؟ لذلك جاء نصر بدر إنقاذاً أى إنقاذاً:

﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعِفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَأَوَّلَكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيَّاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(١٠).

(١٠) الأنفال: الآية ٢٦.

(٩) آل عمران: الآية ١٢٣.

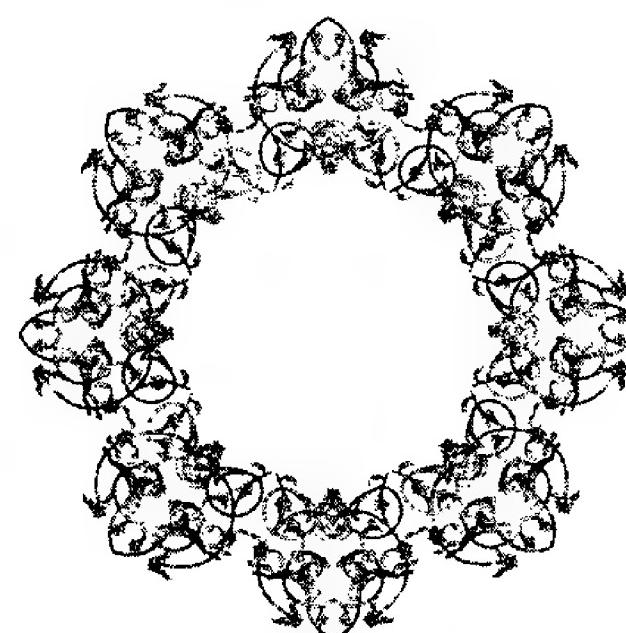
(٨) الأنفال: الآية ١٧، ١٨.

كان هذا الفوز دعماً مادياً وأدبياً لكيان الأمة الإسلامية في أول أمرها ، وكان المسلمون قد صابروا الأيام ، وعاجلوا الشدائـد ، وهم ثابتون على عقيدتهم ماضون في حمايتها ، يقتـمون العقبـات ، ويواجهـون الغـمرـات ، فـلما ضـمـتـهـم سـاحـة القـتـال ، وواجهـوا أـعـدـاءـهـم عـلـى ما رأـيـنا آـنـفـاـ ، نـظـرـإـلـيـهـم الرـسـوـل ﷺ نـظـرـةـعـمـيقـةـ وـرـقـلـهـمـ قـلـبـهـ الـكـبـيرـ .

عن عبد الله بن عمرو قال : «خرج رسول الله ﷺ يوم بدر في ثلاثة وخمسة عشر رجلاً من أصحابه ، فلما انتهى إليها قال : «اللهم إنهم جياع فأشبـعـهـم ، اللهم إنـهـمـ حـفـاةـ فـاـحـمـلـهـم ، اللهم إنـهـمـ عـرـاـةـ فـاـكـسـهـمـ» .

فتح الله لهم يوم بدر ، فانقلـبـوا حين انـقـلـبـوا وما منـهـمـ رـجـلـ إـلـاـ وقد رـجـعـ بـحـمـلـ أو حـمـلـينـ واـكـتـسـواـ وـشـبـعواـ .

لقد أثـلـجـ هـذـاـ النـصـرـ أـفـئـدـهـمـ ، وـنـزـلـ عـلـىـ أـنـفـسـهـمـ كـمـاـ يـنـزـلـ الشـرـابـ الـبـارـدـ الـخـلـوـ بـعـدـ ظـمـاءـ طـالـ جـفـافـهـ ، وـيـبـسـتـ مـنـهـ الـخـلـوقـ وـالـأـحـشـاءـ .
وـقـدـ كـانـ يـوـمـاـلـهـ مـاـ بـعـدـهـ . . .



قصة أسير مسلم

سيق الأسرى إلى قصر الأمير ، وكانت وجوههم ساهمة طبعها الحزن بمعالمه الكئيبة ، وكيف لا يملون لهذا المصير السيئ وهم يخترقون بلاد الروم منكسرین لا منتصرين كما كانوا يأملون ؟ .

ونظروا إلى زميلهم «واصل» الشاب الفقيه الذي ترك دراسته بدمشق واكتب في هذه الغزارة الفاشلة . وكان «واصل» يبدو غير مكترث بما حدث ، فقد استمع إلى حديث الرسول ﷺ «ما من سرية ترجع غاغة إلا تعجلت أكثر أجرها ، وما من سرية تروع وتخرج إلا استوفت أجرها كله» ولكن «واصل» كان مكتئباً لأمر واحد ، فهو يعلم أن الأمير بشيرًا الذي يساقون إلى قصره كان مسلماً ثم ارتد ، وأن ثمن ردته هذه الإمارة العريضة التي يتطاول فيها !

وأستعرض بشير الأسرى وكانوا ثلاثة ، سألهم عن دينهم ، وجادلهم في بعض عقائده ، فلما جاء دور «واصل» أبى أن يرد عليه بشيء فقال له : مالك لا تجibنى؟ فقال : لست مجبيك اليوم بشيء ، فقال : إنني سائلك غالباً فأعد لك جواباً ، وجاء الغد ، وأدخل «واصل» على الأمير الذي بادره الحديث بعد حمد الله والثناء عليه قائلاً : عجباً لكم عشر العرب حيث تكفرون بألوهية عيسى وتقولون :

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (١) . وما يستوى عبد ورب .. !!

ورأى «واصل» أن يستأمن لنفسه قبل أن يجيب ، فاستوثق لحياته قدر ما يدافع عن عقيدته ، فلما اطمأن قال لمحثه : أما حمدك الله وثناؤك عليه فقد أحسنت الصفة ، وهذا مبلغ علمك واستحكام رأيك ، والله أعز وأجل مما وصفت ، وأما ما ذكرت من صفة هذين الرجلين عيسى وأدم فقد أساءت وأخطأت !

ألم يكونا يأكلان ويشربان ، ويبولان ويتغوطان ، وينامان ويستيقظان ، ويفرحان ويحزنان ؟ .

(١)آل عمران : الآية ٥٩ .

قال بشير : بلى .

قال واصل : فلمَ فرقت بينهما ؟ .

قال : لأنَّ لعيسى روحين اثنين ، روح يبرئ بها الأكمه والأبرص ويعلم الغيوب ويصنع بها المعجزات ، وروح لما ذكرت من أحوال الناس ! .

- روحان اثنان في جسد واحد ؟ .

قال بشير : نعم .

قال واصل : فهل كانت القوية منها تعرف موضع الضعيفة .

- قاتلك الله ! تعلم أو لا تعلم .. ماذا تريد ؟ .

أريد إن كانت تعلم فلماذا لا تطرد عنها قاذورات الضعف البشري وأفاته ! وإن كانت لا تعلم فكيف يطلع الغيب من يجهل مجاوره في جسد ؟ .
فسكت بشير .

واستطرد واصل : برب عيسى أم بسخطه قدستم الصليب ؟ .

قال بشير : هذه من تلك ، ماذا تريد ؟ .

فأجاب : إن كان بسخطه فما أنتم ببعيد يعطون ربهم ما سأل ، وإلا فبأ الله ، كيف تبعدون ما لا يدفع عن نفسه العداون ؟

قال بشير : أراك رجلاً قد تعلمت الكلام فسأريك بمن يخزيك الله على يديه . وأمر باستدعاء رجل من علماء القدس ليجادل هذا الشيطان ، فلما حضر القدس قال له بشير : هذا العربي له رأى وعقل وأصل في قومه وأحب أن يدخل ديننا ! فأقبل القدس على واصل يحتفي به ويتردحه ، ثم قال : غداً أغطسك في العمودية غطسة تخرج منها كيوم ولدتك أمك .

قال واصل : فما هذه العمودية ؟

- ماء مقدس .

- من قدسه ؟ .

- أنا والأساقفة من قبلى .

- فهل كانت لكم ذنوب وخطايا ؟ أم أنت وهم مبرءون من النقص ؟ .

- كلنا فعلنا الخطايا وليس هناك مبراً إلا يسوع .

- فكيف يقدس الماء من لم يقدس نفسه ؟ .

فحار القدس ثم استدرك : إنها سنة عيسى بن مريم غطسه يوحنا بالأردن ، ثم مسح له رأسه ودعاه بالبركة ! .

فقال واصل : واحتاج عيسى إلى تعميد يوحنا وأن يمسح له رأسه ويدعوه بالبركة ؟ فاعبدوا يوحنا إذن فهو خير لكم من عيسى .

فسكت القدس ، واغتاظ بشير وصاح به : قم ! دعوتك لِتُنَصِّرَهْ فإذا أنت قد أسلمت ..

ونهى أمر الأسير الفقيه ومحاوراته الطريفة إلى الملك وكبير بطارقته ، فطلبه إليه وسائله : ما الذي بلغنى عنك من انتقادك لدیني ووقعتك فيه ؟

قال واصل : إنني لم أجده بدأ من الدفاع عن ديني ! فتدخل كبير البطارقة محاولاً بوقاره وهيمنته الروحية أن ينهي هذا الأمر ، ونظر واصل فرأى تحت أردية الكهنوت جسداً متين البناء ، عارم القوة ، فسأل الملك بفترة : هل للحبر الأعظم من زوجة ولد ؟ وعرف الملك مثار التساؤل فقال له : صره .. هذا أزكي وأطهر من أن يتصل بأمرأة ! أو يستمتع بجسده .

قال «واصل» على الفور : تأخذكم الغيرة من نسبة المرأة إلى هذا وتزعمون أن رب العالمين سكن جوف امرأة وعاني ضيق الرحم وظلمة البطن عجباً ! تعبدون عيسى لأنه لا أب له ، فلم لا تضمون إليه آدم فيكون لكم إلهان . أو عبدتموه لأنه أحيا الموتى ؟ فعندكم في الإنجيل أن حزقييل مربى فؤادي وتكلم معه ، فضموه كذلك إلى شركة الآلهة ! أو عبدتموه لأنه أراكם المعجزات ؟ فهذا يوشع رد الشمس إلى فلكها إذ كانت تغرب ، أو عبدتموه لأنه عرج في السموات ؟ فهو لاء ملائكة الله مع كل شخص أعداد يتناوبون بالليل والنهار ، أو ...

فقطاعه الطريق : أحسأ يا شيطان .. هذا التجديف أحل بك القتل !

قال : إنني أسير .. وثم ورائي من إذا بلغه خبرى لم يمنعه مسلككم معى من أن يثارلى ... أيها الملك : سل هؤلاء الأساقفة عن الأصنام التي في كنائسكم هل تجدون لها في الإنجيل مبرراً ؟ فإن كانت في الإنجيل فلا كلام لنا وإنما أشبهكم بالوثنيين .

قال الملك - وقد أخذته دهشة ، وانجلت عن بصره غشاوة - : صدقت قد يعقل ما تقول !

﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالَمُونَ﴾ (٤٢).

قال القدس : هذا شيطان من شياطين العرب أخرجوه من حيث جاء ، ولا تقطر من دمه قطرة في بلادنا فتفسد علينا ديننا .

(٤٢) العنكبوت : الآية ٤٢ ، ٤٣ .

سعد بن أبي وقاص

تمر بالأئم فترات كثيرة ، يتولى الأمور فيها من لا قدم له ولا سابقة ، فتراه أميراً يسوس الناس ويوجه الأمور ، وهو لا يملك من أنصبة الكفاية والأمانة ما يجعله لذلك أهلاً . على حين ترى أولى الرأى والحجاج منزويين غامضين لا يقدرون على شيء ، ولا تستفيد أمتهم من عبقرياتهم شيئاً .

ولعل ما يزيد الطين بلة في هذه النقائض ، أن ترى ذباب البشر يحفون بأولى الخول والطول متسلقين متمدحين ، وأن تراهم في الوقت نفسه يتناولون الكبار بأسنة حداد ، مطبقين المثل القائل :

«إن الدنيا إذا أقبلت على أحد أعارته محسن غيره ، وإذا أدبرت عنه سلبيته محسن نفسه» .

ويالله من تهاوى الجماهير في هذه العجائب !!

إن للجماهير تصرفات تخنق الحليم ، وأراء تبعد عن السداد ، وليس أدل على ذلك من أن أقواماً من أهل الكوفة تطاولوا على مكانة سعد فاتهموه . . . بأنه لا يحسن الصلاة ! ليعزلوه عن الإمارة .

سعد الذي اختاره عمر ليكون على حد التعبير الحديث «القائد العام» للجبهة التي افتحتها المسلمون شرقاً لهم فارس ، وفارس يومئذ نصف ضلال الأرض ، ونصف دائرة الكافرة التي حطم المسلمين الأولون أسوارها الهائلة ، ثم انسابوا من ورائها فلم تردهم إلا شواطئ البحار .

سعد الذي رشح لإمارة المؤمنين في العصر الذي لا يرشح فيه لهذا المنصب الأجل مغموز أو ضعيف ! والذى قاتل يوم أحد قتال المستسلين حتى جمع له الرسول ﷺ بين والديه كليهما ، وهو يقول له : «أرم فداك أبي وأمي» . ذلك سعد الذي يستمع إلى أكاذيب خصومه فيجيب في إيمان : «إني لأول العرب رمى بسهم في سبيل الله ! والله إنا كنا لنغزو مع رسول الله ﷺ مالنا طعام إلا ما ترعاه الغنم وما بنا أحد ذو ملق ! ثم أصبحت بنو أسد تُعززُنِي على الدين !! لقد خسرت إذن وضل عملي» .

وحاشا لسعد ، ولكنها مزالق كثیر من الناس فی كل عصر لا ينجو منها العظماء ،
ولو كانوا کابن أبي وقاص .

● إسلام سعد !

أسلم سعد فی السابقين الأولین من نقباء الدعوة الأولى وأركانها المكينة فكان واحداً من هذه الطائفة التي رباهما القرآن ومهدها الرسول ﷺ ، والتي لم تزد السنون بنيتها إلا وفاة وجهاداً ، حتى تنزل الوحي مشيداً بكرامتهم وسابقتهم في غير آية .

يقول سعد : رأيت فی المنام قبل أن أسلم بثلاثة كأنی فی ظلمة لا أبصر شيئاً ، إذ أضاء لى قمر فاتبعته ، فكأنی أنظر إلى من سبقنى إلى ذلك القمر ، فأناظر إلى زید بن حارثة ، وعلى بن أبي طالب ، وأبی بکر ، وكأنی أسألهم متى انتهیتم إلى هنا ؟ قالوا : الساعة ، ثم بلغنى أن رسول الله ﷺ يدعو إلى الإسلام مستخفياً ، فلقيته فی شعب أجياد ، وقد صلی العصر ، فأسلمت ، فما تقدمني أحد إلا هم .

وقد حاولت أم سعد أن ترجعه إلى الوثنية الأولى ، وهددها أن تتحر جوعاً إن لم يجدها ، فقال لها سعد : والله لو أن لك ألف نفس فخرجت نفساً نفساً ما تركت ديني هذا الشيء ، فكسرت عزيمته عزيمتها ، وتراجعت ولم يتراجع ، وكان سعد معروفاً بأنه أكثر الناس بأمه برأ .

● سعد الجندي :

كان سعد فارساً عارماً القوة ، راماً مسدداً الرمي ، لم تفتته غزوة يعرض روحه في حومتها ابتغا رضوان الله ، فهو من أبطال الجهاد المادي والأدبي . رمى في غزوة أحد بآلف سهم ، وثبت مع رسول الله ﷺ وقاتل دونه ، وكان يحمل في غزوة الفتح إحدى رایات المهاجرين . ولعل اشتراك سعد في هذه المشاهد كلها قد أكسبه مهارة حربية فائقة رشحته - إلى جانب إسلامه وإيمانه - ليكون في مستقبله من كبار القيادة الفاتحين ، فإذا ظفر مع هذا بدعاوة النبي ﷺ له : «اللهم سدد رميته ، وأجب دعوته» ، علمت أي قوة من قوى الإيمان قد سلطت على مجوس فارس يوم أن رماهم عمر بسعد ، فسار إليهم والصحابة يقولون عنه : «إنه الأسد عادياً» .

● سعد القائد:

من العسير أن نرجع انتصارات المسلمين في صدر تاريخهم الرائع إلى جهد فرد وكفایته وتدبیره ، فنصیب الجندي المغمور في إحراز هذا الفوز لا يقل عن نصیب القائد المشهور ، إذ كان اليقين الحض هو الروح الثائرة الدافعة لهذه الموجات المتراجدة من جند الإسلام ، تحرف أمامها كل ما حشد أعداء الله وأعدوا .

ولكن هذا لا ينقص وظيفة القيادة التي إذا نجحت في مهمتها استطاعت استغلال هذه الحماسة المتأججة ، وتنظيمها وتركيز ضرباتها ، وبلوغ هدفها .

ولقد بلغ سعد من ذلك شأواً بعيداً ، فلما أدار دفة الحرب في القادسية والمدائن كانت أعصاب الرجل العظيم لا تخور في مأذق ولا تلين لنكبة ، ولقد احمرت مياه الأنهر لكثرة ما امتزج بها من دماء القتلى ، كما احمرت لذلك أحذاق سعد ، وأكرهه المرض ألا يقف على قدميه ، فكان يصدر أوامره السريعة في رقاع من الورق ، ويشرف على فصائل البدو وهي تشتبك في أقسى قتال مع جيوش مدربة معبأة ، ليالي عدداً يتصل ظلامها بنهاها ، ويستميت الفريقان فيها ، كل في موقفه لا يرخصه عنه إلا الموت .

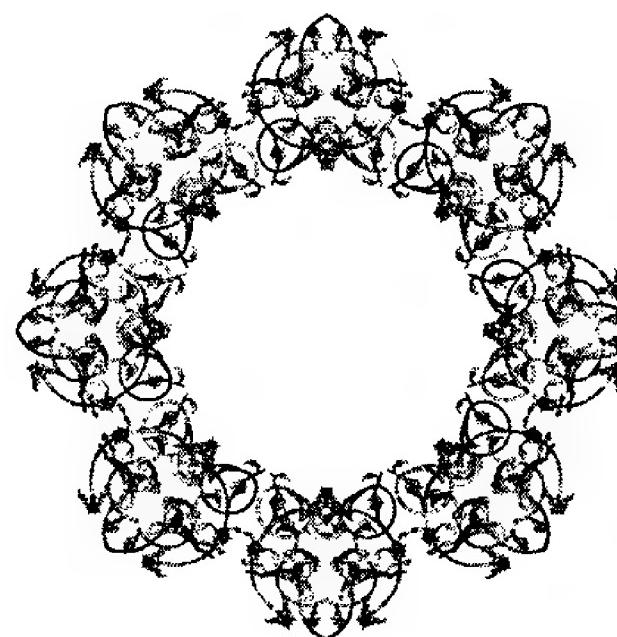
● دعاية سعد:

وليس دعاية سعد كذباً مما استمرأه تجار السياسة في هذه الأيام ، إنها هي دعاية الإسلام ، فيها أثر السماء وظهور الوحي ، فهو يرسل إلى كسرى مندوبيه ليفاوضوه ويعرضوا عليه ما عندهم ، وليعرفوا ما عنده فيقول قائلهم لوجهاء فارس : «إن الله رحمنا فأرسل إلينا رسولاً يأمرنا بالخير وينهانا عن الشر ، ووعدنا على إجابته خير الدنيا والآخرة ، فلم يدع قبيلة إلا صدقته منها فرقة وتبعاً دبت فرق ، ثم أمرنا أن نبتدئ إلى من خالفه من العرب ، فبدأنا بهم فدخلوا معه على وجهين ، مكره عليه لم يلبث أن اغتبط ، وطائع فازداد من عند الله ، ولقد علمنا جميعاً ما جاء به على الذي كنا فيه من العداوة والضيق ، ثم أمرنا أن نتوجه إلى من يلينا من الأمم فندعوهم إلى الإنفاق .. فنحن ندعوكم إلى دين حسن الحسن كله وقبح القبيح كله ، فإن أبيتم فأمر من الشر هو أهون من آخر شر منه ، الجريمة ، فإن أبيتم فالحرب ، أما إذا اخترتم ديننا .. خلفنا فيكم كتاب الله على أن تحكموا بآحكامه ، ونرجع عنكم وشأنكم وببلادكم » .

يترون لهم بلادهم ما داموا فيها يعبدون الله وحده ..
هذه نظرية «الاستعمار» الإسلامي - لو صح التعبير - التي لا تعرف استغلالاً
ولا استبعاداً ، والتي يحاول بعض السفهاء أن يقرنوها بالاستعمار الأوروبي ، لأن
بينهما شبهاً .

● سعد الأمين:

ولى سعد الكوفة ، وسار فيها سيرة عمر ، ثم عرض له ما أشرنا إليه فى بداية
الحديث ، فترك الناس وأثر الوحدة ، وحدثت الفتنة الكبرى فاعتزل الناس جميعاً وهو
يقول : ما بكيت من الدهر إلا ثلاثة أيام : يوم توفي الرسول ﷺ ، ويوم قتل عثمان ،
والليوم أبكي على الحق ، فعلى الحق السلام ...



خطين

مرت مئات السنين والشرق الإسلامي الأوسط يهب عليه وباء متتابع من زحف الصليبيين القاسى ، واندفعا لهم في صميم الرقعة المقدسة التي رفرفت عليها أعمال التوحيد دهراً ، وصارت بشرائها وبيتها وطن الإسلام الذي لا ريب فيه ، لقد كان المستقبل مبهماً ، وكان إلى الأمس القريب مظلماً لا تبدو فيه بارقة أمل . وماذا ترى العين خلال هذا الكسف المتسلط من ناحية الغرب ؟ لقد تضافرت قوى الصليبيين على أن يهدمو ما بني لله محمد ﷺ وأصحابه ، وهذا هو ذا جيشهم تنتظم فرقه أمشاجاً من إنجلترا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا ، أخذوا على أنفسهم العهود أن يرتووا من دماء المسلمين ، وكلما انقطع فوج مبدأ فوق ، وكلما ظن المسلمون أن الهجوم انتهى إذا هو يبدأ انسياحه كرّة أخرى !

لقد عاش المسلمون أجيالاً متعاقبة قابعين في أوطانهم ، ولقد كانوا يغزون غيرهم ، وما يفكر في غزوهم أحد ، كانوا يصفعون الشيطان وما يستطيع الشيطان إلا الفرار من طريقهم ، حتى إذا ناموا في مهاد الراحة ، ولم يحلموا في نومهم العميق إلا بأمجاد الماضي البعيد جاء أوان اليقظة المريدة ، فصحووا على سنابك الخيل الكافرة تقتتحم حدود الأنضول وتهبط إلى بوادي سوريا ، وتجتاز مغارس الزيتون من فلسطين .

وحاول المسلمون عبشاً أن يطفئوا النار التي اشتعلت في ديارهم فجأة فوقوا يضربون يميناً وشمالاً ، ولكن خطط الدفاع المرتجل لم تجد فتيلًا أمام سيل هذا الهجوم المبيت . وانفتحت العيون على الحقيقة القاتلة وعلى الواقع الحقير فإذا الشرق الإسلامي مقطع الأرجاء ، عزق الأحساء ، وإذا المسلمون يعيشون في مستعمرات لاتينية ، يبسط السلطان فيها حكام صليبيون !

إن البعض قد يسىء الظن بالأمة الإسلامية حين تخضع للانكسار العسكري ، ولعله يحسب باطن النفس الإسلامية من ظاهرها ، ويظن أن سكتتها للغلب القاهر سكتوت قبول ورضا واستكانة ، وهذا خطأ فإن المسلمين الذين رباهم القرآن الكريم على ضرب من الأدب يفرض أن يكونوا على حد ما قال :

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمْ الْبُغْيَ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾^(١) هؤلاء المسلمين عرفوا أن اليوم ليس لهم فلم يقنعوا من الغد ، وعرفوا أن الله لم يخلفهم وعده ، وإنما هم الذين أخلفوا الله العمل فلما تذاكروا تفريطهم السيئ وتهيئوا لصلاح شئونهم :

﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقْلُ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ * قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * فَأَقْبَلَ عَضْهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوَّمُونَ * قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ * عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُدْلِنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾^(٢) .

ولقد أبدلهم الله خيراً ألف مرة من المرة التي أصابتهم بعد أن اصطلحوا على مولاهم الكريم ، وهذا هي ذى القلوب تقر بالإيمان وتفيض باليقين ، من هذه الصفوف التى كانت منتقطة الغزل موزعة الرأى ثائرة الهوى ، فأصبحت بين عشية وضحاها متساندة القوى ملتصقة المناكب بادية الإخاء ؟ وهؤلاء الحكام الذين كانوا ألعوبة فى أيدي الغاصبين ومكر المحتلين ، لقد حالوا خلقاً آخر من طراز كريم !! أجل .. فقد عاد لل المسلمين رشدهم ، وهم الآن يتهدلون لكيما يكيلوا لأعداء الله ضربة تحول بأسها كل ما ذاقه الصليبيون من نصر قديم .

حقاً إنها أعوام طوال ، ولكن ما قيمة عشرة أعوام أو عشرين أوأربعين فى تاريخ أمة تقطع عمرها على الأرض بالقرون ؟

وحقاً لقد غضب المسلمين فى قرارتهم إذ شعروا ببيت المقدس يغشاه غير أهله وبأولى القبلتين يعطى مصلاحاً العتيد ! بلى .. والله إن الأمر لحزن .. .

ثم بدأ الصراع ، وتطلعت آمال الشرق والمغرب إلى نتائجه ، الصليبيون من ورائهم أدداد أوروبا تختر عباب البحر ، وتحت أيديهم أراضٌ واسعة يتسبّثون بها منذ أن انتصروا في المعركة الأولى ، وفي قلوبهم غليل أسود غرسته أكاذيب رجال الكهنوت من كانوا يبيعون أرض الجنة بالقراريط لمن يشاءون !

وهناك المسلمون الذين تختلج في حنایاهم قلوب عامرة ، فيها الحفاظ على رسالة التوحيد وبذل المهج دونها .. ولا ريب أن إبلاغ هذه الرسالة العظمى مرتبط ببقاء الدولة الإسلامية في هذه الحياة ، فلا بد من إلقاء المغيرين عليها إلى جوف البحر ،

(٢) القلم : الآية ٢٨ - ٢٢ .

(١) الشورى : الآية ٣٩ .

أجل لابد من إدراك التأثير لمن ذبحوا ، وغصبوا فى فترة حكمهم المشئوم ، ولا بد من أن يدفعوا أرواحهم وعتادهم ثمناً لجراءتهم على النزول بهذه الديار .

أهاجت هذه المشاعر أجناد «صلاح الدين» فخرج بهم وخرجوا معه ، واستعد الصليبيون للقاءه ، وجمع القدر بين الفريقين عند تل حطين ؛ وانتظر المسلمون فى مساجدهم من المحيط إلى المحيط أنباء القتال الذى اكتتبوا فيه بأموالهم وأبنائهم .

انجذب الظلام ، وصلى المسلمين الفجر ، وتحركت طلائعهم من الفرسان تهدى الطريق للمساواة خلفها ، واشتد قذف النشاب وإرسال السهام .

وكان الأوروبيون يعلمون أن تقرير مصيرهم موكول إلى هذه المعركة فهم فرسانهم على قلب الجيش واستطاعوا أن يفتحوا فيه ثغرة واسعة ، إلا أن القائد المخلى له بهذه الجبهة «تقى الدين بن عمر» تمكن بمهارته من أن يطوق الفرق التى انسابت من هذه الثغرة ، وأن يشعل حولها النيران فى الحشائش الجافة ، ثم اشتبك بها عنوة وقدف بقواته فىأتون المعركة الطاحنة ، وهنا شعر الصليبيون بحرج مركزهم فاتخذوا منه مادة للاستماتة فى القتال وإحراز النصر ، وأحس صلاح الدين بأن المدى بعيد ، وأن استبسال الفريقين يجعل الغلب سجالاً بينهما ، فكان يطوف بنفسه على المسلمين يذكرهم الله ويحرضهم على الجهاد ، ويأمرهم بالخير ، وينهاهم عن الشر ، فكثير المسلمين واندفعوا إلى عدوهم حاسرين ، وتقربوا ببطء نحو سفح حطين ، وضيقوا الخناق على عدوهم ، فأمر «جاي» قائد الأوروبيين برفع الصليب الأعظم حتى ينود الفرسان عنه ، وكان الفرسان لا يحملون حملة فيرجعون إلا وقد قتل منهم عدد عظيم ، ففت ذلك فى عضدهم وألقى فى قلوبهم الوهن .

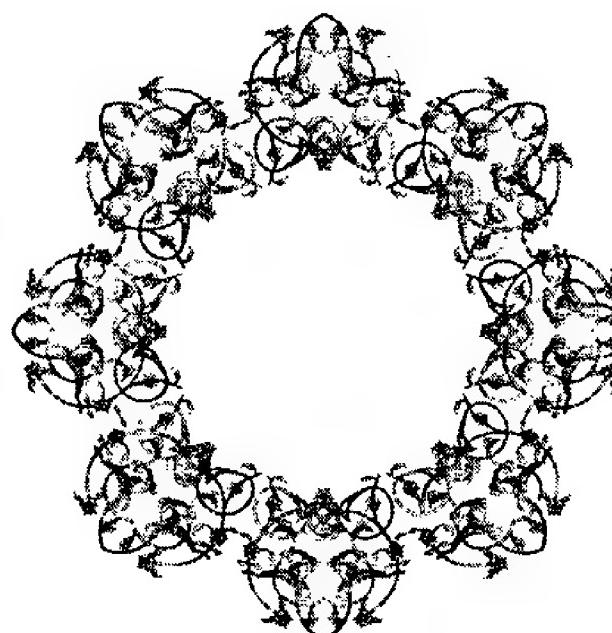
ونصب الصليبيون خيمة ملكهم ودافعوا عنها بعنف رائع ، فإذا كر المسلمين على حملتها ليسقطوا آخر لواء رفعه العناد ، ارتدوا عنها بتأثير دفاعهم المستميت ، فكان صلاح الدين يشير حماسة أتباعه عندما يرتدون بقوله وهو يصرخ : «كذب الشيطان» .

قال الأفضل بن صلاح الدين : «فلما رأيت المسلمين عادوا يتبعون الفرنجة صحت من فرحى : هزمناهم ، فعاد الفرنجة فحملوا حملة ألحقو المسلمين بوالدى ، فنظرت إليه

وقد علته كآبة وأربد لونه ، وعطف المسلمين عليهم كرة أخرى فألحقوهم بالتل ، فصحت أنا أيضاً : هزمناهم ، والتفت والدى وقال : صه ما نهزهم حتى تسقط هذه الخيمة ، فبينما هو يقول ذلك إذ بالخيمة قد سقطت ، واجتاحت ألوية المسلمين المكان كله ، فنزل السلطان وسجد شكرًا لله ، وبكى من فرحة .

وكان يوم حطين له ما بعده من فتح زلزل أقدام الكفر ، فلم يستطع مقامًا إلا تحت الشري ، وفي ذلك يقول الشاعر :

أتري مناماً ما بعيني أنظر
القدس يفتح والفرنجة تكسر ؟
ومليكتهم في السجن مأسور ولم
يك قبل ذاك لهم مليك يؤسر
قد جاء نصر الله والفتح الذي
وعد الإله فكبروا واستبشروا



هذا الدهاية هو الذي عرف علينا !

كان الناس يعتقدون أن هذا الزحف لن يتوقف ، وأن هذه الفتوح المتراصة لن يرتد سيلها حتى يغمر أرجاء العالمين . ها قد أصبحت «إفريقيا» مسلمة ، وهذا قد اجتاز المسلمين مضائق البحر وأسسوا لهم نقطة ارتكاز في أرض «الأندلس» ثم ماذا حدث ؟ إن طارقاً العنيد يقرع أبواب «أوروبا» من الجنوب والغرب ، وسوف ينكسر تحت ضرباته الجبارية كل ما استعصى فتحه من هذه السدود القائمة .

نعم . . . ما أسرع ما تحقق الظنون ، فإن رأس الجسر الذي أقامه العرب والبربر ما لبث حتى اتسع وامتد واستوعب في امتداده شبه جزيرة «أيبيريا» بما فيها من أملاك «أسبانيا» و «البرتغال» .

واطرد الزحف الفريد في نوعه فإذا المسلمون يطلون من خلال جبال البرانس ، وينظرون إلى ما وراءها نظرة لها مغزى يعرفه الأصدقاء الذين امتلأت قلوبهم ثقة ، ويعرفه الأعداء الذين امتلأت أنفاسهم يأساً . ومن ثم بدأ دور جديد في هذا الصراع الفريد . ترى ما سيكون ؟ إن المسلمين يفكرون في غزو فرنسا فهل سيتحقق الغد أملهم؟ لقد شرعوا رماحهم وتحفزوا للوثوب .

غزو ، ورماح ، وهجوم ! ما أكذب هذه الكلمات في دلالتها على وقائع الفتح الإسلامي الكريم ؛ إذ ما تكون حروب التحرير ووسائل التضحية في سبيل الله ، وفي إنقاذ الشعوب من مسترقبيها ؟

إن فتوح العرب كانت حروب تحرير وتطهير ، لا حروب إذلال وتدمير ، ولو لم يقم العرب قوتهم المسلحة هذه لظلت أوروبا على حالها الأولى ، تعمر فجاجها قبائل القوط والغالة والسكسون ، ولتأخرت الإنسانية في طريق الحضارة قروناً طوالاً ، فليذكر هذه الحقيقة من يحسبون الجihad الإسلامي غزوًّا استعماريًّا ، ول يقولوا بعد ذلك ما يشاءون .

وأتم عبد الرحمن الغافقي أمير المسلمين في الأندلس عدته ، وأخذ أهبيه ، وشرع يرسل طلائعاً إلى قلب بلاد الغالة ، أي صميم فرنسا ، حتى استطاعت بعض الفرق الإسلامية أن تصلك إلى مدينة «بوردو» غرباً ومدينة «ليون» شرقاً . ومن المسلم أن مقاومة الشعوب لهذا الفتح الإسلامي كانت ضعيفة ، على عكس ما كان يقوم به

رجال الكهنوت وطوائف البدو من دفاع عنيف وإن كان ذلك لم يمنع أن تدخل أقاليم شتى من جنوب فرنسا في دين الله ، وأن يجد الإسلام قلوبًا مفتوحة لمبادئه ، وأيدي ميسوطة لرجاله .

وببدأ الزحف يتسع وتبين أهدافه ، واندفع المسلمون صوب حدود فرنسا الشرقية في حركة جريئة يحاولون بها اجتياز ألمانيا نفسها . وبدا للناس كأن السبيل لا يزال في مده وأنه سيكتسح كل ما يعترضه ، ولكن الغربيين قرروا أن يجمعوا كلمتهم ، وأن يبذلوا آخر ما لديهم من جهد ، وأخر ما عندهم من استطاعة ، وأن يلقوا بصيرهم في معركة حاسمة تستسلم بعدها أوروبا قاطبة ، أو يرتد بعدها العرب الفاتحون على أعقابهم .

وانتخب الفرنجية «شارل مارتل» قائداً لهم في هذه المعركة ، وسلموا له مقاليد أمورهم . وكان شارل هذا رجلاً فطناً ذا كياسة ودهاء لم يلبث أن أدرك حقيقة موقفه ، فقرر أن يحتال لقومه ، وأن ينتهز الفرصة السانحة ليشتترك في المعركة التي يضمن نتائجها ، ويطمئن إلى نهايتها ، وخلاصة سياسته مع المسلمين تتضمنها هذه الخطبة القصيرة له - وهي خطبة ذات معان لن تزال ماثلة إلى الأبد تشهد بالذكاء لصاحب الذكاء ، وبالخيبة لمن يستحقون الخيبة .

خطب شارل مارتل في قومه فقال : «الرأي عندي ألا تعترضوا العرب فإنهم كالسيل المنحدر يجرف ما يصادفه ، وإنهم في إقبال أمرهم عقدوا نيتهم وجمعوا أمرهم فأصبح الرجل منهم يغنى عن كثرة العدة ، واتحدت قلوبهم فصارت أشد من حصانة الدروع ، فأمهلوهم حتى تملئ الأيدي من الغنائم ويتحذموا المساكن ، ويتنافسوا على الرئاسة ، ويستعين بعضهم على بعض ، فإذا كان ذلك فإنكم ستتمكنون منهم بأيسر ما تبذلون .. ». .

رأيت إلى هذه الخطبة أيها القارئ ؟ فلتنظر إلى المعسكر الإسلامي لترى ما فيه ، ولتقرأ قول الحق : ﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ...﴾⁽¹⁾ .

إن هذا القائد الذهنية هو الذي عرف علتنا ، فاستعان على بلوغ غايته بيده وأيديينا معها ! لاحت بوادر الفتنة في جيوش المسلمين ، وببدأ كل قطر يذكر نفسه ، ويرفع رأسه على حدة ، أهل الشام يكرهون أهل العراق ، وأهل الحجاز ينقمون أهل اليمن !

(1) سبأ : الآية ٢٠ .

واستيقظت صيحات الجahليّة الأولى التي طالما عمل الإسلام على سحقها ، وتطهير النفوس من رجسها ، فهذا مضرى ، هذا تميمى ، وهذا قيسى ! وقامت الأحزاب تتولى الحكم على هذه الأسس ، كلما تولى أمير من قبيلة مالاً عشيرته وجار على أبناء القبائل الأخرى ، واستبدلت دنيا الأهواء بكثرة الناس ، فقل الصالحون المخلصون ، وتطلعت العين للدنيا وضاع أدب الدين بين حب المال والجاه ، وبهذه الروح المعنوية كانت جيوش عبد الرحمن الغافقى تستعد للاقاءة جيوش «شارل مارتل» التي جمعها ونظمها وقوم صفوتها للقاء الموشك على الواقع .

وبين مدینتي «تور» و «بواتيه» دارت الواقعة أو وقعت المأساة ! بين جيوش فرنسا وألمانيا معًا - فقد تحالف العدوان الألدان على دفع العدو المشترك - وجيوش المسلمين ، وظل القتال سبعة أيام شدادةً متقلبة الأدوار والأطوار ، وكان في الحقيقة اشتباكاً مروعًا بين الشرق والغرب ، وصراعاً له ما بعده من آثار بعيدة . وقد عرف الغربيون ذلك ، فاستعدوا له على حين كان جيش المسلمين الإقليمي في الأندلس هو الذي يخوض وحده غماره ، ويتحمل وحده نتائجه المستقبلة . وقد علمت أن بعضهم كان يذوق بأس بعض فلا عجب أن يذيقهم الله بأس عدوهم كذلك . فقتل عبد الرحمن وأصابت المسلمين خسائر جسمية ، وحلت الهزيمة بالعرب والبربر وبسائر الأحزاب المتكالبة على الدنيا ، والتصايحة بصيحات الجahليّة ، المتبعادة عن هدى الإسلام وطار النباء الغريب حقاً ! إلى آفاق المشرق والمغرب .

لقد توقفت حركة المد وتكسرت موجاتها بعد لأى شديد .

نعم لقد تكسرت موجاتها لأن قوة التيار - تيار الإيمان - انقطعت منها لا لأنها اصطدمت بحاجز عنيد .

ومن عجب أن المسلمين اليوم يكررون الغلطة نفسها ويكرر عدوهم الدور نفسه .

ولله في خلقه شئون : ﴿ وَمَا ظَلَمْهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾^(٢) .

(٢) النحل : الآية ٣٣ .

مصعب بن عمير

● فاتح المدينة قبل الهجرة:

نحن أئمَّاً رجُل مبادئٍ من الطرازِ الْذِي يُظْهِرُ فِي آفَاقِ الْحَيَاةِ ثُمَّ يَخْتَفِي كَمَا يَظْهُرُ الشَّهَابُ فِي ظَلَمَاتِ اللَّيلِ الْبَهِيمِ ، وَيَبْرُقُ وَمِيقَدُهُ لَحَظَاتٍ ثُمَّ يَتَوَارَى سَرِيعًا وَقَدْ احْتَرَقَ بِمَا فِيهِ ، وَنَشَأَ مصعبُ بْنُ عَمِيرٍ وَمَحِيَّاهُ وَمَاتَهُ فَصُولُ فَرِيدَةٍ فِي تَارِيخِ الدُّعَوَاتِ الْكَبِيرِ ، الدُّعَوَاتُ الَّتِي تَقْوَمُ عَلَى الْجَهَادِ الْمُضْنِيِّ ، وَالْكَفَاحِ الرَّهِيبِ ، وَالَّتِي تَتَطَلَّبُ لَهَا وَقُوَّدًا مِنْ شَهَادَاءِ لَا يَعْرِفُونَ إِلَّا التَّضْحِيَةُ وَالْفَدَاءُ ، وَلَا يَنْتَظِرُونَ مِنْ هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَاحَةً أَوْ نَفْعًا .

وَقَدْ يَقْرَأُ الْمَرءُ سِيرًا شَتِّيًّا لِأَبْطَالِ كَثِيرِينَ ، وَلَكِنَّهُ مَا إِنْ يَنْتَهِي مِنْ قَصَّةِ مصعبٍ وَيَتَبَعُ مَرَاحِلَهَا الْأُولَى وَالْآخِيرَةِ إِلَّا وَيَشْعُرُ بِأَنَّهُ أَئِمَّاً بِطُولَةِ خَاصَّةٍ . حَشُوْدِيَّهَا الْيَقِينُ الْغَالِيُّ وَالثَّبَاتُ الرَّاعِيُّ ، فَكَأَنَّمَا عَاشَ الرَّجُلُ مَا عَاشَ لِيَنْفَخَ مِنْ رُوحَهُ وَدَمَهُ وَأَعْصَابَهُ فِي مَثَلِ مِنْ هَذِهِ الْمَثَلِ الْعَلِيَّا الَّتِي يَتَخَيلُهَا الْبَشَرُ ، ثُمَّ يَوْلِي وَقَدْ تَرَكَ لِلْدُعَاءِ إِلَى اللَّهِ أَسْوَةً تَهْتَاجُ لَهَا الْمُشَاعِرُ ، وَتَرْمِقُهَا إِلَى الْأَبْدِ نَظَرَاتِ الْإِعْجَابِ وَالْتَّكْرِيمِ .

* * *

● أول الغيث:

قال علي بن أبي طالب : جئت إلى رسول الله ﷺ فجلست إليه في المسجد وهو مع عصابة من أصحابه فطلع علينا مصعب بن عمير في بردة مرقوعة بفروة غنم ، وكان أنعم غلام بمكة ، وأرفههم عيشاً ، فلما رأه النبي عليه الصلاة والسلام ذكر ما كان فيه من النعيم ، ورأى حاله التي هو عليها ، فذرفت عيناه و بكى .

قال عمر بن الخطاب : فسمعت الرسول ﷺ يقول : «انظروا إلى هذا الذي نور الله قلبه ، لقد رأيته بين أبوبين يغذوانه بأطيب الطعام والشراب ، ولقد رأيت عليه حلقة اشتراها بمائتي درهم . فدعاه حب الله وحب رسوله إلى ما ترون» . . .

هكذا بدأ مصعب صحيفَة إيمانه . . . ما إن دخل في دين الله حتى صرَحَ الشرَّ بينه وبين أسرته الثرية القوية ، فحرم من مالها وجاهها ، وكلَّفَ أن يذوق مرارة العيش

الشقي مع إخوانه الجدد من فقراء المسلمين .. نعم أصبح واحداً من فقراء المسلمين ، وهو الذي كان إلى الأمس القريب عضواً في بيئة متربة ، لها وجاهاها ومكانتها ، وتشهد بطحاء مكة أبناءها وهم يخبون في الحرير ، ويجررون أذيالهم غروراً وكبراً ، وأخشوشنت حياة مصعب وسرت فيها معانى القسوة والضيق ، غير أن البلاء الكبير لا يزيد النفس القوية إلا مصايرة وإصراراً ، فقد مرض المؤمن الراسخ في طريقه لا يلوى على شيء ، وتحمل سنوات الاضطهاد الأولى في مكة وهو راض عن ربه وعن دينه ، يقيم معالم الإسلام ، ويؤدي شعائره ، ويسارع إلى حفظ ما يتنزل من آيات الوحي ، وينتظم مع الرعيل الأول في دعم القواعد الأولى لهذه الأمة الناشئة ، وينتظر ما يتمشخص عنه المستقبل ، وهو لن يكون حاملاً في طوابيه أشد مما حملته هذه النفس الكبيرة من جهاد ، وتركت عليه من استعداد .

● الداعية المنتخب:

تابعت السنون وأهل مكة لا يتحولون عن موقفهم العنيد ، وتبيّن أنهم يكذبون صاحب الرسالة العظمى تجاهلاً لا جهلاً ، ولم يبق بد من توسيع نطاق الدعوة وعرضها على الأبعاد الغرباء ، بعد أن كذب بها المواطنون وصد عنها العشيرة الأقربون فأخذ الرسول ﷺ يبرز في المواسم والأسواق ويعرض نفسه على الوفود القاصدة إلى البلد الحرام ، وكان أن شرح الله صدور نفر من يشرب فاستجابوا للإسلام ودعوه ، وأظهروا استعدادهم لنصرته ، وأنس الرسول ﷺ الخير فيهم ، وأمل الدين على أيديهم التمكين والاستعلاء ، فقرر أن يبعث معهم رجلاً أميناً على الدعوة ليتعهدها في مستقرها النائي ، ونظر الرسول ﷺ إلى أصحابه ثم وقع اختياره على مصعب بن عمير ، فأرسله إلى المدينة ليبشر بالدين الجديد ، وليري الأنصار القرآن ، ويعلّمهم الإسلام .

وهناك بين منازل أهل الكتاب وقف ابن القرآن يرتل آياته ، ويترك أصداءها تسرى مع الريح ، لتداعب مضارب الخيام ، وتحرك نفوس الأعراب ، وتترك أفشل اليهود مليئة بالدهش لهذا الذي قرع عليهم أبواب مدینتهم بأنباء الوحي الجديد .

وببدأ مصعب بن عمير يؤدى رسالة الإسلام ، ويهدى الطريق للقائد العظيم الذي لم يكن أحد يعلم أنه سيأتي بعد حين . وكان مصعباً بعمله هذا يفتح الدعوة إلى

الإسلام ، في غير أوطان الإسلام ، ويعلم الدعاة كيف تكون الجرأة والمخاطرة والثقة بالنفس والتوكيل على الله .

● مناقشات :

جاء أسيد بن حضير - وهو مشرك - فوجد مصعباً في أحد مجالسه يدعو الناس إلى الله ، فغاظه ذلك المنظر ، وقال لمصعب في غلطة : ما جاء بك هنا ؟ أتسفة الضعفاء وتفتن النساء ؟ اعترف عننا ولا أرينك .

فابتسم مصعب وقال في كياسة : بل تجلس إلينا فتسمع ما نقول ، فإن رضيت بالأمر قبلته ، وإن كرهته كفت عنك ما تكره ، فحار أسيد في الجواب ، ونظر إلى ما يصبح وجه مصعب من يقين ورجاء ، ثم لم يستطع إلا أن يقول : لقد أنصفت ، هات ما عندك .

وتكلم مصعب وقرأ وفاض إيمانه ببيانًا دافقاً يشرح ويحاج ويصل إلى مواضع الإقناع من السامعين ، فلما انتهى من حديثه ، قال أسيد في عجب ودهشة : ما أعظم هذا وأجله ، وترك الداعية وذهب إلى حال سبile وفى نفسه حوافر تقاد تحيله شخصاً آخر .
نعم فقد وقع الإسلام بمكان من قلبه .

وتقابل أسيد هذا مع سعد بن معاذ ، وكلاهما من سادة يشرب وذوى الرأى فيها ، ودار بينهما حديث انطلق عقبه سعد إلى مصعب ليكتشف حقيقته وحقيقة ما عنده ، لقد كان قبلاً يتوعد هذا الرجل الطارئ ويعين عليه ، وهو الآن مبلبل الفكر بعد ما أدرك من دخيلة نفس أسيد صديقه الحميم أنه اطمأن إلى الدين الجديد ودخل فيه ، والتقوى سعد بصعب وحاول أول الأمر أن يستفزه بالكلم القاسي والنقاش الحاد ، ولكن مصعباً لم يخرج عن طوره الجميل وسمته النبيل وحواره اللبق وعرضه الهدائى .
وابصر سعد الحق فلم يتردد في اعتماده ولم يأت المساء إلا وهو بين قومه يهدى بينهم بصوت ثائر «إن كلام رجالكم ونسائهم على حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله» ! .

واستمر مصعب يدعو وينتقل في دعایته من نجاح إلى نجاح ، فلم يبق بالمدينة على سمعها بيت إلا سمع بالإسلام إن لم يكن دخل فيه . . . استمر مصعب يدعو وبينه وبين صاحب الرسالة المجاهد في مكة مئات الأميال !! وماذا يصنعه بعد الشقة في صدق الإيمان ، وصدق الوفاء ، وصدق العمل ؟ . ها قد قارب العام النهاية ، وهذا قد

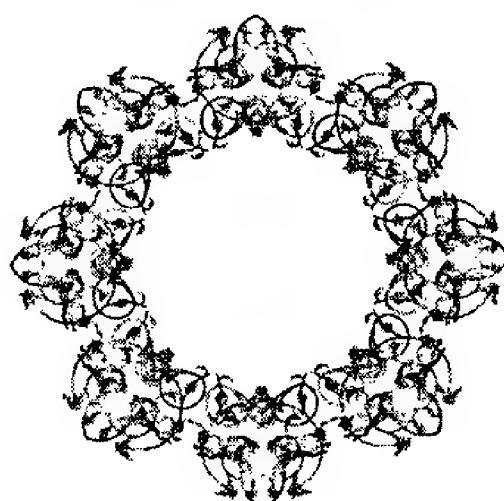
ذهب وفد يربو على السبعين إلى مكة ليбاعوا الرسول ﷺ على أن يحيطوا دعوته بأسوار من الدم والحديد ! حقاً لقد كان مصعب داعية موفقاً ، إنه - لا ريب - فاتح المدينة قبل الهجرة الكبرى إليها . . .

● في سبيل الله :

قال خباب : هاجرنا مع النبي ﷺ ، ونحن نبتغي وجه الله فوجب أجراً علينا الله ، فمنا من أينعت له ثمرته في الدنيا فهو يستمتع بها ، ومنا من مضى لم يأخذ من أجره في الدنيا شيئاً ، منهم مصعب بن عمير قتل يوم أحد ، فلم يترك إلا ثواباً بالياً ، كنا إذا غطينا به رأسه خرجت رجلاته ، وإذا غطينا به رجليه تعرى رأسه ! . فقال لنا النبي ﷺ : «غطوا به رأسه وألقوا على رجليه من الإذخر» - أعشاب الصحراء .

كذلك مات الداعية البطل ، القارئ إذا عد القراء ! والفارس إذا عد الفرسان ! .. مات لم يشهد فتح مكة التي ضاقت بإيمانه ، فخرج منها ليصنع بيديه الرجال الذين يفتحونها بإيمانهم ، مات في مراحل الجهاد ، فلم يحضر قسمة الغنائم ولم يستمتع بقليل منها ، مات وهو الذي ذاق أول حياته معيشة القصور . ثم لم يلبس إلا الخرق أول ما آمن ، ولم يكفن إلا في الخرق يوم مات شهيداً . نعم مات بعد أن أسلم على يديه أسيد الذي تنزلت الملائكة لقراءته القرآن ، وسعد الذي احتفى بمقدمه - يوم وفاته - عرش الرحمن .

ذلك هو الداعي الذي يجب أن يفقه سيرته الدعاة .



معركة مؤتة

هبت نسائم الشمال على الجيش المتحفظ المرابط بضواحي المدينة ، فحملت معها صورة باسمة طافت بأخيلة الغزاة الذين سيرأخذون طريقهم عن قريب إلى مشارف الشام !

وكما لاحت من خلال الأفق البعيد أطراف الميدان المنتظر زاد تأهب هؤلاء للعمل الطويل ، والشقة البعيدة ، والجهاد المنشود ، وليس هذا أول عهد المدينة ولا آخره بتوجيه الزحف تلو الزحف إلى أنحاء الجزيرة الثائرة على ربها ونبيها ، العاكفة على أصنامها وأهوائها ، إلا أن هناك هدنة معقودة مع طواغيت مكة إلى حين ، فإذا وقف القتال في الجنوب فلن يتوقف في الشمال وستدور رحاه لتطحن تحت وطأتها الثقيلة الأديان البالية ، ولتخفي تحت الشرى مبادئ وأحزاباً طالما أصقت الإنسانية بالشري ، وحاولت أن تعتدى على طلائع الهدى الجديد ، لتبقى العالم في إسارها ، وتكوينه أبداً بنارها ! . ولكن النبي المجاهد وأصحابه الأمجاد ، أبووا إلا المضى إلى غايتها ، والتنكيل بأشياع الباطل قبل أن ينكلوا بدعوتهم ، وفي هذه السبيل يتحرك الجيش إلى الشمال ليوطئ حدود الروم ، وليقذف الرعب في قلوب أذىالهم من العرب الموالين لهم ، وليرؤمن أسباب الدخول في الدين الجديد ، فلا يخشى أحد فتنته جبار عنيد ، وأقبل الناس لتدieux الجيش الزاحف واستعراض قواته ، وفي طليعتهم صاحب الرسالة العظمى الذي نظر إليهم نظرة عميقية ، ثم أصدر أمره بإسناد القيادة إلى زيد بن حارثة ، فإن قتل ، فإلى جعفر بن أبي طالب ، فإن قتل ، فإلى عبد الله بن رواحة ، واستمع الناس إلى الأمر وهم واجمون ، فقد ألغوا تقديرات النبي عليه الصلاة والسلام كأنما هي إيماء إلى ما خطه القدر ! . وأحسوا أن مصارع القادة الثلاثة ستجرى على هذا النحو .

● سبعون ضعفاً :

تحرك الجيش يطوى الصحراء إلى وجهته ، وكان عدده لا يتجاوز ثلاثة آلاف .. وبسبقه الأنبياء إلى العدو اليقظ ، فأعد لهذا الهجوم عدته ، وخرج «هرقل» ومعه مائتا ألف جندى لخوض المعركة الخطيرة ، وسمع المسلمون بهذه التعبئة المفاجئة ، فرأوا أن

الأمر يضطرهم إلى التريث والنظر ، فإن معركة هذا مبلغ التفاوت بين خواصها ، معروفة النتيجة .

وهم لا يرعبون الموت ، ولكن ما قيمة أن يسلمو رقابهم لأعداء يزيدون عليهم سبعين ضعفاً ؟ ثم ما فائدة الإسلام من مثل هذه المعركة البعيدة عن حدوده الأولى ؟ وما ضرر الكفر من ضحاياه القلائل فيها ؟ . لا شيء . . .

ومن ثم قرروا أن يكتبوا إلى النبي ﷺ يستشرونـه ، ويطلبون نصحـه وتجـيـهـه ، غيرـ أنـ عـبـدـ اللهـ بـنـ روـاحـةـ - وـكـانـ شـاعـرـاـ جـيـاشـ الإـحـسـاسـ - وـقـفـ بـيـنـ أـفـرـادـ الجـيـشـ يـخـطـبـ قـائـلاـ : «ـيـاـ قـومـ .ـ وـالـلـهـ إـنـ الـتـىـ تـكـرـهـونـ الـتـىـ خـرـجـتـ إـيـاهـاـ تـطـلـبـونـ ،ـ الشـهـادـةـ !ـ وـمـاـ نـقـاتـلـ النـاسـ بـعـدـ وـلـاـ قـوـةـ وـلـاـ كـثـرـةـ ،ـ مـاـ نـقـاتـلـهـ إـلـاـ بـهـذـاـ اـنـدـيـنـ الـذـىـ أـكـرـمـاـ اللـهـ بـهـ .ـ فـاـنـطـلـقـوـاـ فـمـاـ هـىـ إـلـاـ إـحـدـىـ الـحـسـنـيـنـ :ـ إـمـاـ ظـهـورـ ،ـ وـإـمـاـ شـهـادـةـ»ـ .ـ

فـقـالـ النـاسـ :ـ صـدـقـ وـالـلـهـ ،ـ وـسـارـوـاـ .ـ .ـ

وـلـاـ شـكـ أـنـكـ لـاـ تـنـتـظـرـ عـرـاـكـ حـقـيقـيـاـ فـيـ مـثـلـ هـذـهـ الـحـالـ .ـ وـقـدـ تـشـتـبـكـ الـقـلـةـ بـالـكـثـرـةـ ،ـ وـتـنـتـصـرـ الـأـولـىـ عـلـىـ الـأـخـيـرـةـ ،ـ بـلـ إـنـ أـكـثـرـ اـنـتـصـارـاتـ الـمـسـلـمـيـنـ كـانـتـ مـنـ هـذـاـ الـقـبـيلـ ،ـ وـلـكـنـ لـلـكـثـرـةـ الـتـىـ تـبـلـغـ سـبـعينـ ضـعـفـاـ شـأـنـ آـخـرـ ،ـ فـإـنـ أـقـصـىـ مـاـ أـمـرـ الـقـرـآنـ بـهـ أـنـ يـثـبـتـ الـوـاحـدـ لـلـعـشـرـةـ لـلـسـبـعينـ ،ـ وـمـعـ ذـلـكـ فـقـدـ سـارـتـ مـوـجـةـ الـحـمـاسـةـ فـيـ الـجـيـشـ كـلـهـ ،ـ وـأـثـرـتـ فـيـهـ مـقـالـةـ اـبـنـ روـاحـةـ الـذـىـ كـرـهـ أـنـ يـقـولـ لـهـ الـمـسـلـمـوـنـ وـلـإـخـوانـهـ سـاعـةـ الـوـداعـ :ـ (ـرـدـكـمـ اللـهـ سـالـمـيـنـ)ـ .ـ

فـقـالـ رـادـاـ عـلـيـهـمـ :

لـكـنـىـ أـسـأـلـ الرـحـمـنـ مـغـفـرـةـ وـضـرـبـةـ ذـاتـ طـعـنـ تـقـذـفـ الزـبـداـ

● في الميدان:

ماـذـاـ يـنـتـظـرـ الـمـرـءـ إـلـاـ أـخـبـارـ التـضـحـيـةـ الـبـالـغـةـ فـيـ هـذـهـ الـمـعـرـكـةـ ؟ـ وـمـصـارـعـ أـبـطـالـهـ وـاحـدـاـ بـعـدـ الـآـخـرـ .ـ قـاتـلـ زـيـدـ تـحـتـ رـاـيـةـ رـسـوـلـ اللـهـ ﷺـ فـجـالـدـ الـقـوـمـ مـجـالـدـةـ عـنـيفـةـ حـتـىـ تـخـرـقـ جـسـدـهـ فـيـ مـشـتـبـكـ رـمـاـحـهـمـ الـمـتـكـاثـرـةـ !ـ

ثـمـ حـمـلـ الـرـاـيـةـ مـنـ بـعـدـهـ جـعـفـرـ فـلـمـاـ اـشـتـدـ الـقـوـمـ اـقـتـحـمـ عـنـ فـرـسـ لـهـ شـقـراءـ فـعـقـرـهـ ثـمـ وـاجـهـ الـأـعـدـاءـ مـقـبـلاـ عـلـيـهـمـ بـعـزـمـهـ وـجـهـهـ ،ـ فـمـاـ هـىـ إـلـاـ لـحـظـةـ حـتـىـ أـصـيـبـ بـبـضـعـ وـثـمـانـينـ ضـرـبـةـ فـاضـتـ عـلـىـ آـلـمـهـاـ رـوـحـهـ !ـ

وأقبل الخطر على ابن رواحة فتقدم الرجل وقد أدهشه شدته وأخذته حذته ، فتردد بعض التردد ثم استفاق ، فحمل الراية وخاص المعمرة وقادى أعباءها .. وسمع في ناحية بعيدة صوت تحطيم أصابع صفوف المعاشر الإسلامي فأسرع الرجل إليه وظل يصارع ! حتى صرع .

واشتد الأمر على هذه الفئة القليلة فقتل منهم عدد غير فيهم قائداً الميمنة والميسرة ، وتكالب عليهم العدو طامعاً في استئصالهم ، فحمل الراية ثابت بن أرقم ، وصرخ : يا معاشر المسلمين .. اصطلحوا على رجل منكم ، فأرادوا الرضا به فأبى القيادة إذ لا طاقة له بهذا المأزق ، فاصطلح القوم على خالد بن الوليد فحمل خالد الراية لا ليستأنف الهجوم . لقد أدرك بخبرته الحربية أن هذه ليست الحرب المرجوة ، وأن المهارة كلها في أن يستطيع الانسحاب من معه انسحاباً لا يمس كرامة الجيش ، ولا يزيد في خسائره ، فقاتل قتال تقهقر حتى استطاع الإفلات من أوخم النتائج وأضرها بسمعة المسلمين في أنحاء الجزيرة ، نعم ... انتصر خالد بهذا الانسحاب البارع ، ونجا الجيش من الفناء المحتوم .

● تحليل :

ربما لا تكون لهذه المعركة قيمة من الناحية الحربية بعد هذه النهاية الفاشلة ، ولكنها من ناحية دلالتها على أحوال المسلمين النفسية ذات مغزى كبير ، حتى أن صراعها كان ملحوظاً من السماء ، ودوافع الهجوم والانسحاب فيها كانت تحت عين الله . أعلننبيه في المدينة بحقيقة ما حدث من هؤلاء المغامرين .

صعد النبي ﷺ المنبر ، ثم أمر فنودي : الصلاة جامعة ، فاجتمع الناس وخطبهم الرسول ﷺ محدثاً عن أخبار الجيش البعيد : «لقد لقوا العدو وقتل زيد شهيداً - واستغفر له - ثم أخذ اللواء جعفر فشد على القوم حتى قتل شهيداً - واستغفر له - ثم أخذ اللواء عبد الله بن رواحة وصمت حتى تغيرت وجوه الأنصار ، وظنوا أنه قد كان من عبد الله ما يكرهون ثم قال الرسول ﷺ : «فقاتل القوم حتى قتل شهيداً» .

ثم قال : «لقد رفعوا إلى الجنة على سرر من ذهب ، فرأيت في سرير ابن رواحة أزوراً عن سريري صاحبيه ، فقلت : مم هذا ؟ فقيل : مضيا وتردد بعض التردد ، ثم مضى .. ثم أخذ الراية سيف من سيف الله : خالد بن الوليد فعاد بالناس» .

والإنسان يحار في موقف عبد الله الذي كان أشد القوم حماسة واندفعاً ، بل لقد كان السبب في إثارة الجيش بشعره وكلامه ، كيف لم يكن إقباله على الموت سبباً يحسم من نفسه أسباب التردد والهيبة .

على أنه مات شهيداً وفاز بالنعمة الكبرى . وعندي أنه من الخير للمرء أن يدفن نيته في قلبه ، وأن يلتمس لتحقيقها الفرص ، فذلك أقرب إلى الصواب من كثرة التصرير بها والترجمة عنها ، فقد سبق زيد بصمته ابن رواحة بشعره وخطبه .. رضي الله عنهم جميعاً .

● أبناء الشهيد ..

كان جعفر رجلاً سمحاً بماله ، كما كان سمحاً بنفسه ، وكان مثال المؤمن القوي اليقين ، ترك زوجته وأولاده وذهب إلى ربه بتلك الخطأ الراسخة الجريئة ، فلم تخش نفسه بحب الحياة لحظة بين بوارق السيوف التي تخطف الأبصار والألباب .

قال النبي ﷺ : «مربي جعفر البارحة في نفر من الملائكة له جناحان يطير بهما في الجنة مخضب القوادم بالدم» .

ولما نعى جعفر إلى الرسول ﷺ ذهب إلى بيته ، وكانت امرأته قد انتهت من أشغالها ، ومن تنظيف أولادها وتطيبهم ، فأخذهم الرسول ﷺ واحتضنهم ، ثم غلبه التأثر فدمعت عيناه . فقالت زوجة جعفر في ارتياح : هل جرى لجعفر شيء ؟ قال : «نعم .. أصيب هذا اليوم» ودعا أهله يأمرهم أن يصنعوا طعاماً لآل جعفر ، فقد شغلوا بأتمتهم .

وعاد أخيراً الجيش المنسحب .. في معركة لابد فيها من الانسحاب فماذا كان موقف الناس منه ، لقد حثوا عليه التراب ، وتبعوه بهتافات السخرية : يا فرار .. يا فرار .. فررتم من سبيل الله ، فكان الرسول ﷺ يبتسم ويقول : «بل هم الكرار إن شاء الله» .

ختام

في هذا الكتاب أفكار وعواطف شتى ، صفا عرضها حيناً ، وغام حيناً آخر ، وإن اصطبغت في جملتها بحدة الشعور وحماسة العرض ...

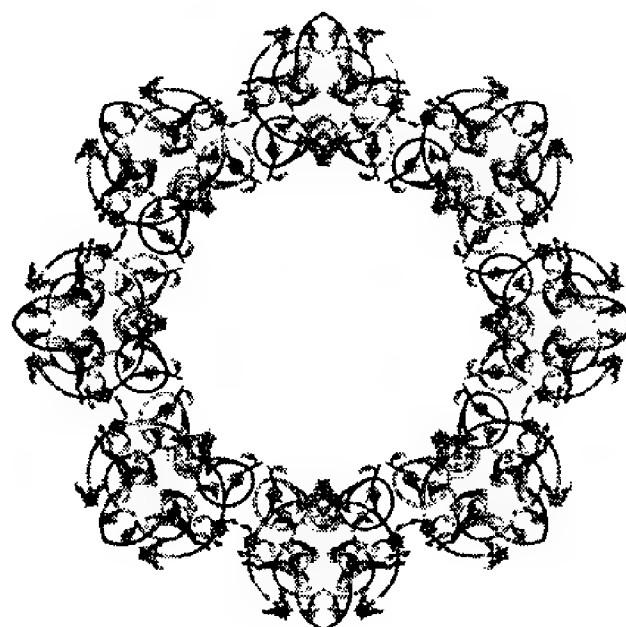
والأحوال التي عانتها بلادنا ، وذاق جمهور المسلمين نكدها ، كانت هي المداد الفذ لهذه المقالات ، والباعث على إرسالها هكذا ، خواطر مهتاجة ، لا يراد بها التحقيق العلمي أو التمحيق التاريخي ، بل يراد بها إنقاذ الهلکي وإحياء الموتى ، من أمتنا !! وإن لم تجاف في سردها أو سوقها حقائق العلم والتاريخ ...

لقد كتبت جملة كبيرة من هذه المقالات وأنا طالب بكلية أصول الدين .

وجملة أخرى وأنا أحارب أوضاعاً معينة في بلادنا ، فهي في جملتها ثورة روح يتوب ، وإيمان يجيش .

وأعني أنني لم أحاول تقديم دراسات جديدة تبدو للقراء في ألتبسة علمية ممتازة .

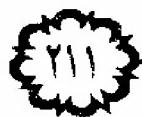
وإنما حاولت أن أمزج بعض حقائق الدين والتاريخ بلون من الأدب التوجيهي يعين على خلقوعي حر ، وجيل حر ، وأمة تفقه دينها ودنياه على سواء .



الفهرس

٣	مقدمة
سياسة الحرية والكافح		
٧	ثمن واحد لبضائع مختلفة
٩	ضريبة الدم والمال
١١	بالنفس والنفيس
١١	دين الحق والقوة
١٥	الشرق الأوسط بين حركات الأحرار وسياسة العبيد
١٦	طواغيت
١٧	ألقاب
١٩	حقيقة الألقاب
٢٠	من تاريخ الكبراء
٢٤	شرق جديد
٢٦	من سنن الحياة
٢٧	الأسباب والمسبابات
٢٨	رجال المبادئ
٣٠	إلغاء المعاهدات على ضوء الشريعة الإسلامية
٣٨	غصن باسق في شجرة الخلود
٤٠	الفدائيون
٤٢	مناسر اللصوصية العالمية
		ذكريات من الريف
٤٤	١ - غريب ... أبىت فىن ؟
٤٧	٢ - أديان مستغفلة
٥٠	٣ - رقيق الأرض ... كيف يموت ؟
٥٠	ثمن النخيل

٥١	بين الدين والدنيا
٥٣	فى عداد المخالفين
٥٤	موت .. وموت
٥٥	من أحلام المصلحين
٥٥	مشروع القانون الإسلامى رقم ١ فى صفيح السيرة
٥٧	معالم النبوة
٦١	عيد ميلاد أحمد
٦٢	هذا العلم معجزة
٦٣	وهذه العبادة !!
٦٤	الجاه المادى والأدبي
٦٦	تربيبة قادة
٦٧	عاطفة !!
عظمة الرسول في شخصيته		
٧٠	أنوار النبوة
٧١	سر العظمة
٧٣	هذه الرسالة الإسلامية
٧٤	عبدًا رسولاً
٧٦	الهجرة : عقيدة ، وتصحيحة ، وحب ، وفاء
٧٧	هجرة بدین لا فرار من موت
٧٩	لماذا أرخوا بالهجرة
٨٠	مبادری لابد منها
أيام في الصحراء		
٨١	دليل كافر
٨٢	إن الله معنا
٨٣	فى الطريق
٨٤	يا معاشر العرب



٨٥	الهجرة فكرة لا رحلة
٨٦	أشد الناس بلاءً
٨٧	في الطريق إلى يشرب
٨٨	منطق العقيدة
٩٠	لماذا حورب
٩٣	أصحاب الرسالات
٩٨	المنقد المجهول
١٠٠	القلة .. والضعف ..
١٠٢	علم أم جهل ..
١٠٤	الوطن الإسلامي الكبير ..
١٠٥	لابد من أعداء ..
		نقد وتوجيه
١٠٧	التربية الجميلة
١٠٨	لو يستريح الدين من هؤلاء
١١٠	التشريع الإسلامي .. في متحف
١١٣	تعارين على الذل ..
١١٥	الشعالب من البشر ..
١١٨	رجولة ؟ ..
١١٩	العصبيات الخزبية والإسلام
١٢١	علم عقيم ..
١٢٢	منطق الحقد ..
١٢٤	حرب العصابات وحرب الخوازات
١٢٥	مشاهدات ..
١٢٥	تكليف الرجلة ..
١٢٦	بين النقص النفسي والعقلى ..
١٢٧	متاعب الحياة ..
١٣٠	فريكان ..

١٣١	في الإصلاح
١٣٢	نسبة
١٣٣	ثلاثة بدل ثلاثة ... على اعتاب الشهداء
١٣٥	السجون والمنافي
١٣٥	أرض الشهداء
١٣٦	مقاتل الصهيونية
١٣٧	جلال
١٣٨	شهداء فلسطين
١٣٨	وما هو بالهزل
١٤١	ظاهرة الحج الكبرى
١٤٤	فرنسا تكرم الحجاج المسلمين
١٤٦	ناس طيبون
١٤٧	وعظ في الهواء .. وقرآن للبيع
١٤٩	مجرمو الحرب عندنا لا عندهم
١٥٠	جهادنا وجهادهم !
١٥٢	الخطيئة حين يستغل بالدعوة إلى الله
١٥٥	درس لزعما
١٥٦	التعاون
١٥٧	من طبائع النفوس
١٥٩	زهد .. وزهد
١٦٠	إيضاح وتعليق
١٦٧	كلمة أخيرة .. صور من الماضي
١٧٩	النعمان بن مقرن .. لا يحج بعد العام مشرك
١٧٢	صارت ذكريات

١٧٢	أمير الحج .. وسفير الرسول
١٧٣	لا يغرنك تقلب الذين كفروا
		بيعة العقبة الكبرى
١٧٤	مؤاسرة ..
١٧٤	الاجتماع ..
١٧٥	مناقشات ..
١٧٦	استعداد ..
١٧٧	وفاء ..
١٧٨	ضمانة النصر في هذا الإيمان ..
		موقعه بدر
١٨١	هذا خصمان اختصما في ربهم
١٨٢	أصابع القدر ..
١٨٤	القتال ..
١٨٧	قصة أسير مسلم ..
١٩٠	سعد بن أبي وقاص ..
١٩٤	حطين ..
١٩٨	هذا الدهمية هو الذي عرف علتنا !
٢٠١	مصعب بن عمير : فاتح المدينة قبل الهجرة
٢٠١	أول الغيث ..
٢٠٢	الداعية المنتخب ..
٢٠٣	مناقشات ..
٢٠٤	في سبيل الله ..
٢٠٥	معركة مؤتة ..
٢٠٥	سبعون ضعفا ..
٢٠٦	في الميدان ..
٢٠٧	تحليل ..
٢٠٨	أبناء الشهداء ..
٢٠٩	ختام ..